المشرق

السنة الثانية والاربعون — كانون الثاني – آذار ١٩٦٨

من الخزائن الشرقية

بقلم حبيب زيات

الاسماء والكنى والالقاب النصرانية

في الاسلام

اكثر المؤرخون، منذ القرن الخامس للهجرة، من ذكر الشروط التي زعموا انها وُضعت على النصارى في ايام الخليفة عمر بن الخطاب ودعيت لذلك بالعمرية، واحتجَّ بها ابن تيميَّة في رسالة له في «مسئلة الكنائس» وقال: ان النصارى «كان قد اشترط عليهم ان لا يتسموا باسماء المسلمين ولا يتكنوا بكناهم ولا يتلقبوا بالقابهم»[1]. ومَن نظر في هذه الشروط التي تناقلها الكتّاب والأخباريون دون تثبت ولا انتقاد ولم يتفقوا فيها على نصّ واحد، وعارض ما جاء فيها من الإشارات الى بعض العادات واحوال

1) مسئلة الكنائس في مجموع رقم ٢٩٦٢، في خزانة باريس، ص ٤٧

المعيشة في اوائل الفتح الاسلامي حين كان العرب احدث عهدًا بالبداوة واحرص على التوثق من احتلال البلاد وقلة الاساءة الى اهلها ، يتضح له باجلى بيان انها محدثة موضوعة بعد الصدر الاول ، ولا يمكن ان تعزى الى ثاني الخلفاء الراشدين بل يترجح كثيرًا ان يكون جانب منها نُسب لاول مرة الى الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي ، لانه فيما يظهر اول من تشدد على النصارى ومنع ان يُستعان بهم في الكتابة والتدبير وجباية الاموال ، واشترط عليهم هيئات خاصة في المشي والركوب واللبس[1] ، فعرفت هذه الاوامر بالعمرية استنادًا اليه. ثم جاء المتوكل على الله ، الخليفة العباسي ، فاسرف في إعنات النصارى وإذلالهم ، وابتدع اشياء لم تكن من قبله ، وسار على اثره الخلفاء والملوك والسلاطين والامرآء ، ولا سيما في الدولة المصرية ، وبلغوا الغاية في العسف والتضييق . فاراد الفقهاء والرواة ان يجعلوا لمجموع هذه المظالم اصلًا راسخًا في الشرع ، ويصححوا نسبتها الى السنة فاستعاروا لها سلطة الامام عمر بن الخطاب وأوهموا انه هو اول من سنّها ووضع قواعدها.

وليس هنا محلّ الإفاضة في الاحتجاج لهذا الرأي ، فنقتصر في هذه المقالة على نقد ما يتناول موضوعها من تحريم تلقب النصارى بالقاب المسلمين. وقد فات ابن تيمية ونظرآءه ان التلقب ، كما كان في زمانه في القرن الثامن للهجرة ، لم يكن معروفًا في عهد ابن الخطاب وصدر الاسلام ، ولا في زمان الخلفاء الامويين ، ولذلك لم يتلقب احد منهم قال الخوارزمي ، صاحب مفاتيح العلوم ، في كلامه على الخلفاء الامويين : « ولا نعوت لهم ولا القاب » (ص١٠٥) واول ما نشأ التلقب في الدولة العباسية مع السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد واصبح سُنّة للخلفاء والملوك وسائر رجال الدولة وعمّ المسلمين والنصارى واليهود الى اخر دولة المماليك . وانما كان في الجاهلية وايام الهجرة اكثر ما يُعد من النبز اي من التعيير والتسخيف . ولذلك جاء في القرآن « لا تنابزوا بالالقاب » . وغاية ما سُمع منه في التعظيم الفاظ قليلة كالفاروق وسيف الله وذي النورين

---

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، سنة ١٩٢٧ ، ص ١٦٥-١٦٦

فيما رووا في مدح عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعثمان بن عفان ، وهذه الاوصاف اذا صحت نسبتها لم تكن حقيقة الا نعوتاً يُراد بها التشريف لا مجرد التعريف كما كانت الالقاب عليه في زمن ابن تيمية ومن تقدمه منذ القرن الثاني بحيث كانت تلزم دائماً مع الاسماء والكنى . فلم تكن اذن عادة التلقب التي استقرّت في عهد العباسيين ودخلت في جملة الاعلام معروفةً قبلًا على هذا الوجه في ايام عمر ابن الخطاب ، ولا كان سبق منها القاب خاصة بالمسلمين استأثروا بها وأضيفت اليهم لتصحّ نسبة منعها الى عمر وتحظيره اياها على النصارى . ومن هنا يُعلم ما في الشروط التي نحلوه اياها من الوضع والاختلاق . واما الاسماء والكنى فلا شيء يثبت ايضاً تميّز المسلمين وانفرادهم بجانب منها . وقد شهد الجاحظ ان النصارى في ايامه « تسموا بالحسن ، والحسين ، والعباس ، والفضل ، وعلي ، واكتنوا بذلك اجمع ولم يبقَ الا ان يتسموا بمحمد ويكتنوا بابي القاسم »[1] اي كنية الرسول .

وقد افرزنا الكلام في فصول خاصة على كل من الاسماء والكنى والالقاب النصرانية .

الاسماء

كانت الاسماء مشاعة مشتركة في الخلافة العباسية . وظلّ النصارى دهراً طويلًا يتخذون الاسماء الاسلامية البحتة حتى بين بطانة الخلفاء دون ان يقع عليهم اقل انكار ، مثل الحسين بن عمرو كاتب المقتفي ، وعلي بن الراهبة طبيبه ، وعلي بن عيسى الدنداني كاتب الوزير الخاقاني ، وعلي ابن ابرهيم بن بختيشوع المتطبّب ، وعلي بن علي الكاتب المذكور في الآثار الباقية للبيروني (ص٢٩٦)، وعلي بن سوار بن الخمار الكاتب اليعقوبي الذي بنى قبة القيامة بعد ان اخرب المسلمون الكنيسة واحرقوا ابوابها سنة ٣٥٥/٩٦٥ ، والحسن بن سوار بن الخمار من افاضل المنطقيين ، وعثمان بن سعيد النسطوري صاحب بيت المال ، وابي

١) رسالة الجاحظ في الردّ على النصارى ، ص ١٨

الحسن سهلان بن عثمان بن كيسان الطبيب المصري الملكي. ومن النساء زينب بنت اسحق الراسعيني التي عرفت بابيات نظمتها في مديح علي بن ابي طالب والهاشميين. وهؤلاء كلهم من النصارى الذين لا يتوجه على نسبتهم اقل ارتياب.

وقد تسمى النصارى ايضاً باسم احمد ومحمود. ومن الاول ماجد بن احمد فخر الدين القبطي المعروف بابن زنبور صاحب الجيوش المنصورة المتوفى سنة ٧٨٨/١٣٨٦، قال بعض المؤرخين: «والعجب من قبطي يسمى باحمد، وهذا ابن زنبور يذكر ان اسم والده احمد وكذلك كان يقال ان اسم والد ابي شاكر احمد»[1].

وكان اسم احمد ومحمود شائعاً خصوصاً بين اهل المدر والبدو من المسيحيين ولا تزال هذه العادة باقية عند اهل حوران. ومن الحوارنة الملكيين الذين هاجروا الى لبنان وتمذهبوا بمذهب الموارنة بيت الخازن ومنهم الشيخ محمود رشيد الخازن المتوفى سنة ١٩٣٤. روت جريدة المقطم بمصر بتاريخ ١١ يناير سنة ١٩٣٠ انه:

«قدم بيروت احد اعيان الحوارنة السيد حسن فتوح عضو مجلس ادارة الزرع وهو من الروم الملكيين فقيل له: هل انت مسيحي ام مسلم فقال. انا مسيحي واظنكم تستغربون ذلك واسمي حسن فاننا ألفنا منذ القديم هذه الاسماء التي نحبها كثيراً وقد تستغربون اذا قلت لكم ان اسم والدي محمود.»

واشد غرابة من ذلك اسم محمود الحوري من نصارى خربة في حوران.

وكان للاقباط منذ الفتح ولع شديد بتقليد المسلمين في كل شيء[2]، ولا سيما في الاسماء والازياء. كما يستدل من شهادة احد متقدميهم وهو صموئيل رئيس دير القلمون (وُلد قبل الهجرة وادرك اوائل فتح مصر) قال بلفظه مشيراً الى تلك الايام في احدى عظاته:

«وماذا اقول في تلك الازمنة وعظم الكسل الذي يلحق بالنصارى فانهم في ذلك الزمان يميلوا كثيراً عن الاستقامة ويتشبهوا بالهجرة (الهاجريين) في اعمالهم ويسموا اولادهم باسمائهم ويتركوا اسماء الملائكة والانبياء والرسل والشهداء...

١) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٩، باريس ١٣

٢) مما قلد فيه الاقباط المسلمين الاختتان احياناً، وكتابة البسملة القرآنية في مفتتح كتبهم الدينية. طالع كتابنا «الصليب في الاسلام»، ص ٥ — ٧

تجد النصارى يتركوا لغتهم الحلوة ويفتخروا بلغة العربية وباساميهم اقول لكم يا اولادي بالحقيقة ان الذين يتركون اسماء القديسين ويسمّون اولادهم بالاسماء الغريبة الذي يفعل هذا يكون بعيد من بركة القديسين»(١.

ولم ينفرد الاقباط وحدهم بنجعة الاسماء الاسلامية العربية بل كان لاهل الاندلس من نصاراها المعروفين بالمستعربين (Mozarabes) رغبة اشدّ في الاشتهار بها ايضاً ، وربما اتخذ احدهم اسمين لاتيني وعربي وقد نشر لحد علماء اسبانية اخيراً تاريخاً لهم في اربعة مجلدات[٢] تتضمن بعض هذه الاسماء المزدوجة مثل:

ابن العزيز الحمامي = Clemens filius Yohannus
خالد بن سليمان = Domingo ben Suleiman
صالح بن عمر = Juan ben Omar

ومن الغريب ان الاساقفة انفسهم كانوا على مثل هذا الزيّ. واشتهر منهم أسقف قرطبة Recemundo باسم ربيع بن زيد[٣]. ويحكى المقري بتاريخ سنة ٣٥١/٩٦٢ ان المستنصر بالله (الخليفة الاموي) تقدم باستدعاء اردون (ابن الفنش)وقد حفّته جماعة من نصارى وجوه الذمّة يؤنسونه ويبصّرونه فيهم وليد بن خيزون قاضي النصارى بقرطبة وعُبيد الله بن قاسم مطران طُليطلة وغيرهما[٤]. وكان في زمان الحكم المستنصر بالله اسقف على قرطبة يسمى الإصبغ بن عبدالله بن نبيل واشتهر ايضاً سعيد المطران وهو جوان الاشبيلي Juan) Hispalence) الّف تفسيراً بالعربية على التوراة وترجم الانجيل الى العربية.

واشدّ من ذلك غرابةً في نظرنا اليوم ورود اسم عثمان بين اساقفة اليعاقبة

---

١) مخطوط في خزانة باريس رقم ١٥٠ ، ص٢٢ و ٣٢ . وطبعت هذه العظة في *Revue de l'Orient Chrétien*, volume 20 (1915-1917 *p*. 379-381)

٢) Angel Palencia, *Los mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII*, Madrid 1926-1930.

٣) E. Levi-Provençal, *L'Espagne muslumane au Xme siècle*. Paris 1932, p. 36-37.

٤) نفح الطيب للمقري ، المطبعة الازهرية ١ : ١٨٢

وممن عُرف به عثمان اسقف التغلبيين في الجزيرة[1]. وايسر منه خطباً اسم سعيد برصابوني (يوحنان) اسقف ملطية .

وكان الخلفاء والملوك حيناً بعد حين يرسون على النصارى في الشرق ترك الاسماء الاسلامية قال العيني :

« سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) رسم السلطان ان تُقرّ اهل الذمة على ما اقرّهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضه) من ترك تشبههم بالمسلمين . . . والتسمية باسماء المسلمين »[٢].

وقد تقدم القول ان ليس لعمر بن الخطاب ناقة ولا جمل في تحظير الاسماء والالقاب ، وانه بريء من مثل هذه التهمة التي أُلصقت به تعمداً وتوهماً .

الكنى

كان في الكنى الاسلامية المحضة مثل الشيوع والاشتراك الذي كان بين المسلمين والنصارى في الاسماء . وممن اشتهر بها من المسيحيين ابو علي الحسن بن علي بن اثردي النسطوري ، وابو علي بن المسيحي رئيس الطب في بغداد ، وابو علي الحسن بن ابرهيم الشيرازي خازن معز الدولة ، وابو علي بن جبير الكاتب ، وابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان الطبيب المشهور ، وابو الحسن علي بن ابرهيم بن بكوس الطبيب ، وابو الحسن سعيد بن سنجلا كاتب الخليفة الراضي بالله ، وابو الحسين سعيد بن البرقي الكاتب ، وابو الحسين بن ابرهيم التستري الكاتب ، وابو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي الطبيب ، وابو الفضل بن داود الكاتب .

ومن ابين الدلائل على هوس النصارى بالتقليد ان رجال الدين انفسهم كانوا لا يرون بأساً في ايثار هذه الكنى الاسلامية كالارشيد ياكن ابي الحسن هبة الله بن اثردي النسطوري ، والشماس ابي الفتح بن زطينا النسطوري ، والشماس ابي شاكر بن الراهب ابي الكرم بطرس بن المهذب القبطي ، والارشيد ياكن

---

١) J. B. Chabot, *Les Evéques Jacobites du VIII^e au XIII siècle*, p. 7.

٢) تاريخ البدر في اوصاف أهل العصر، خزانة بريتيش موزيوم Add.22360, f°59^ro

ابي الخير بن هبة الله المؤمل الخطيري النسطوري ، والقس شمس الرئاسة ابي البركات بن كبر القبطي ، والقس ابي الفرج عبدالله بن الطيب النسطوري ، والشماس ابي الفتح عبدالله بن الفضل بن المطران الملكي ، والمفريان ابي الفرج ابن العبري اليعقوبي المؤرخ المعروف ، والمطران ابي الحسن اسقف بالس اليعقوبي ، والمطران ابي غالب اغناطيوس اسقف ميافارقين اليعقوبي ، والبطريرك ابي الحليم ايليا بن الحديثي النسطوري صاحب الخطب المسجّعة ، « والحبر الفاضل البار مار ابو علي سهل مولى قيس » كما ورد في كتاب له على البردي من « الخاطئة مريم رئيسة دير هندو » في دير الآباء الدومنكيين بالقاهرة .

ومن امثال الكنى التي كانت طلقاً لاهل الكتاب وغيرهم : ابو العلاء ، وابو نصر ، وابو عمرو ، وابو مَخلد ، وابو الفرج ، وابو الكرم ، وابو الحكم ، وابو النجم ، وابو الوحش ، وابو الخير ، وابو البركات ، وابو الفضائل ، وابو المكارم ، وابو الغنائم ، وابو اليُمن ، وابو السرور ، وهلمّ جرّاً . واذا لم يكن ثمّ اشارة الى نحلة اصحابها تعذّر على المؤرخ معرفة نسبتهم وإحلالهم محلهم من قومهم ، واذا اجتمع ايضاً الى هذه الكنى الاسلامية الاسماء كالتي تقدم التمثل بها فهناك العقدة التي لا تحلّ ، والمجهلة التي يحار فيها الرائد ويضلّ . ولذلك تضيق الحيل بكل من عالج تدوين اخبار النصارى في الاسلام ، واراد التنويه باعيانهم ورجالاتهم لاشتباه الاعلام عليه واستغلاق التمييز بينها ، واضطراره الى تنحية كل من لا يكون على ثقة من نصرانيته ، فربما فاته في الاحصاء اضعاف ما ثبت لديه من صريح الاسماء .

الالقاب

لم تدخل الالقاب مع الاسماء والكنى في حدّ الإعلام الا في الدولة العباسية وأوّل ما اتخذت بالاضافة الى « الدولة » في ايام الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩ — ٢٩٥ = ٩٠٢ — ٩٠٨) قال ابن القلانسي :

« واذا كان الرسم جارياً في التقدم باطراح الالقاب والانكار لها بين ذوي العلوم والآداب فلما ظهرت الدولة البويهية الديلمية لُقّب اول مسعود نبغ فيها بعماد الدولة بن

بويه . ثم اخوه وتلوه في الولادة والسادة بركن الدولة ابي علي . ثم اخوهما بعز الدولة ابي الحسن. . . ثم زاد الامر في ذلك الى ان أضيف الى القـاب ولاة الاطراف « الدين » و « الاسلام » و « الامام » و « الملة » و « الامة » وغير ذلك بحيث اشترك في هذا الفن الخاص والعام » (١

واشار هلال الصابئ الى ما استقرّ في عهده (٣٥٩ — ٤٤٧ = ٩٦٩ — ١٠٥٥) من تغيّر الرسوم والاغراق في تعظيم النعوت والصفات فقال:

« انا اليوم في انحراف قد زاد واسرف وتهاوى وما وقف حتى ان الملوك ومن بعدهم من الوزراء قد انفوا من ذكرهم « بسيدنا » واستقلوا خطابهم « بمولانا » فعدل الناس باولئك الى «الحضرة الشريفة» و «الحضرة العالية» و « الحضرة السامية » وبالوزراء الى مثل ذلك . ثم كنوا عن الخلفاء «بالموقف الاشرف المقدس » وذكروه «بالمقام الاطهر النبوي» ونقلوا الملك الى « الاشرف » و « الاعظم » وقالوا في الدعاء « نوّره الله » و « نضّره الله » الى ما بعد ذلك من المغالاة والمبالغة وانتهت هذه الحال الى ان شاركهم فيها الاكابر من اصحاب الاطراف ووقفوا بالوزراء على « الحضرة السامية » ثم الحقوا بها « المظفّرة » و « المنصورة » مع النسبة الى الالقاب « كالوزيرية » و « العميدية » و « الكمالية » وما جرى هذا المجرى وداخلهم في ذلك من يتلوهم من خلفائهم واصحاب الجيوش وامراء العرب والاكراد واتسع هذا الباب فدخل فيه كل من اراد من غير احتشام ولا ارتقاب » (٢

وبعد ان افاض في استهجان هذه المستحدثات من النعوت الفخمة والصفات الضخمة التي دعاها « نقاقيع » قال:

« فاما الالقاب فقد خرجت مما يحاط به ويوصف او يأتي عليه حصر وصار لقب الاصغر اعظم من لقب الاكبر . . . حتى لقد بلغني عن مولانا الخليفة القائم بامر الله اطال الله بقاءه انه قال : لم تبقَ رتبة لمستحق » (٣

وولع الناس باللقب المضاف الى « الدولة » حتى خرج من الجدّ الى الهزل واتسم به بعض الظرفاء من الطنبوريين نظير احمد بن محمد بن علويه من اهل سجستان في ايام المقتدر وادرك دولة بني بويه ولذلك سمّى نفسه بجراب الدولة لانهم كانوا يفتخرون بالتسمية في الدولة[٤].

١) ذيل تاريخ دمشق ، ٢٨٣
٢) تاريخ الوزراء ، ١٤٨
٣) تاريخ الوزراء ، ١٤٩ — ١٥١
٤) ارشاد الاريب لياقوت ٢ : ٦٢ — ٦٣

ويؤخذ من ابيات لابي بكر الخوارزمي ان اهم اسباب ابتداع هذا التلقيب كان طمع الخليفة بالارتزاق التوسع في الانفاق ، فتفتقت له الحيلة هذه الوسيلة واصبحت من بعده سنة للخلفاء والملوك والسلاطين وذريعة لهم لابتزاز الاموال وتأليف القلوب . قال ابو بكر :

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكُنى ومن الاسماء ابوابا
ولقّبوا رجلاً لو عاش أوّلُهم ... ما كان يجعله للحشّ بوّابا
قلّ الدراهم في كفّي خليفتنا(١ ... هذا ، فانفق في الاقوام القابا(٢

وعنه اخذ ابو القاسم شمس الائمة البيهقي قوله في مثل لفظه ومعناه :

كتّاب حضرتنا دامت سلامتهم ... جيئون من الالقاب اسبابا
وينصبون من الاطماع ألوية ... ويفتحون من الالقاب ابوابا
ويبخلون بما جاد الكرام به ... وينفقون على الاقوام القابا(٣

ثم عمّ التلقيب بالاضافة الى « الدين » في خلافة القادر بالله (٣٨٥ — ٤٢٢ = ٩٩٢ — ١٠٣١) « وتزايد وافرط حتى دخل فيه الكتّاب والجند والاعراب والاكراد وسائر من طلب واراد »[٤].

قال ابن تغري بردي وكان يلقب بجمال الدين :

« ومن يومئذ ظهرت الالقاب وتغالت فيها الاعاجم حتى انهم لم يدعوا شيئاً الا واضافوا الدين له حتى اشتهر وشاع وتسمّى به كل احد حتى الاسافلة فمنهم من يسمّى جلال الدين ويمد الدين وجمال الدين فلا حول ولا قوة الا بالله وحتى المغاربة في حقهم ممن يلقب بهذه الالقاب وانا بالله احلف لو ملكت امري ما لُقِّبت بجمال الدين ولا غيره واكره من يسمّيني بذلك ولا اقدر على تغيير اصطلاح وهذا لا يكون الا من والي امر او حاكم بلدة » (٥

ومن هؤلاء المغاربة الحنقين من الالقاب المضافة الى الدين ابن جُبير الرحّالة المشهور ، قال في كلامه على اهل دمشق واجتماعهم بالجامع الاموي للعزاء :

---

١) ورد هذا البيت في « ارشاد الاريب » (٢ : ٢٦٣) وقد تصحّف فيه لفظ « كفّي » بلفظ « كيس ».

٢) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي لمحمد بن احمد المنشي النسوي ، ١٠٠

٣) ارشاد الاريب ٢ : ٢٦١ — ٢٦٣

٤) صبح الاعشى للقلقشندي ٥ : ٤٤٣

٥) النجوم الزاهرة ، طبعة ليدن ، ٢ : ١٤٥

« ربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بازاء بـاب البريد . . . ويرفعون اصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة ويحلّونهم(١ بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين او شمسه او بدره او نجمه او زينه او بهآئه او جماله او مجده او فخره او شرفه او معينه او محييه او زكيّه او نجيبه الى ما لا غاية له من هذه الالقاب الموضوعة . . . »(٢

واذا حقّ لابن تغري بردي ان يحنق من تلقب الاسالمة بالمضاف الى الدين فما عساه كان يقول لو تذكر ان طائفة من اعيان النصارى كانوا يتلقبون ايضاً نظيره بالاضافة الى الدين . ولا بأس ان نذكر بعضاً منهم تنويراً للأذهان ، فمنهم جمال الدين علي بن اثردي النسطوري ، وتاج الدين ماري بن صاعد توما وكيل مجاهد الدين ايبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير ، والشيخ موفق الدين يعقوب بن اسحق بن القفّ الطبيب الملكي من نصارى الكرك ،ونظيره الاطباء الملكيون علم الدين ابوالنصر جرجس بن ابي حُلَيقة ، وموفق الدين يعقوب بن سقلاب ، وولده سديد الدين ابو منصور ، ومهذّب الدين ابو سعيد بن داود بن ابي المنى ، ورشيد الدين ابو الوحش بن ابي حُلَيقة وغيرهم ممن لا حاجة الى استيفائهم .

قال القلقشندي في الكلام على القاب ارباب الاقلام :

« وللقبط القاب تخصّهم ايضاً فيقولون في عبد الله « شمس الدين » وفي عبد الرزاق « تاج الدين » وربما قالوا « سعد الدين » وفي ابرهيم « علم الدين » وفي وهبه « تقي الدين » ونحو ذلك . »(٣

واكثر ما كانت القاب النصارى تُضاف الى « الدولة » ولا سيما بين كتاب الدواوين والصيارف ومن في معناهم(٤ . فمنهم فخر الدولة ابو المفضّل اسعد بن العسّال ، وصفيّ الدولة ابو الفضائل ماجد بن العسال ، ومؤتمن الدولة ابو اسحق ابن ابي المفضّل بن العسال ، وتاج الدولة سيف الاسلام بهرام الارمني وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، وشمس الدولة بن مخلد كاتب السلّة ببغداد ، وامين الدولة موفق الملك ابو الحسن هبة الله بن التلميذ الطبيب النسطوري ، وولده

١) في الاصل المطبوع « ويحلّونهم » بالحاء والتشديد وهو تصحيف .
٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٥
٣) صبح الاعشى ٥ : ٤٩٠
٤) « « ٥ : ٤٤٣

رضي الدولة ابو نصر ، ونفيس الدولة الدمشقي المعروف بابن طُليب الطبيب الملكي،والشماس الشيخ الصفي (اي صفي الدولة) اندراوس بن الشيخ الارخن سعيد الدولة من مدينة قوص ، وخاصة الدولة ابو الفضائل دخان صاحب الديوان بمصر ، وشمس الدولة ابو الخير سهل بن توما الطبيب.

« ومنهم من يحذف المضاف اليه في الجملة ويعرّف اللقب بالالف واللام فيقولون « الشيخ الشمسي » و « الشيخ الصفي » و « الشيخ الموفق » وما اشبه ذلك فاذا اسلم احدهم أسقطت الالف واللام من اول لقبه ذلك وأُضيف الى « الدين » فيقال في الشيخ الشمسي شمس الدين وفي الصفي صفي الدين وفي وليّ الدولة ولي الدين وما اشبه ذلك وربما كان لقب الذمي ليس له موافقة في شيء مما يضاف الى الدين من القاب المسلمين فيُراعى فيه اذا اسلم اقرب الالقاب اليه مثل ان يقال في الشيخ السعيد اذا اسلم سعد الدين ونحو ذلك »(١

ومن القاب النصارى ايضاً ما أسند الى « الملك » واشتهر به معتمد الملك ابو الفرج يحيى بن التلميذ طبيب الدولة العباسية ، والشيخ مصطفى الملك يعقوب ابن جرجس الطبيب ، وامين الدولة موفق الملك المفضَّل بن ابي غالب بن الماوردي الطبيب ، وصنيعة الملك سعيد بن ابي اليُمن النحّال ، وتاج الملك اسحق بن كاتب قيصر .

ومن هذا القبيل ما أُضيف ايضاً الى « الخلافة » و « الإمام » ، و « الرئاسة » ، و « الرؤساء » ، و « الكفاة » ، وعُرف بها صنيعة الخلافة ابو الكرم الاخرم بن ابي زكريا ، والشيخ نشْ الامام بن عز الكفاة المذكور في نسخة من المزامير رقم ٢٠٤ في خزانة القبر المقدس، والقس شمس الرئاسة ابن كَبَر ، وتاج الرئاسة ابن الغنّام والد الوزير الصاحب امين الدين الاسلمي ، وعَلَم الرئاسة ابن كاتب قيصر ، وجمال الرؤساء ابو الفتح هبة الله ابن المفضل بن صاعد بن التلميذ الكاتب ، وتاج الرؤساء ابو غالب الاصباغي وسواهم من اعيان النصرانية حتى سقوط دولة المماليك.

وكان كتاب الدواوين في اواخر الخلافة الفاطمية الى اثناء الدولة الايوبية ، قبل اتخاذ الالقاب المضافة الى « الدولة » و « الدين » ، يتلقبون بصفات ونعوت شتى نظير « الرشيد » و « العميد » و « المكين » و « الخطير » و « الفاضل »

١) صبح الاعشى ٥ : ٤٩٠ – ٤٩١

و «العماد» وما اشبه من ادوات التفخيم. وفي دولة المماليك اختُصَّ النصارى واليهود بصيغة «افمل» مفردة او مقرونة بلفظ الشيخ، وممن عُرف بها الشيخ الامجد رفايل كاتب الجيزة، والاسعد ابن كاتب الجيوش بالديار المصرية.

ولما جاءت دولة الاتراك العثمانيين سقطت كل هذه الالقاب العربية. واختُصَّت النصارى واليهود باللقب الفارسي «خواجه»، وكانَ قبلًا في الدولة المصرية اكثر ما يطلق على اكابر التجار الاعاجم. وقد رأينا ان نفرد له فصلًا برأسه نذكر فيه ما التقطناه من تاريخه واخباره.

لقب الخواجه

يصعب جدًا ضبط الوقت الذي دخل فيه هذا اللقب في الاصطلاح. وغاية ما وقفنا عليه انه سُمع لاول مرة في بغداد بين اسماء المماليك في الدولة الديلمية[١]. ويؤخذ من رواية المسعودي ان اهل خراسان كانوا اذا ارادوا تعظيم الشيخ فيهم سمّوه خواجه[٢]. ويظهر انه لاول كتابته كان غالبًا يُرسم بالالف بآخره حسب لفظه، وعلى هذا الرسم جرى كثير من الكتاب من المتقدمين والمتأخرين. وممن كتبه بالهاء هلال الصابي في تاريخه[٣]، والمسعودي في مروج الذهب[٤]، وابن الاثير مرة بعد اخرى في الكامل[٥]، وابن بطوطة في رحلته[٦]، والظاهري في زبدة كشف الممالك[٧]، وصاحب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية[٨]، وغيرهم ممن لا نطيل بذكرهم. ولعلّ هذا الرسم هو الاولى لامكان اجراء اللفظ معه على القياس دون تصرف وتبديل واستعارة

---

١) ياقوت: ارشاد الاريب ٧ : ٢٧

٢) مروج الذهب، بهامش نفح الطيب، ٣ : ٤٥٦

٣) الجزء الثامن ٣٥٢

٤) ٣ : ٤٥٦

٥) ٩ : ٣٥ و ١٠ : ٧٢

٦) طبعة مصر ١ : ١٣٧

٧) ص ١٠١

٨) بهامش الاول من وفيات الاعيان، ص ١٩٧ و ٢٦٦ و ٣٢٤ الخ

لطريقة الاعاجم بخلاف المرسوم بالالف وقد نقلنا رسمه تارة بالالف وتارة بالهآء طبقاً للاصل الذي وجدناه.

ويستدلّ من بعض الشواهد ان النسبة اليه كانت اولا بالهمز واليآء. ومنها قول الصابئ «وجعلني من خواجائية الديلم»[1]. ثم تغلّبت عليها الاداة الفارسية فقالوا فيها الخواجكي والخواجكية كما نسبوا الى الشِحنة شحنكي وشحنكية، والى الخاصة خاصكي وخاصكية. واشتهر بدمشق بهذه النسبة نوع من الخوخ (الدراقن) كان يقال له الخواجكي[2]. وكان مثل هذا الاصطلاح الفارسي شائعاً ببغداد حتى سُمع في ما تنسبه العامة ايضاً. ومنه حكاية التنوخي «رأيت حذآء ماجناً بباب الطاق يُعرف بالمداق ويُلقب بالقاضي يسمي النِعال باسمآء من جنس الصفعة على سبيل الهزل فيقول لمن يخاطبه: «هذه صلمكية وهذه راسكية»[3] (نسبة الى الصلمة والراس). ومن هذا الباب قول عماد الدين الاصفهاني في اخبار سنة ١١١٨/٥١٢ «اجتمع عند السلطان (محمد ابن ملكشاه) الخواجكية والامرآء والاماثل والكبرآء»[4] وعلى ذلك استقرت قاعدة المصطلح الشريف في دواوين الانشآء، واطّردت هذه النسبة في كتابة التواقيع والمراسيم وسائر المخاطبات السلطانية لاكابر التجار في القطرين المصري والشامي، وبقيت منها بقية حتى اواخر القرن الثامن عشر بين القاب النصارى الملكيين في مصر ودمياط ومنها قول البطريرك كيرلس طاناس في منشور له بتاريخ ١٥ ايلول سنة ١٧٤٥ (ح.ش.) «اولادنا التجار الموقرين والخواجكية المحترمين».

واصل الواو في الخواجه ان تُكتب ولا تُقرأ فتلفظ «خـاجه» بالف مُستَرَقَة بين الضمة والفتحة كالواو في خواش مدينة بسجستان. قال ياقوت: واهلها يقولون «خاش»[5]، ونظيرهما واو خوارزم في بيت الخطيب ابي المؤيد الموفق الخوا رزمي:

---

١) الجزء الثامن، ٢٨٤

٢) نزهة الانام في محاسن الشام للبدري، ٢٠٦

٣) نشوار المحاضرة ١ : ٢٠٧

٤) تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار البنداري ٢٣١

٥) معجم البلدان، طبعة اروبة ٢ : ٤٨٦

تلفّتُ منهـا نحو خوارزم والهًا حزينًا ولكن اين خوارزم من نجد(١

فان الوزن لا يستقيم الا باهمال الواو في التلفظ بخوارزم في الشطرين كما لا يخفى. ومثله قول اللحام :

ما اهل خوارزم سلالة آدم ما هم، وحق الله ، غير بهائم(٢

ولذلك ضبط ياقوت لفظ «خوارزم» اوله بين الضمة والفتحة والالف مسترقة ليست بالف صحيحة قال: هكذا يتلفظون به.»[٣] ثم تنوسي كل ذلك وغلب التلفظ بالواو في خواجه كما في خوارزم طبقاً للرسم وعليه قول الصاحب ابن عباد حين بلغه موت ابي بكر الخوارزمي:

اقول لركب من خراسان رائح أمات خوارزميكم قيل لي نعم(٤

قال القلقشندي : «الخواجا من القاب اكابر التجار الاعاجم من الفرس وغيرهم وهو لفظ فارسي ومعناه السيد والخواجكي بزيادة كاف نسبة اليه كأن الكاف في لغتهم تدخل مع ياء النسب[٥].» ومع صراحة هذه العجمة لم يعدم هذا اللفظ من تعمد اختلاق اصل له عربي «حُكي ان معزّ الدولة بن بويه قلد شرطة بغداد غلاماً تركياً اسمه خواجا فبلغ ذلك ابا عمر الزاهد وكان يملي كتابه «اليواقيت في اللغة» فقال للجماعة في مجلس الاملاء : اكتبوا «ياقوتة خواجا». الخُواج في اللغة الجوع ثم فرّع على هذا باباً وأملاه عليهم»[٦] وهذه النكتة حرية بالتسجيل لدلالتها على اخلاق بعض اللغويين وعبثهم باللغة في خدمة اغراضهم.

وكان كتاب الدواوين قديماً يضيفون الى هـذا اللقب في خطاب اكابر التجار نعوتاً طويلة الذيل لا بأس بتعدادها، نظرًا لغرابتها و إغراقها، ننقلها من نسخة مرسوم شريف بسامحة كُتب بها عن نائب الشام في دولة السلطان

---

١) معجم البلدان ، طبعة اوربة ٢ : ٤٨٤
٢ و٣) « « « « ٢ : ٤٨٠
٤) ارشاد الاريب ٢ : ٣١٤
٥) صبح الاعشى ٦ : ١٣
٦) ارشاد الاريب ٧ : ٧٢، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢ : ٢٥٧ — ٢٥٨

الملك الناصر فرج للخواجا شمس الدين محمد بن المزلق كبير تجار دمشق وهذا نصها:

« رُسم بالامر العالي . . . ان يُسامح الجناب العالي الصدري الكبيري المحترمي المؤتمني الاوحدي الاكملي الرئيسي العارفي المقرّبي الخواجكي الشمسي مجد الاسلام والمسلمين شرف الاكابر في العالمين اوحد الامناء المقرّبين صدر الرؤساء رأس الصدور عين الاعيان كبير الخواجكية سفير الدولة مؤتمن الملوك والسلاطين محمد بن المزلّق عين الخواجكية بالمملكة الشامية المحروسة » (١

وفي كتاب إجابة السائل الى معرفة الرسائل باب وهو الخامس في « القاب الخواجكية تجار الخاص الشريف » قيل فيه:

« الذي يُكتب لكبارهم الآن مثل عثمان بن مسافر ونظام الدين الاسعردي :

« المجلس الساميّ الصدري الكبيري الكاملي الماجدي الاوحدي المقرّبي المُنتجبي الاميني الاثيري الخواجكي الفلاني مجد الاسلام زين الانام شرف الرؤساء اوحد الكبراء تاج الامناء فخر الاعيان مقرَّب الحضرتين مؤتمن الممالك ثقة الدول صفوة الملوك والسلاطين فلان الفلاني تاجر الخاص الشريف ادام الله تعالى سعادته » .

واما من عداهم من التجار فمن كان معتبراً كُتب له :

« مجلس الصدر الاجل الكبير المحترم المقرب الاوحد فلان بن فلان » .

ومن دونه :

« الصدر الاجل الى آخره » (٢

اي باسقاط لفظ « المجلس » فقط . ويُراد بالصدر صدر المجلس الذي هو اعلى اماكنه وارفعها ، والمجلس عندهم ادنى رتبة من « الجناب » . وكانوا يرون ان الالقاب المُلحق بها ياء النسب كالتي تقدمت في مكاتبة محمد بن المزلق هي اكثر مبالغة وارفع رتبة مما تجرد عنها ، « فالكبيري » و« المحترمي » عندهم هما ابلغ واعلى من « الكبير » و « المحترم » ، ولذلك كانوا يطلقون الاولين على تجار الخاص اي تجار السلطنة ورؤساء التجار ويخاطبون بالاخيرَين من عداهم من عامة التجار .

ثم هدرت هذه الشقاشق مع الايام ، وتبدلت الالفاظ والرسوم ولم يسلم

١) صبح الاعشى ١٣ : ٤٠

٢) اجابة السائل ، باريس ٦٦٣٧ ، ص ١٢٢

من كل هذه التعظيمات والتفخيمات سوى ثلاثة القاب هي اصل مصطلح كتاب اليوم في خطاب التجار « جناب الاجل الخواجا فلان المحترم ».

ولما زالت دولة المماليك وانتقل السلطان الى الاتراك العثمانيين نشأت عندهم رتبة « الخواجكان » قال المرادي : « وهم باصطلاح الدولة اعيان الكتّاب ورؤساؤهم اي كتاب الدواوين . . . وهذا الطريق في الدولة يحتوي على كُمّل وادباء وظرفاء وشعراء »[١] . وعدّ منهم ابا بكر بن مصطفى باشا الحنفي القسطنطيني وحسن افندي الدفتري وحسين بن فخر الدين بن ممن .

وكان لقب الخواجكية قديماً يقوم مقام الوزارة ، قال ابن الفوطي في كلامه على كمال الدين السهروردي : « فوّض اليه الديوان خواجكية عدة من الامراء وهذا المنصب كالوزارة . »[٢]

وفي الدولة العثمانية اختصّ لقب الخواجه بالنصارى واليهود . وبقي كذلك الى اليوم الحاضر بعد ان كان في كل هذه العصور السابقة اكثر شيوعاً بين المسلمين واعلق برجالهم وكبرائهم . ولعلّ هذا الاختصاص حدث في القرن الثاني عشر للهجرة لانه في سنة ١٠٠١ (١٥٩٢/٣ م) كان ابن المنبري بدمشق معروفاً بلقب الخواجا محمد[٣] . وفي سنة ١٠٤٥ في جمادى الآخرة (١٦٣٥ م) ورد دمشق عبدالله بن عمر الشهير بخواجه زاده قاضي العسكر القسطنطيني المولد[٤] . ولا يبعد ان يكون احد اسباب هذا الاختصاص غلبة النصارى واليهود بين كتاب الدواوين في مصر والشام ، كما كان العهد بهم منذ نيف ونصف قرن ، وانقطاع اكثرهم الى التجارة ولا سيما مع مشايعيهم في الدين في الامصار الاروبية . فانفردوا رويداً رويداً باللقب الخاص بالتجار في الدولة المصرية ، كما سبق من لفظ القلقشندي ، وبكتاب الديوان في الدولة العثمانية حسبما نصّ عليه المرادي فيما تقدم . ثم عمّ هذا اللقب سائرهم دون تمييز ولا استثناء .

على ان من تتبع هذا اللقب في كتب الاخبار والتراجم يتضح له انه لم

---

١) سلك الدرر ١ : ٥٢ و ٢ : ٣٢
٢) تلخيص مجمع الآداب ، طبعة الهند ، ص ١٣٠-١٣١ .
٣) خلاصة الاثر للمحبي ٣ : ٦٤
٤) 〃 〃 〃 ٣ : ٣٠٠

يكن في عهد العباسيين مُقتصرًا به على اكابر التجار فقط، بل كان يتناول احياناً طائفة من العلماء والائمة والقضاة والفقهاء. واشهر من عُرف به من العلماء الخواجا نصير الدين الطوسي الفيلسوف صاحب الرصد والعلوم الرياضية المتوفى ببغداد سنة ٦٧٢ /١٢٧٢[1]؛ ومن القضاة الخواجا القاضي علاء الدين الصابوني ناظر الاسطبل في مصر سنة ٨٦٦ (١٤٦١/٢م)؛ وخواجه زاده عبدالله بن عمر قاضي العسكر السابق الذكر؛ ومن الفقهاء الخواجا محمد بن احمد بن حاجي الشهير بمولانا شمس الدين من اعيان الشافعية بالقدس المتوفى بمكة سنة ٨٣٥ (١٤٣١/٢م)[2]. بل لُقب به بعض الولاة والقوّاد والامراء والوزراء نظير خواجه ابي القاسم متولي ارزن[3]. وخواجه سرور قائد البحر في بلاد المعبر[4]. ومن الامراء «دمشق خواجه» احد الامراء الخاصكية[5]. ومن الوزراء نظام الملك الذي طبّق ذكره الشرق، قال عبد السميع بن داود العباسي:

«شاهدت ملكشاه (السلطان) وقد أتاه رجلان من العراق السفلى من قرية الحدادية يعرفان بابني غزال فلاحيه فقالا: ان مُقطعنا الامير خمارتكين قد صادرنا بالف وستمائة دينار وقد كسر ثنيتي احدنا – واراهما للسلطان – وقد قصدناك لتقتصّ لنا منه... قال: فرأيت السلطان وقد نزل عن دابته وقال: ليمسك كل واحد منكما بطرف كمّي واسحباني الى خواجه حسن يعني نظام الملك»[6].

ومن الوزراء ايضاً خواجا ابو القاسم وزير الامير نصر الدولة ابي نصر بن مروان امير فارقين[7]، وناصر الدين خليفة ابن خواجا علي شاه وزير ابن ابي سعيد ٧٣٨ (١٣٣٧/٨م)[8].

وجاء في سيرة جلال الدين منكوبرتي انه كان من عادة ملوك خوارزم

---

١) الوافي بالوفيات للصفدي، خزانة باريس ٥٨٦٠، ص ٥٧ – ٥٩
٢) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلي ٢ : ٥١١
٣) الكامل لابن الاثير ٩ : ٣٥
٤) رحلة ابن بطوطة، مطبعة وادي النيل، ٣ : ١٤١
٥) 〃 〃 〃 〃 〃 ١ : ١٣٧
٦) الكامل لابن الاثير ١٠ : ٣٢
٧) الاعلاق الخطيرة لابن شداد.
٨) السلوك للمقريزي، باريس ١٧٢٦، ج ١ : ٤٦٤

والهند « ان يخاطبوا وزراءهم « بخواجه » وان يجلسوهم على ايمانهم عند الاذن العام »[1].

ويظهر ايضاً انه كان من الرسم للوزراء في دهلي بالهند ان يتخذ الواحد منهم عندما يلي الوزارة لقب « خواجه جهان ». قال ابن بطوطة : « اول ما بدأ به السلطان ناصر الدين (سلطان المعبر Malabar) ولّى الوزارة خواجه سرور قائد البحر وامر ان يُخاطب بخواجه جهان كما كان يخاطب الوزير بدهلي »[2].

وقد قلّبنا ما وسعنا تقليبه من السير والتراجم فلم نظفر بمن اتّسم بهذا اللقب بين الملوك والسلاطين الاعاجم ، خلا واحداً كان سلطاناً بالاسم فقط ، وهو محمود بن بهآء الدين الكيلاني المعروف بخواجا سلطان مات سنة ٨٥٥[3]/ ١٤٥١.

وممن تميّز بهذا اللقب قوم من كبار التجار واهل المبرّات والاحسان ، سجّل لهم التاريخ اطيب الذكر في إشادة المدارس والزوايا والخوانق ، نظير الخواجا علاء الدين علي بن اسماعيل بن محمود السنجاري باني مدرسة القرآن السنجارية ازاء باب الناطفيين من الجامع الاموي بدمشق ، توفي بمصر فجأة في ١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٣٥[4]/١٣٣٥. والخواجا عز الدين السلامي باني دار القرآن السلامية المتوفى سنة ٧٦٢[5] (١٣٦٠/١ م) والخواجا شمس الدين محمود بن ابرهيم الكججاني الذي بنى سنة ٧٦١ (١٣٥٩/٦٠ م) الخانقاه ظاهر دمشق بالشرف الاعلى[6]. والخواجا مجد الدين عبد الغني الاسعردي واقف المدرسة الاسعردية بالقدس سنة ٧٧٠[7]/١٣٦٨. والخواجا ابرهيم بن السعرتي باني المدرسة الاسعردية بدمشق[8]. والخواجا علاء الدين الطرابلسي صاحب المدرسة

١) سيرة جلال الدين منكوبرتي لمحمد بن احمد المنشي النسوي ، ١٠٣ – ١٠٤
٢) رحلة ابن بطوطة ٣ : ١٤١
٣) الضوء اللامع للسخاوي ، الخزانة التيمورية ، ٦ : ٢١٩
٤) مختصر تنبيه الطالب لعبد الباسط العلموي ، باريس ٤٩٤٣ ، الورقة ٣
٥) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٨ ، ص ١٦١
٦) 〃 〃 〃 〃 ١٦٠٠ ، ج ١ : ١٦٧
٧) الانس الجليل ٢ : ٣٦
٨) تنبيه الطالب وارشاد الدارس لمحي الدين النعيمي ، ٥٩١٢ باريس ، ص ٤١

بسُوَيقة صاروجا بدمشق التي كملت سنة ٨١١[١]/١٤٠٨. والخواجا ابرهيم بن مبارك شاه منشئ المدرسة بالجسر الابيض بدمشق الذي مات مطعوناً سنة ٨٢٦[٢] (١٤٢٢/٣ م). والخواجا الرئيس الشهاب ابو العباس احمد بن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة بن نصر الدين بن نصر الله البغدادي البصري صاحب مدرسة القرآن الدلامية بدمشق بالقرب من الماردانية بالصالحية اوقفها سنة ٨٤٧[١٠]/١٤٤٣ وبها تربته. والخواجا شهاب الدين احمد بن علم الدين سليمان بن محمد البكري الدمشقي المعروف بالصابوني باني مدرسة القرآن الصابونية بدمشق اتمها في شعبان سنة ٨٦٨[٤]/١٤٦٤ ودفن بها. والخواجا عمر بن ابرهيم السفرجلاني واقف الزاوية التي بناها وحبسها على ارباب الطريق[٥]. وهلم جرًّا.

ومن التجار الخواجكية الذائعي الصيت خواجا مجد الدين السلامي تاجر الخاص في ايام الملك الناصر محمد بن قلاوون[٦]. ومحمد بن المزلّق بدمشق وهو الذي كُتب له المرسوم السلطاني السابق الذكر بالمسامحة بالباقي عليه من الحقوق والضرائب الديوانية بعد ان أُمسك وحبس بالقلعة.

قال المقريزي: «في المحرم سنة ٨٤٣ (١٤٣٩ م) رُسِم بسجن الخواجا شمس الدين محمد بن المزلّق كبير تجار الشام في قلعة دمشق حتى يحمل ثلاثين الف دينار للخزانة السلطانية وعشرة آلاف دينار لديوان الخاص فقام ولده وصالح عن ذلك بخمسة الاف دينار للخزانة»[٧]. وولده هذا هو ولا شك الخواجا حسن الذي خُلع عليه في صفر سنة ١٤٤٧/٨٥١ بنظر جيش دمشق[٨] لان ولده الآخر الخواجا عمر كان قد توفي بالطاعون سنة ١٤٣٧/٨٤١ بدمشق قال السخاوي: «وكان خيِّرًا سالكاً طريق ابيه في تعاني التجارة. بل رأيت

---

١) الاول من إنباء الغمر بابناء العمر لابن حجر العسقلاني ؛ باريس ١٦٠١ ، ص ٢٥٢
٢) تشنيف المسامع بتهذيب الضوء اللامع للملاني ، الخزانة التيمورية ، ص ٦٣
٣) مختصر تنبيه الطالب للعلموي ؛ باريس ٤٩٦٣ ؛ الورقة ١
٤) « « « « « ٤٩٦٣ ، الورقة ٢
٥) سلك الدرر للمرادي ٣ : ٩
٦) الخطط للمقريزي ٣ : ٦٩
٧) السلوك للمقريزي ، باريس ١٧٢٢ ، ج ٢ : ٤٧١
٨) التبر المسبوك للسخاوي ٣٧٤

وصفه «بالجناب العالي الخواجكي ملجأ الفقراء والمساكين»[١]. وفي ايامهم كان الخواجا شمس الدين محمد بن صدقة الدمشقي مات سنة ٨٠٣[٢]/١٤٤٠ واشتهر بمصر الخواجا ابو بكر الزين السنودي القاهري المتوفى سنة ٨٦٥[٣] (١٤٦٠/١م)، وبالاسكندرية خواجا جمال الدين يوسف الفاخوري ذكره صاحب مسالك الابصار في كلامه على كتّان مصر[٤].

ومن نوادر هذا اللقب انه عُلِّق حتى بالاشراف المنتمين للخلفاء العباسيين قال ابن بطوطة:

«سألني سلطان الهند والسند عن نوع من الحلوآء الذي بعثت به له من قبل... فقلت له: هي لُقَيمات القاضي[٥] وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يُعرف بالسامري وينتسب الى آل عباس (رضه) وهو كثير المال ويقول له السلطان «والدي» واراد ان يُخجلني فقال: ليست هذه لقيمات القاضي... وكان بازآئه ملك الندمآء ناصر الدين الكافي الهَرَوي وكان كثيرًا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان فقال له: يا خواجه انت تكذب والقاضي يقول الحق... هو القاضي وهي لُقَيماته فانه اتى بها»[٦]

ومن ذرّية عمر بن الخطاب — فيما يقال — خواجه عبيد الله السمرقندي، واحفاده خواجه محمد قاسم، وخواجه عبد الهادي بن خواجه محمد عبدالله[٧]. واشتهر في القرن التاسع للهجرة لقب «خواجه باشا» عرف بـه سنان الدين يوسف بن خضر مؤلف «تذكرة الاوليا» بالتركية[٨].

ولا بأس ان نجعل فكاهة الختام ايراد نكتة عن «الخواجا» ننقلها بلهجتها المبتذلة عن تاريخ الجزري بروايته عن والده قال:

١) الضوء اللامع للسخاوي، الخزانة التيمورية ١٣٧٩، ج ٣ : ٨٧٤
٢) التبر المسبوك ٢٨٧
٣) الضوء اللامع، الخزانة التيمورية، ج ٧ : ٢٢١
٤) مسالك الابصار للعمري؛ باريس ٢٣٢٥، ج ٣ : ١٦٢
٥) ذكر الخفاجي في شفاء الغليل ان الزُماوَرد (رقاق من اللحم والبيض) هو «في كتب الادب طعام يقال له لقمة القاضي ولقمة الخليفة» (ص ١١٣) ويتضح من شهادة ابن بطوطة اعلاه ان لقمة القاضي او لُقَيماته بالتصغير هي بالارجح نوع من الحلوآء يتخذ من العجين كما هو مشهور في مصر والشام.
٦) رحلة ابن بطوطة ٣ : ٨٤
٧) الشقائق النعمانية، بهامش وفيات الاعيان ١ : ٢٨١
٨) كشف الظنون ١ : ٢٧٢، طبعة سنة ١٣١٠

« لما كنت مجاورًا بمكة شرفها الله تعالى كنت قد صادفت انسان حلواني اقعد عنده واشتري منه. وهو دائمًا ينادي على حلاوته « رحل خواجا وأسفي عليه » فسألته عن سبب قوله ذلك فقال: « في بعض الاعوام قدم حجاج العراق ومعهم اعجام كثيرة. فلما كان اول يوم عاد الحاج من منى وانا قد طبخت الحلاوة وبسطت الدكان. واذا بشاب جميل الصورة عجمي قد قعد مكانك — وكنت قاعد على كرسي قدام الدكان — فاشار الي « أن أطعمني » قال: فغرفت له فاكل حتى شبع وقام راح ولم يعطني شيئًا وبعت واشتريت وكسبت واستبركت بوجهه فلما كان ثاني يوم حضر على عادته فحطيت له فاكل حتى شبع وقام راح فلما كان ثالث يوم حضر على العادة فحطيت له فاكل حتى شبع ومسح يده ومد يده الى جيبه فاخرج صرة ذهب فيها ماية دينار وقال خذ هذه الصرة ثمن حلاوتك فقلت له: يا سيدي الذي اطعمتك ما يسوى ثلاثة دراهم فقال يا أخي لا يمكن اني لما سافرت وودعت اهلي جاءت اختي وهي تعز علي واعطتني هذه الصرة وقالت لي: كُل بهذه حلوى في مكة واليوم قد دق الكوس والرحيل قبل الظهر وما قالت لي غير هذا القول ولا قالت: كُل وأطعم وانا قد اكلت عندك وشبعت في هذه الثلاثة أيام فقلت له: ما تأخذ معك من هذه الحلاوة زوادة قال: لا. هذه امانة ولا يمكني مخالفتها لعظم محبتي لها وودعني وانصرف فهذا سبب قولي « رحل خواجا وأسفي عليه »([1]

وقد ألّف غير واحد من اهل العلم والحديث في « الاسماء والكنى والالقاب » منها كتاب بهذا العنوان لابي زيد البلخي[2]. ولابن خالويه « كتاب الالقاب ». ومثله لابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي؛ ولابي الفضل علي بن الحسن الهمداني المعروف بابن الفلكي؛ ولابي بكر احمد بن عبد الرحمن الشيرازي[3]. وورد « كتاب الاسماء والكنى » لابي أحمد محمد بن محمد الحاكم النيسابوري[4]؛ ولعلي بن المديني؛ ومسلم بن الحجاج والبخاري من المحدثين[5] و « كتاب الاسماء » لابي سعد سعيد بن احمد الميداني؛ وكتاب « المنى في الكنى » للسيوطي[6]. ولكن معظم هذه المؤلفات وُضع في تعريف رجال الحديث، وهي بالطبع خالية من كل اشارة الى اعلام النصارى في الاسلام.

---

١) تاريخ حوادث الزمان وانبائه لشمس الدين الجزري؛ باريس ٦٧٣٩، ص ٢٦٤–٢٦٥
٢) الفهرست، طبعة مصر، ١٩٨
٣) كشف الظنون، طبعة الاستانة، ٢ : ٢٦٥
٤) « « « ٢ : ٢٦٣
٥) الفهرست ٢٣٢
٦) كشف الظنون ٢ : ٢٦٣

تُفّاح لبنان

تعدّدت انواع التفاح في الشرق وانفرد كل صقع فيه بمزيّة خاصة به من الطعم واللون والرائحة . ولكن لم تجتمع هذه المزايا الثلاث في صنف منه اجتماعها في تفاح لبنان . ولذلك طبّقت شهرته قديماً آفاق المشرق ، وترامت سمعته الى بلاد المغرب والاندلس ، وكان له في كل منهما بشأن مستفيض في الادب والشعر والتجارة . وقد شهد ابن جبير في رحلته : «ان جبل لبنان من اخصب جبال الدنيا فيه انواع الفواكه»[١]. ولكن لا نعلم انه ذُكر بغير التفاح مما كان يُزدرع فيه من البقول والاعشاب والحبوب والازهار والاثمار . وقد بولغ في وصف زهاء الوان تفاحه وتمدّدها حتى ربما كان هو المقصود بقول احد المعجبين بهذا الثمر : «التفاح جمع الوان قوس قزح فلو انحل التفاح واسترق كان قوساً ولو استكثف القوس وانعقد كان تفاحاً»[٢] ولعل هذا الوصف الغريب اجود ما قيل فيه من المدائح .

وقد بحثنا كثيراً لنعلم اين كانت منابت التفاح في لبنان حين كان يُحمل الى الآفاق في عهد الخلفاء ، فذهبت اتعابنا ادراج الرياح . ولعلّ الارجح انه كان يغرس خصوصاً في ضواحي صيدا في الناحية المعروفة باقليم التفاح ، ثم انقطع منه ولم يبقَ الا اسمه دالًا على مكانه . ومن اسماء القرى المنسوبة الى التفاح مزرعة التفاح من قضاء زغرتا ، والتفاحة في المتن ، وتفاحتا من اعمال صيدا . واما اليوم فاول ما استُحدثت اغراسه في ميروبا ، وفاريا ، وحراجل ، ومزرعة كفرذبيان ، وبقعتوتا من قرى كسروان ؛ واقلّ منهما في اهدن ، وتمنايل . وكانت كلها من الاجناس الغربية الدخيلة كما تدلّ عليها اسماؤها : المسكوبي ، والفرنجي ، والازميري ، وهو اصغرها . وربما بلغت اربع تفاحات من المسكوبي وزن رطل شامي . ثم انتشرت المغروسات في اكثر الجبل وقل

١) رحلته ، طبعة اوربة ، ٢٨٧

٢) مجلد في خزانة الجامعة الاميركية في بيروت فيه بعض نفحات الازهار وربيع الابرار ناقص ، واوله الباب الثامن ، ص٥٥ .

ان يخلو منها اليوم مكان ومعظمها من الصنف الاميركي والانكليزي ورد عن طريق ايطالية واشهرها Renée de Canada, Starking, Golden, Sans Fareil, Winter etc. وليس بينها كلها ما يشابه التفاح المعروف قديماً باللبناني الذي انقطع من الجبل ولم تبقَ منه بقية تُعرف.

واهمّ مزايا تفاح لبنان في هذا الوقت عظم حبوبه، كما سبق، ورواء الوانه احياناً. واكبر منه كان فيما رووا تفاح بعض مدن البرتغال قديماً. وقد لا يخلو قولهم فيه غالباً من المبالغة التي قلّ ان يتبرأ منها كاتب عربي.

«حكى ابو يحيى اليسع بن حزم في كتابه المسمى «المُغرب عن محاسن اهل المغرب»... وقد ذكر اشتبونة (Estepona) ومدينة سنترة (Cintra) ومدينة سنترين (Santaren)... ذكروا ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار واكثر قال ابو عبد الله الباكوري وكان ثقة: «ابصرت عند المعتمد على الله محمد بن عباد ملك اشبيلية رجلاً من اهل سنترة اهدى اليه اربعاً من التفاح، ما تقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة اشبار وذكر الرجل ان المعتاد عندهم اقل من هذا فاذا ارادوا ان يجيء هذا العظم قطعوا حملها وابقوا معها عشرة او اقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب قال: وهذه البلاد فيها من القرى والضياع ما لا يحصى وبين اشتبونة واشبيلية مسيرة خمسة عشر يوماً للراكب المجد»[١]

وابلغ من ذلك زعمهم انه كان في مدينة شنترية «تفاح عجيب لا تحمل الدابة منه الا ثلاث حبّات»[٢]

واشهر من وصف من الشعراء تفاح لبنان بجمال الخلقة ورواء الحمرة ابو الطيب المتنبي بقوله:

احبّ حمصاً الى خناصرة وكل نفس تحبّ محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبنا ن، وثغري على حميّاها[٣]

وتبعه ابو الرقعمق فقال من قصيدة:

---

١) كتاب سمر السمّار في ليالي الاقمار في اوصاف ثمار سائر الاشجار، وهو الكتاب الحادي عشر من كتاب فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الالباب لشهاب الدين احمد بن يوسف بن احمد التيفاشي؛ خزانة اكسفورد M. S. Sale 70, fo, 12–13

٢) كتاب النكهة المطربة في حلى مدينة شنترية، من كتاب المُغرب في حلى المَغرب (رقم ١٠٣ م تاريخ) دار الكتب المصرية، ٨

٣) العرف الطيب في شروح ديوان ابي الطيب، ٥٨٥

ما زلت اجني بلحظي ورد وجنته   واستغير على تفاح لبنان(١

ولعلم الخليفة المستكفي بالله في صفة حديقة من ابيات :

ورأى الورد عسكرين من الصفـــــــر فنادى فجاءه الجلنار
واستجاشت تفاح لبنان لما   حميت من وطيسها الاوتار(٢

ولابي اسحق الخفاجي من شعراء الاندلس في غزله :

اغار لخدّيه على الورد كلما   بدا ولعطفيه على اغصن البان
وجني اجني ورد خدّ بناظري   أن ابن لي منه بتفاح لبنان (٣

ولعبد الله محمد بن احمد بن الحداد الوادي آشي من قصيدة :

واذهلها داعي النوى عن تنقّب   فحيّا محيّاها بتفاح لبنان (٤

ووصف احدهم جارية فقال: «ثغر كالاقحوان وخد كشقائق النعمان ووجه كتفاح لبنان»(٥

ومن خصائص تفاح لبنان الذي اكسبته هذه الشهرة الطائرة اجتماع جمال لون الحمرة فيه الى حسن البياض المشوب بالصفرة ، وتضوّع مثل رائحة المسك منه . ولذلك قال احمد بن يعقوب فيما رواه القلقشندي : «اجود المسك في الرائحة والنظر ما كان تفاحياً تشبه رائحته رائحة التفاح اللبناني»(٦

وممن تغنّى في خمرياته بطيب هذه الرائحة المسكية ابو نواس فقال:

سلاف دنّ اذا ما الماء خالطها   فاحت كما فاح تفاح بلبنان (٧

ولهذه الاوصاف كانت هدية التفاح عندهم من اجلّ ما يختاره الظراف للإلطاف تقرّباً من القلوب ، ولها عندهم موقع اثير لاجتماع طيب الرائحة فيها

١) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة مصر ، ١ : ٢٦٤
٢) مروج الذهب للمسعودي ، بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٤٤٣
٣) نفح الطيب للمقّري ٦ : ٢٢٣
٤) الذخيرة لابن بسام ٢ : ٢٢٣
٥) روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب لابي الفرج الشيرازي ، خزانة اكسفرد M. S. Sale 34
٦) صبح الاعشى ٢ : ١١٤
٧) ديوانه ، المطبوع سنة ١٨٩٨ ، ص ٣٤١

الى حسن الحلقة والنظر . ولذلك قال ابو الطيب محمد بن عبد الله بن احمد ابن يوسف :

ما املح التفاح في الهدايا   عطية من اعظم العطايا
خديعة النسوان والصبايا   ووصلة الناس الى البلايا (١

وكتب ابو الحسن جعفر بن الحاج من مدينة لورقة في اسبانية مع هدية تفاح :

بعثت بها لا آلوك حمدا   هدية ذي اصطناع واعتلاق
خدود احبّة وافين صبّاً   وعُدنَ على ارتماض واحتراق
فحمّر بعضها خجل التلاقي   وصفّر بعضها وجل الفراق (٢

قال ابو الطيب الوشّا قرأت على تفاحة مكتوباً بماء الذهب :

انا حمراء دعوني   لمحبٍّ وحبيبِ
وكلوا ذات بياض   اكلها غير معيب (٣

وكثيراً ما كان التفاح يقوم مقام البطائق في المراسلات ويكتب عليه بالغالية من الطيب قال المسعودي :

« بينما كان خالد بن يزيد الكاتب عند الرشيد اقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية :

سرورك ألهاك عن موعدي   فصيّرت تفاحتي تذكرة

فاخذ الرشيد تفاحة وكتب عليها بغالية :

تقاضيت وعدي ولم أنسهُ   فتفاحتي هذه معذرة

ثم قال : يا خالد قلْ في هذا شيئاً فقال :

تفاحة خرجت بالدر من فيها   اشهى اليَّ من الدنيا وما فيها
بيضاء من حمرة عُلّت بغالية   كانما قطفت من خدّ مهديها (٤

١) كتاب الاوراق للصولي ، قسم اخبار الشعراء ، مصر ١٩٣٤ ، ص ٣٥٠
٢) كتاب المُغرب في حلى المَغرب (رقم ٥٥٣٠ تاريخ) دار الكتب المصرية ١٧ ، وقلائد العقيان ١٤٣
٣) الموشّى ١٦٧
٤) مروج الذهب ٨ : ١٦٧

ومما حفظ من الشعر المكتوب على التفاح بالمسك والغالية :

انا من تفـاح لبنا ن الى الاحباب أُهدي
من محب شفّه الحـب الى المحبوب وجدا [١]

ومن اغرب ما يُروى عنه ان اهل الشام كانوا في جملة مفاخرهم يعدون تفاح لبنان من عجائب قطرهم قالوا :

«يُحمل من لبنان وهو تفاح جبل عَذْي (اي يسقى من ماء السماء) لا طعم له ولا رائحة فاذا توسط نهر البليخ (نهر بالرقة من بلاد الجزيرة) فاحت رائحته » [٢] .

ولا عجب في ذلك لان التفاح كان يُبَسَّر اي يقتطف قبل نضجه ليكون اقوى على تحمل مشقة السفر وطول الطريق فاذا بلغ الرقة ومسّه لفح الحر كمل نضجه وطاب طعمه وانتشرت رائحته . ومن هذا الشاهد يستدلّ على كثرة ما كان يستورد منه الى كل البلاد وهو ما كان يقتضي طبعاً تعدد مغروساته في انحاء لبنان وغيره من المدن والحدائق الشامية . ولعلّ بعض ما قيل فيه ونُسب اليه يجب ان يعود في الحقيقة الى تفاح دمشق لانه كان فيها من جملة انواع التفاح المعدودة نوع يقال له التفاح اللبناني [٣] ولم نجد وصفاً له في كل ما ذُكر عنه .

ويؤخذ من احد المراسيم السلطانية المنقوشة في احجار بعلبك ان التفاح اللبناني كان شائعاً معروفاً في مدينة هيكل الشمس . ولعله كان اوفر في حدائقها وجنانها منه في دمشق ولذلك كان «جماعة من البلّاصين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني ويقولون ان ذلك برسم حاضرة الشام» . وهذا نصّ الكتابة المرقومة في حجر نُقل من مكانه ووضع

١) سمر السمّار المذكور آنفاً ، ص ٥
٢) كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ، ١١٧
٣) محاسن الشام للبدري ٢٠١ ، والتذكرة للصفدي في ذيل ثمرات الاوراق في خزانة بريتش موزيوم Add. 7415, f° 222 .

منكسًا في حائط الجامع الكبير الغربي من الخارج وهو من عهد السلطان الملك الظاهر برقوق:

« استجدّ مرسوم شريف ظاهري تاريخه ثامن عشر شهر الله المحرّم سنة سبع وتسعين وسبعمائة (١ الى المقر العالي السيفي تنكز بُغا نائب السلطنة الشريفة ببعلبك المحروسة مضمونه انه قد اتّصل بمسامعنا الشريفة ان ببعلبك تتفق فيها كل سنة مظلمة لم تتصل في مسامعنا الشريفة الا في هذا الوقت وهو ان جماعة من البلاصين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني ويقولون ان ذلك برسم حاضرة الشام الشريفة . . . فليس لنا احتياج الى ذلك » (٢

ولعلّ هذا التفاح كان مغروسًا ايضًا في جنان حمص وهو مما يمكن ان يُستدلّ من قول ابي الطيب المتنبي في بيته المذكور آنفًا «حيث التقى خدّها وتفاح لبنان». ومن الخسران والشقآء ضياع هذا الصنف وفقدانه اليوم من لبنان والشام بعد ان تحادث به الركبان والقوافل في اكثر اقطار الشرق واستطار عرفه في اندية المغرب والاندلس

فسار به من لا يسير مشمّرًا وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

---

١) ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٣٩٤

٢) تاريخ بعلبك لمخايل موسى الوف ، طبعة ١٩٢٦ ، ص ١٧١

التشيع لمعاوية

في عهد العباسيين

كان مقتل الخليفة عثمان بن عفّان اول ما شتت الالفة في الاسلام، وحل عُرى الوحدة والجماعة، ودعا الى التحيّز والتحزّب في الامصار. فتباينت الاهواء والبدع، وتعددت الفِرَق والشيع، وتميز كل قطر بنزعته ونحلته. ولذلك لما اراد محمد بن علي بن عبدالله بن العبّاس توجيه دُعاته الى الامصار قال لهم في ما حكاه ابن الفقيه في كتاب البلدان[1]، وعنه نقل البشّاري المقدسي في احسن التقاسيم[2]، وياقوت في معجم البلدان[3]، ورواية ابن الفقيه اتمّ واصح، قال:

« اما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده . واما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول : « كُنْ عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل . » واما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في اخلاق النصارى . واما اهل الشام فليس يعرفون الا آل سفيان وطاعة بني مروان عداوة راسخة وجهل متراكم . واما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر . ولكن عليكم باهل خراسان فان هناك العدد الكثير والجَلَد الظاهر . »

التشيع بالشام

اما كون اهل الشام شيعة آل ابي سفيان ومروان لا يعرفون سواهم، فهو ما لا حاجة الى التنبيه عليه . ولكن قد خفي علينا كثير من انباء هذه العداوة الراسخة التي كانوا يناصبونها كل من لم يشاركهم في تولي بني امية . فمن اطرف ما اتصل بنا من نوادر اخبارها بل من اغرب مظاهرها وآثارها ما ورد في ترجمة ابي الحسن المدائني بروايته قال :

« امر المأمون احمد بن يوسف بادخالي اليه فلما دخلت ذكر علي بن ابي طالب عليه السلام فحدثته فيه باحاديث الى ان ذكر لعن بني امية له فقلت : حدثني ابو سلمة المثنى بن

---

١) ص ٢١٥

٢) ص ٢٩٣ – ٢٩٤

٣) ج ٢ : ٤١٢، طبعة اروبة

عبدالله اخو محمد بن عبدالله الانصاري قال : قال لي رجل : كنت بالشام فجعلت لا اسمع احدًا يسمي عليًا ولا حسنًا ولا حسينًا وانما اسمع معاوية ويزيد والوليد قال : فررت برجل جالس على باب داره وقد عطشت فاستسقيته فقال : يا حسن اسقه فقلت : أسميت حسنًا ؟ فقال : اي والله أن لي اولادًا اسماؤهم حسن وحسين وجعفر فان اهل الشام يسمون اولادهم باسماء خلفاء الله ولا يزال احدنا يلعن ولده ويشتمه وانما سميت اولادي باسماء اعداء الله فاذا لعنت انما العن اعداء الله فقلت له : ظننتك خير اهل الشام واذا جهنم ليس فيها شر منك»[١]

ولا يخفى ما في استقراء نظائر هذه الملحة من الفائدة والجدوى في تمثيل العصر الشامي الاموي في اخلاقه وعاداته ونوادره ونكاته . وهي وحدها كافية لتعريف شدة تشيع اهل الشام لخلفائهم من بني امية ومبالغتهم في الانتصار لهم . وما زال منهم بدمشق وضواحيها بقية من نسل معاوية اتصلت من عهده وتفرعت ، عُرف منها في القرن الحادي عشر للهجرة بيت خليل بن زين الدين الاخنائي « كان اجداده غالبهم قضاة القضاة وصدور الصدور »[٢]، وبيت بني الكوكية من التجار المياسير كان لهم مآثر وخيرات ، ولهم اقارب بمكة اشتهر منهم جمال الدين بن محب الدين المعروف بالجنيد كان يضرب به المثل في حسن لعب الشطرنج[٣] .

وكان انحراف اهل الشام عن الطالبيين اعظم منه عن الهاشميين . ولذلك لما استولى الفاطميون على دمشق قامت بين المغاربة والبلديين وقائع وفتن ساق ابن القلانسي اخبارها وقال : « كان اهل دمشق يأبون المغاربة لمخالفتهم لهم في الاعتقاد ولانهم امويون »[٤] وبلغ من كراهتهم للعلويين انهم كانوا يتظاهرون احيانًا بجهل علي بن ابي طالب اذا سئلوا عنه .

« وفي جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وثلثمائة (١٠٠١ م) قُبض على رجل من اهل الشام سُئل عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب (رضه) فقال لا اعرفه فاعتقله قاضي القضاة الحسن بن النعمان قاضي امير المؤمنين الحاكم بامر الله على القاهرة المعزية ومصر والشامات والحرمين والمغرب وبعث اليه وهو في السجن اربعة من الشهود وسألوه . فاقرّ بالنبي صلعم وانه نبي مرسل وسُئل عن علي بن ابي طالب فقال لا اعرفه . فامر قائد القواد الحسين بن

١) ياقوت : ارشاد الاريب ٧ : ٢٩
٢) خلاصة الاثر للمحبي ٢ : ١٣٣
٣) » » » ١ : ٤٩٠ - ٤٩٣
٤) ذيل تاريخ دمشق ، ١٦

جوهر باحضاره فخلا به ورفق في القول له فلم يرجع عن انكاره مورفة علي بن ابي طالب فطولع الحاكم بامره فامر بضرب عنقه فضرب عنقه وصلب»[١].

ولا شك ان هذه الاستماتة في رفض زوج فاطمة من اغرب آيات التعصب والتشيع. ومنها يتضح ما كان بين الامويين والعلويين من البغض والعداء.

التشيع بمصر

لم تخلُ مصر من اشياع لمعاوية ولا سيما في الايام الطولونية والاخشيدية. وكان اشدهم تعصباً له السودان من الجند على كثرتهم وسطوتهم وبلغ عددهم في آخر دولة احمد بن طولون اثني عشر الفاً. قال القلقشندي: «وتبعتهم الدولة الاخشيدية على ذلك»[٢] واشتدت شوكتهم في ايام القائد كافور فكانت مصر لا تخلو من الفتن في يوم عاشوراء. وفي سنة ٩٦١/٣٥٠ حصلت منازعة بين الجند وقوم من الرعية عند قبر كلثوم العلوية قتل فيها جماعة من الفريقين. واشتد سودان كافور على الشيعة فكانوا اذا لقوا احدًا سألوه من خالك؟ فان قال لهم «معاوية» اكرموه، وان سكت لقي المكروه واخذت ثيابه وما معه[٣]. ثم كثر القول «معاوية خال علي» وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان في كل جمعة في وجوه الناس من الخاص والعام «معاوية خالي وخال المؤمنين وكاتب الوحي ورديف رسول الله (صلعم)». وانما عدوا معاوية خالًا للمؤمنين لان شقيقته ام حبيبة كانت زوجاً للرسول وبالتالي امّ المؤمنين نظير عائشة وسائر ازواج النبي. وباعتبار هذه الامومة كان معاوية خالًا للمؤمنين.

ولما ورد الخبر بقيام بني حسن بمكة ومحاربتهم الحاج ونهبهم خرج خلق من المسلمين في شوال فلقوا كافور الاخشيدي بالميدان ظاهر مدينة مصر وضجوا وصاحوا «معاوية خال علي» وسألوه ان يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين[٤]» وبقي هذا النداء شعارًا لكل شغب واحتجاج حتى بعد قدوم الفاطميين.» وفي

١) خطط المقريزي، مطبعة النيل، ٤: ١٥٧

٢) صبح الاعشى ٣: ٤٧١

٣) اتعاظ الحنفاء للمقريزي ١٦–١٧

٤) الخطط ٤: ١٥٥

شهر رمضان سنة ٣٦١ (٩٧٢ م) قبض على عجوز عمياء تنشد في الطريق وحبست. فخرج جماعة من الرعية ونادوا بذكر الصحابة وصاحوا « معاوية خال المؤمنين وخال علي » فبعث جوهر ونادى في الجامع العتيق : ايها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول فاننا حبسنا العجوز صيانة لها فلا ينطقن احد الا حلت به العقوبة الموجعة . ثم أطلقت العجوز[1] وفي ربيع الاول سنة ٣٦٢ (٩٧٢م) عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا « معاوية خال علي بن ابي طالب » فهم جوهر ان يحرق رحبة الصيارفة».[2]

التشيع في الجزيرة

روى صلاح الدين الصفدي في كتابه « الوافي بالوفيات» في ترجمة حمد بن محمد الجزري الاديب الشاعر المتوفى سنة ٦٥١/١٢٥٣ وكان شيعياً غالياً ان الاكراد كانوا يكفرونه ويمقتونه . قال : وكان اهل الجزيرة اكراداً يقول خطيبهم «اللهم ارض عن معاوية الخال ويزيد المفضال[3]» ونقل الشهاب العمري في كلامه على طوائف الاكراد ان صاحب جولمرك كان له « قبائل وعشائر وانفار وهم ينتسبون الى عتبة بن ابي سفيان بن حرب بن امية»[4] . ومن هاتين الشهادتين يترجح الرأي القائل بان فرقة اليزيدية المشهورة كانت تنتسب الى يزيد ابن معاوية الخليفة الاموي لا الى سواه.

ولما ذكر ابن حوقل الرقة قال:« في اهلها ولاء لبني امية شديد»

التشيع في خراسان

كان اسم خراسان قديماً حتى في الايام العباسية يطلق على جميع بلاد فارس وما وراءها ولذلك قال ياقوت: « اول حدودها مما يلي العراق. . . وآخر حدودها مما يلي الهند لان جميع ما ذكر من البلاد كان مضموماً الى والي خراسان.

١) اتعاظ الحنفاء ٨٧
٢) الخطط ١٥٦
٣) الحادي عشر من الوافي بالوفيات؛خزانة اكسفرد Seld. arch. a. inf. 22 f° 138
٤) التعريف بالمصطلح الشريف للعمري ٣٨
٥) كتاب صورة الارض الطبعة الثانية ٢٢٦

وكان اسم خراسان بجمعها».[١] ولما تقلص ظلّ بني امية عنها «واستقرّ امر بني العباس بالريّ هرب اكثر اهلها لميلهم الى بني امية لانهم كانوا سفيانية. فامر ابو مسلم باخذ املاكهم واموالهم ولما عادوا من الحج اقاموا بالكوفة سنة ١٣٢ (٧٤٩م) ثم كتبوا الى السفاح يتظلمون من ابي مسلم فامر برد املاكهم فاعاد ابو مسلم الجواب يعرّف حالهم وانهم اشد الاعداء فلم يسمع قوله وعزم على ابي مسلم برد املاكهم ففعل».[٢]

وبقي هوى بني امية في خراسان كامناً في الصدور حقبة طويلة من الدولة العباسية. ولما زار الرحالة البشّاري المقدسي في اواخر القرن الرابع في ايام الخليفة الطائع لله، اقليم الجبال، اي اصفهان وهمذان والريّ وما اليها من مدائن الشرق قال: «هم اما غوال حنابلة يفرطون في حب معاوية. او نجاريّة غالية يقطعون بالكفر على الطوائف الهادية»[٣] وورد له مثل هذا في اخباره عن اليهودية قصبة اصفهان فقال: «غوالٍ حنابلة» وفي نسخة اخرى «يفرطون في معاوية».[٤] واتفق له في اصفهان نكتة نثبتها في هذا المقام اشارة الى الحدّ الذي كان بلغه حب معاوية من الغشوّ والاغراق في المصر المجاور لخراسان حيث نشأت الدعوة العباسية قال:

«في اهل اصفهان بَلَه وغلوّ في معاوية ووُصف لي رجل بالزهد والتعبد فقصدته وتركت القافلة خلفي وبتُّ عنده تلك الليلة وجعلت اسائله الى ان قلت: «ما قولك في الصاحب؟ فجعل يلعنه ثم قال: انه اتانا بمذهب لا نعرفه. قلت: وما هو؟ قال: يقول: معاوية لم يكن مرسلًا. قلت: وما تقول انت؟ قال: اقول كما قال الله عز وجل: لا نفرق بين احد من رسله. ابو بكر كان مرسلًا وعمر كان مرسلًا. حتى ذكر الاربعة ثم قال: ومعاوية كان مرسلًا. قلت: لا تفعل اما الاربعة فكانوا خلفاء ومعاوية كان ملكاً قال النبي (صلعم): الخلافة بعدي الى ثلاثين سنة ثم تكون ملكاً. فجعل يشنّع عليّ واصبح يقول: هذا رافضيّ. فلو لم تدركني القافلة لبطشوا بي. ولهم في هذا الباب حكايات كثيرة.»[٥]

ومن هنا يعرف كيف تطور حب معاوية تدريجاً، وكيف ان شقيق ام حبيبة بعد ان كان «خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين» لم يلبث ان

١) معجم البلدان ٢: ٤٠٦ – ٤١٠
٢) الكامل لابن الاثير ٥: ١٤٨.
٣) احسن التقاسيم ٣٨٤
٤) « « ٣٨٨ – ٣٨٩
٥) « « ٣٩٩

صار مرسلاً . وليت البشاري نقل لنا ايضاً قسماً آخر من هـذه الحكايات الكثيرة التي اشار اليها لنقف منها على تاريخ التشيع لماوية في تقلباته واوصافه .

التشيع في الاندلس

لم يكن في الاندلس ما كان في الشرق من تعدّد الاحزاب والمذاهب وشدّة التخاصم والتنازع بين السنة والشيعة . وكان المذهب الغالب هنالك مذهب الامام مالك ولذلك قال ابن سيده المرسي الاندلسي صاحب المخصّص في اللغة من ارجوزة له :

اتبع الحبر الاجلّ مالكا وان تبعت غيره فذلكا
كالشافعيّ وابي حنيفه كلاهما ذو ورع وخيفه (١

وسكت بتاتاً عن احمد بن حنبل فلم يكن من ثم للحنابلة في الاندلس شأن كما كان لهم في بغداد مثلاً ، وهم الذين تولوا فيها معاوية وافرطوا في الانتصار له . وقام منهم في خراسان غلاة تجاوزوا كل حدّ في تفضيله حتى عُدّ عند قوم منهم مرسلاً كما تقدم . ولما كان الاندلس مباءة الامويين ومقرّ سلطانهم وموطن انصارهم ، كان ذكر معاوية فيه مقروناً بالرحمة والرضوان . وقد قذف ابن سيده في ارجوزته المذكورة كل من تناوله بالطعن والذم فقال :

ومن يكن يقدح في معاويه فذاك كلب من كلاب عاويه (١

ومثل هذا القول من احد اقطاب العلم في المغرب يشفّ عما كان وراءه من الحب والولاء لاول الخلفاء الدمشقيين .

ومن اشهر من عُرف ايضاً من العلماء الاندلسيين بالـدفاع عن معاوية والامويين عموماً الامام ابن حزم فقد حُفظ عنه « تشيعه لامراء بني امية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والاندلس واعتقاده بصحة إمامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش .»(٢

التشيع في العراق

قد يغلب على الظن لاول وهلة ان حبّ معاوية وآله كان منحصراً في الشام وحده لم يتجاوزه قط الى العراق ، موطن الشقاق والنفاق ، في قول الحجاج ؛

١) الخزانة الشرقية ٢ : ١٦٠

٢) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ٩٣

وان دولة بني العباس لما قضت على بني امية وتتبعت رجالهم وآثارهم قتلًا وتشريدًا وتخريباً نسخت ذكرهم من الافئدة والابنية ، واستأصلت اولياءهم ودعاتهم من المدن والامصار . ولكن هنالك ادلة كثيرة على ان التشيع للامويين لم يزُل بزوال ملكهم بل ظلّ يكمن تارة ويظهر اخرى حسب تشدد السلطان في اقتصاص آثاره واقتناص انصاره . وهذه بغداد نفسها ، مع انها كانت مقرّ اعدائهم وعاصمة الخلافة العباسية ، لم تخلُ في وقت من متحيّز للعثمانية والاموية ، ومجاهر بفضائل معاوية . وقد نقل عن ابي عمر الزاهد من ائمة اللغة واكابر اهلها في بغداد حيث كانت وفاته سنة ٣٤٥/٩٥٦ انه كان « قد جمع جزءًا في فضائل معاوية فكان لا يمكّن احدًا من السماع منه حتى يبتدئ بقراءة ذلك الجزء »[١] . وسبقه الجاحظ المشهور فوضع كتاباً في إمامة المروانية واقوال شيعتهم قال المسعودي : « ورأيته مترجماً بكتاب امير المؤمنين معاوية بن سفيان في الانتصار له من علي بن ابي طالب رضي الله عنه وشيعته الرافضة يذكر فيه امامة بني امية وغيرهم »[٢]

وكانت شيعة علي في العراق ولا سيما الكوفة وبغداد تؤثّم كل من دافع عن عثمان بن عفان ولم يتبرأ من الشيخين ، وتلعن معاوية وسائر الامويين . قال ابن المبارك : من اراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل : رحم الله عثمان بن عفان[٣] . قال ابو عمر الهذلي : قلت لرجل من اهل الكوفة : خير موضع بالكوفة اين هو ؟ قال مسجد الجامع قلت وسوء موضع عندنا دار البطيخ فلو قال رجل في خير موضع عندكم رحم الله عثمان قُتل ولو قال في سوء موضع عندنا لا رحم الله معاوية قتل فشرّ موضع عندنا خير من خير موضع عندكم[٣] .

ولذلك لما دخل الجماز الشاعر البصري بغداد في ايام جعفر المتوكل — وكان قد كتب في حمله اليه — انشده

ليس لي ذنب الى الشيعة الا خلّتين

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٢٩

٢) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ٣ : ٦١

٣) تاريخ بغداد للخطيب ١ : ٤٧

حب عثمان بن عفان وحب العمرين(١

وفي ضد ذلك كان فريق من اهل السنة يصرحون بتفضيل معاوية ويبالغون في تقدير فضائله ويعدون رافضياً كل من لم يرَ رأيهم فيه . وقد حكى البشاري المقدسي نكتة حرية بالذكر في هذا الباب قال :

« كنت يوماً بجامع واسط واذا برجل قد اجتمع على الناس فدنوت منه فاذا هو يقول حدثنا فلان عن فلان عن النبي (صلعم) « ان الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه الى جنبه ويغلفه بيده (اي يطيّبه بالغالية) ثم يجلوه على الخلق كالعروس فقلت له بماذا ؟ بمحاربته عليّاً ؟ رضي الله عن معاوية وكذبت انت يا ضالّ . فقال : خذوا هذا الرافضي فاقبل الناس علي فعرفني بعض الكتبة فكركرم عني »(٢ (اي دفعهم وردّهم) .

واخصّ من عرفوا بموالاة معاوية والدفاع عنه الحنابلة . ولهم في بغداد مقامات مذكورة . وقد اشتهر امامهم احمد بن حنبل بحسن رأيه في معاوية وايثاره له ، فلا غرو اذا قلده اشياعه في هذا الحب وغالوا فيه وقد سئل مرة «ايما افضل معاوية او عمر بن عبدالعزيز فقال:«لغبار لحق بانف جواد معاوية بين يدي رسول الله خير من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه واماتنا على محبته»(٣ .

. ومما تقدم يتضح ما كان للتشيّع لمعاوية في العراق من الشأن والانتشار حتى كان يجاهر به بسمع من الخلفاء العباسيين في حلقات الدروس ومجالس القصاص دون اقل انكار . واشتهر بالمغالاة فيه من اهل السنة الحنابلة كما سبق ، وهو ما اشار اليه البشاري المقدسي حيث قال : « حنابلة العراق غالية مشبّهة يفرطون في حب معاوية ويروون في ذلك اخباراً منكرة بخاصة البربهارية»(٤ .

ولم يكن هذا التعصب للخصمين علي ومعاوية لا يُسمع صداه الا في الاندية وحلقات الامراء فقط بل كان كثيراً ما يتعدى هذه المجالس والمدارس الى الازقّة والسُبُل ويثير فيها من الشغب والفتن ما يتجاوز طعن الالسنة الى طعن الاسنّة فتسيل الدماء وتلتهب النيران في المحالّ والابنية . وكان بعض المحتالين والفقراء يرتزقون من مثل هذه المناظرات والاهواء ويتظاهرون

١) تاريخ بغداد للبنداري ، ٦١٥٢ باريس ، ٣٦
٢) احسن التقاسيم ، ٣٦
٣) شذرات الذهب للعماد الحنبلي ١ : ٦٥
٤) احسن التقاسيم ١٢٦ ، حاشية ٢

بالانحياز الى احدى الفرقتين ويجولون في الاسواق والشوارع او يقفون في جوار المساجد والمجتمعات وهم ينشدون المدائح والتوسلات باسم احد الخليفتين استدرارًا لصدقات اشياعهما. حكى القاضي التنوخي عن « جماعة من شيوخ بغداد انه كان بها في طرف الجسر سائلان اعميان يتوسل احدهما بامير المؤمنين علي والاخر بمعاوية ويتعصب لهما الناس وتجيئهما القطع دارة فاذا انصرفا جميعًا اقتسما القطع فانهما كانا شريكين يحتالان بذلك على الناس»[١].

وكان السقاة يقفون في الجنائز وفي جوانب الجوامع والمساجد ويعرضون على من شاء الماء المثلوج المحلّى بالسكر والسويق في الجرار والجباب ويقولون: «اشربوا على حب معاوية»[٢] . ولذلك حاول الخلفاء العباسيون غير مرة النهي عن ذكر معاوية بخير وارادوا لعنه على المنابر والضرب على ايدي انصاره فاخفقوا واقصروا خوفًا من اضرام نيران الفتن بين العامة وتوسيع خرق الخلاف والنزاع . واول من همّ بذلك فيما رُوي وامر بانشاء كتاب بلعن معاوية المأمون ، فثناه عنه يحيى بن اكثم[٣]. ومعلوم ما تقدم له من الضلع مع العلويين وكان كتابه لا يزال محفوظًا في الديوان في ايام المعتضد حين اراد سنة ٢٨٤/٨٩٧ انشاء كتاب في معناه يُقرأ على الناس « فخوّفه عبيد الله بن سليمان ابن وهب (وزيره) من اضطراب العامة وانه لا يأمن ان تكون فتنة فلم يلتفت الى ذلك من قوله . . . وتقدم الى الشرّاب والذين يسقون الماء في الجامعين الّا يترحموا على معاوية ولا يذكروه بخير وتحدث الناس ان الكتاب الذي امر المعتضد بانشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر فلما صلّى الناس الجمعة بادروا الى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب فلم يُقرأ . فذكر ان المعتضد امر باخراج الكتاب الذي كان المأمون امر بانشائه فأُخرج له من الديوان نسخة هذا الكتاب»[٤] وذكر ان عبيدالله بن سليمان احضر يوسف ابن يعقوب القاضي وامره ان يعمل الحيلة في ابطال ما عزم عليه المعتضد في

١) نشوار المحاضرة ١ : ٢٨١
٢) تاريخ بغداد للنجار ، ٢١٣١ باريس ، ١٦
٣) السادس من كتاب بغداد لاحمد بن طيفور ، ٦١
٤) تاريخ الطبري ، طبعة اوربة ، ٤ : ٢١٦٦ – ٢١٦٧

ذلك وقال : يا أمير المؤمنين اني أخاف ان تضطرب العامة ويكون عند سماعها هذا الكتاب حركة. فقال : ان تحركت العامة او نطقت وضعت فيها السيف فقال : يا أمير المؤمنين فما تصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يخرجون ويميل اليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ومآثرهم وفي هذا الكتاب اطراؤهم واذا سمع الناس هذا كانوا اليهم اميل وكانوا هم أبسط ألسنة واثبت حجة منهم اليوم ؟ فامسك المعتضد فلم يرد عليه جواباً ولم يأمر في الكتاب بعده بشيء»[1].

وفي سنة ٣٢١/٩٣٣ «هم علي بن يلبق (احد قواد القاهر بالله) والحسن ابن هرون كاتبه بلعن معاوية بن ابي سفيان على المنابر فاضطربت العامة من ذلك وتقدم علي بن يلبق بالقبض على البربهاري رئيس الحنبلية فنُذر به وهرب وقبض على جماعة من اصحابه وجعلوا في زورق مُطبق وأحدروا الى البصرة»[2]

بقي ان نرى السبب الذي كان من اجله بعض اهل السنة وفي مقدمتهم الحنابلة يفرطون هذا الافراط في حب معاوية ويبالغون في التعصب له. وهو ما لا يكفي في تمثيله ما نقل من حسن رأي الامام احمد في «صهر الرسول وامينه على وحيه» ولعلّ هذا التحزب لم ينشأ في العراق خصوصاً ولم يكن الا رجعاً اصدى مبالغات الشيعة في علي بن ابي طالب من باب مقابلة التشيّع بضدّه، ومكافأة الخصم بقرنه، ثم امتزجت بذلك الضغائن والحزازات فكان بعض اهل السنة كلما انكروا افراطاً من شيعة علي تلقوهم بمثله في معاوية مناظرةً وامتثالاً[3]. وكل من طالع تاريخ العراق يعلم مبلغ العداء الذي كان مستحكماً بين السنة والشيعة وكثرة الفتن والشرور التي كانت تثور دائماً بين الفريقين ويجري فيها كل قبيح من سلب ونهب وقتل واحراق. فلا عجب

---

١) تاريخ الطبري ٤ : ٢١٦٤–٢١٧٨

٢) تجارب الامم لابن مسكويه ٥ : ٢٦٠ – ٢٦١

٣) من ادلّ الامثلة على ماكان من المناظرة عموماً بين الشيعة والسنّة ما حكاه هلال الصابئ في تاريخه قال : جرت عادة الشيعة في الكرخ وباب الطاق بنصب القباب وتعليق الثياب واظهار الزينة في يوم الغدير واشعال النار في ليلته ونحر جمل في صبيحته فارادت الطائفة الاخرى من السنّة ان تعمل لانفسها وفي محالها واسواقها ما يكون بازاء ذلك فادّعت ان اليوم الثامن من يوم الغدير كان اليوم الذي حصل فيه النبي وابو بكر في الغار وعملت ما تعمله

اذا كان خصوم الشيعة[1] يبالغون احياناً في المجاهرة بكل ما كانوا يعلمون انه يسوء اعداءهم اعتقاده ومن ثم لا يبعد ان يكون قسم من المتحزبين لمعاوية ولا سيما من العامة والسوقة الذين استدرجتهم البغضاء والاحقاد اكثر من الذين تلقوا التشيع من طريق الاجتهاد والاعتقاد . وقد عثرنا في هذا المعنى في مجلد من تاريخ بغداد لابن النجار في خزانة باريس ذُكر فيه غلطاً انه للخطيب البغدادي ، على نكتة فريدة تؤيد هذا الرأي نجعلها مسك الختام قال في ترجمة علي بن محمد بن الكيس ابي القاسم في رواية عنه :

« اخبرنا ابو بكر بن جعفر بن مالك القطيعي في مسجده قال : سمعت عبدالله بن احمد ابن حنبل يقول : كنت احبو فاخذني ابي بيدي وعبر بي الجسر فمضى الى شارع الرصافة فلما انتهينا اليه رأينا حِباباً فيها السويق والسكر والماء المبرد بالثلج وخدماً في ايديهم الطاسات يقولون للناس : « اشربوا على حب معاوية بن ابي سفيان . قال : فقلت : يا أبه من معاوية ؟ فقال : هؤلاء قوم بغضوا رجلاً لم يكن الى الطعن عليه سبيل فاحبّوا اعداءه . قال الشيخ احفظ هذه الحكاية عن ابن مالك فهذه حكاية عجيبة ظريفة »[2].

قلنا واعجب من هذه الحكاية ان يكون لابن ابي سفيان اول مربّي الدول في الاسلام وسائس الامم وراعي الممالك[3] مثل هذه المكانة والشهرة الذائعة التي طبقت الامصار والآفاق وبعثت على محبته اشباه هؤلاء الغلاة في خراسان والعراق ثم لا يكون حظه اليوم في وطنه دمشق ، وهي العاصمة التي عقد لها تاج الفخر على هامة الدهر ، الا الجفاء والاطراح والنسيان وقلة الكرامة والشيعة والانصار فما احقه فيها بقول ابن حزم :

انا الملق الذي لا عيب فيه سوى بلدي واني غير طاري
نفرّ لي العراق ومن يليها واهل الارض ، الا اهل داري

الشيعة في يوم الغدير وجعلت بازاء يوم عاشوراء يوماً بعده بثمانية ايام نسبَتْهُ الى مقتل مصعب بن الزبير وزارت قبره بمسكن كما يزار قبر الحسين بالحائر وكان ابتداء ما عمل من يوم الغدير في يوم الجمعة لاربع بقين من ذي الحجة (سنة ٣٨٩ه) (الثامن من تاريخ هلال الصابئ في ذيل تاريخ الوزراء ٣٧١)

١) ذكر ابن بطوطة لما مر ببغداد سنة ٧٢٧ ان قبر احمد بن حنبل « عند اهل بغداد معظّم واكثرهم على مذهبه » (رحلته ، طبعة وادي النيل ، ١٢٦)

٢) خزانة باريس ، رقم ٢١٣١ ، ص ١٦

٣) كتاب الفخري لمحمد بن طباطبا ، طبعة مصر ، ص ٩٧

خطط دمشق

بالاستناد الى كتب الوقف والنصوص القديمة

بقلم : صلاح الدين المنجد
رئيس دائرة الآثار القديمة في سورية

٢

أنهار دمشق

تكلم ابن عساكر[١] في تاريخه عن أنهار دمشق ، فذكر قصة شق نهر يزيد وأورد العهد الذي أعطاه الخليفة إلى رجل ذمي كان له حق في ماء النهر أن يجري الى ديره[٢] . ثم سرد كيف ماز هشام بن عبد الملك الأنهار في ايامه وهو اهم ما ذكره ابن عساكر.[٣]

ذلك لان هذا النص يقدم لنا اسماء الأنهار التي كانت معروفة أيام هشام ابن عبد الملك ، وسعة ماء كل منها .

وسنقدم ها هنا هذا النص . ثم نتبعه بدراسة طوبوغرافية تاريخية عن أنهار دمشق .[٤]

وستلاحظ اننا عندما نتكلم على دمشق نتبع بها الغوطة ايضاً .

***

١) تاريخ دمشق ، مخطوط في دار الكتب الظاهرية ، تاريخ رقم ١

٢) نقل هذا العهد الى الفرنسية في :
R. Tresse, *l'Irrigation dans la Ghouta* dans *R. E. I.*, 1929.

٣) انظر مهذب ابن عساكر ، تهذيب بدران ١ : ٢٤٤ (دمشق ١٣٣٠ هـ) وفتاوى السبكي ١ : ٤٦٨ (القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ) والمروج السندسية لابن كنان (دمشق ١٩٤٧) ، ص ٢٨

٤) الف ابن عبد الهادي رسالة سماها غدق الافكار في ذكر الانهار (مخطوطة بالظاهرية) وليس فيها شيء ذو أصالة بل هو نقل لما جاء به ابن عساكر .

جاء في تاريخ ابن عساكر ما يلي :

« شكا أهل بردا الى هشام بن عبد الملك ، فأمر القاسم بن زياد ان يجاز لهم الأنهار ، فمازها ، فأعطى :

أهل نهر يزيد	ست عشرة مسكبة
ونهر داريا	ست عشرة مسكبة
ونهر ثورة	اثنين واربعين مسكبة ، وفيه يومئذ اربع عشرة ماصية للسقي ليس عليها رحا .
ونهر قينية	احدى عشرة مسكبة
ونهر باناس	ثلاثين مسكبة ، ومسكبة جعلت فيه ليزيد بن ابي مريم مولى سهل بن الحنظلية . وثلاث (١٧٦ ب) مساكب للفضل بن صالح الهاشمي جُعلت فيه من بعد .
ونهر مجدول	اثني عشر مسكبة .
ونهر داعية	ثلاث عشرة مسكبة .

ونهر حيوة ، وهو نهر الزلف اثني عشر مسكبة .

ونهر التومة العليا خمس مساكب .

ونهر التومة السفلى اربع مساكب .

ونهر الزابون اربع مساكب .

ونهر الملك اربع مساكب .

(تاريخ ابن عساكر . مخطوط بالظاهرية . تاريخ رقم ١)
(ورقة ١٧٦ ب – ١٧٧ آ)

ونحن نذكر الآن اهم الانهار التي تسقي دمشق وغوطتها في زماننا هذا ، وقد صرفنا عنايتنا الى الناحيتين الطبوغرافية والتاريخية . وسردنا اسماء القرى الدائرة والقائمة التي تُسقى اراضيها من هذه الانهار . ورددنا كل ما ذكرنا الى مصادره ، حتى يكون بحثنا اقرب الى الدقة والروح العلمية .

بردى

بثلاث فتحات[١] بوزن فَعَلى من البرد ، سمي بذلك لبرد مائه[٢]. ذكر دوسو[٣] ومن قبله بورتر Porter[٤] انه هو نهر أبانا القديم . ويرجح ان ابانا هو باناس[٥] . وكان يسمى Chrysorrhoas ، اي نهر الذهب ، ايام الرومانيين[٦] وهو نهر دمشق المظيم . ينبع من احد سفوح جبال لبنان الشرقية . فيكون له واد يسمى باسمه[٧]. ومنبعه على ارتفاع ١١٠٠ م[٨]. واصل مخرجه من قرية يُقال لها القنوا[٩] ومن المحتمل ان تكون القنوا القديمة هذه عين حور التي توجد الان والتي هي واحدة من اوليات العيون التي تغذي بردى .[١٠]

« ويتسع الوادي نحو الزبداني وتكون ارضه ذات خصب . وتحيط به من الشرق قرى مختلفات ، منها بلودان وبُقّين ومضايا . وعلى يمين السهل تقوم قرية الحوش وقرية بطرونة .

ثم يضيق الوادي ، حتى يشغله النهر وحده . وقدْ كانت الطريق الرومانية التي شقها مارك اوريليوس Marc-Aurèle ولوسيوس ڤيروس Lucius Verus محفورة في الصخر على ارتفاع ثلاثين مترًا فوق النهر .

ثم يمر النهر بسوق وادي بردى ، وهي ابيلا Abila de Lysanias القديمة . وفي الوادي نجد قرى كفر العواميد ، والحسينية ، وكفر الزيت : »

١) مراصد الاطلاع لابن عبد الحق (ط Juynboll) ١ : ١٤٣

٢) معجم ما استعجم للبكري (ط . القاهرة ١٩٤٥) ١ : ٢٤٠

٣) Dussaud, *Topographie Hist. de la Syrie*, Paris 1927, p. 288

٤) Porter, *Five Years in Damascus*, London 1855,

٥) Ecochard, *Bains de Damas.* (Première partie), Beyrouth 1942, p. 12
وانظر مقالة حبيب الزيات في الخزانة الشرقية ٣ : ١٤٠

٦) Sauvaget, *Esquisse d'une histoire de la ville de Damas*, R. E. I. 1935, p. 441.

٧) H. Lammens, Barada, « *Encyclopédie de l'Islam* » p. 668

٨) Ecochard, *Bains de Damas*, «Première partie». p. 12

٩) معجم البلدان (ط . وستنفلد) ٤ : ٨٤٦

١٠) Dussaud, *Topographie Hist. de la Syrie*, p. 288

ويبلغ النهر الفيجة . ويظن ان كلمة الفيجة تأتي من *pégé* اليونانية لانه نبع غزير جدًا يُضاعف مياه بردى. .»[١]

وتبعد الفيجة عشرين كيلومترًا عن دمشق .[٢]

فاذا صار قريباً من دمشق ، انقسمت منه أنهار[٣] عدتها سبعة[٤] ففي الشمال ينفصل عنه يزيد وثورا . ومن الجنوب ينفصل القنوات وباناس والمزّي والديراني ويكون هو سابعها . ثم يدخل بردى دمشق نفسها . ويدخل معه ايضاً باناس وقنوات . وينفصل عنه المجدول قبلها . ثم يتابع سيره حتى يخرج من المدينة فيجتاز الغوطة. وما تزال الينابيع تنبع على جنباته فتردفه ، والانهار تنفصل عنه فيردفها حتى يمرّ بالغوطة كلها ، فيسقيها ، وتكون مدينة له بخصبها وجودة تربتها . ثم ينصب في بحيرة المرج[٥] او بحيرة دمشق[٦] .

وبردى أشهر من ان يُشاد بذكره . وفضله على دمشق ظاهر بيّن . وقد لهج بذكره الشعراء منذ أيام الجاهلية الى يومنا هذا . وله في الأدب العربي فصل خاص جدير بان يُعنى به وينشر . ومن اقدم من ذكره حسّان ، ومن احدثهم شوقي .

نهر يزيد

يذكر المؤرخون العرب أن يزيد بن معاوية هو الذي شقّه[٧] . ومن المؤكد أنه شُقّ في زمن أقدم من عهد يزيد[٨]. وليس يزيد هو أول من شقّه[٩] . وقد

---

١) Dussaud, *op. cit.* p. 288 et suiv.

٢) Ecochard, *Bains*, p. 12 ومن ماء الفيجة تشرب في ايامنا دمشق كلها . وقد مدت مياهها في انابيب اليها ووزعت على دورها .

٣) مراصد الاطلاع ١ :١٤٣

٤) نخبة الدهر للدمشقي (ط . مهران) ص ١٩٤ .

٥) مراصد الاطلاع ١ : ١٣٢

٦) المسالك والممالك لابن خرداذبة (ط . ليدن ١٣٠٦ ﻫ) ص ١٧٧ .

٧) نخبة الدهر للدمشقي (ط . مهران ليبزيغ ١٩٢٣) ص ١٩٤

٨) Ecochard, *Les Bains de Damas* p. 12 (*J.F.D.*)

٩) غدق الافكار في ذكر الانهار لابن عبد الهادي (مخطوط في الظاهرية)

كان فيه قنى أعجمية لبعض أهل الذمة صنعت قبل يزيد[١] . على أن يزيداً هو الذي زاده وجدده وجعله نهراً فنسب اليه.[٢]

ينفصل عن بردى بالقرب من قرية الهامة على بعد ١٢ كيلو متراً من دمشق فيسر شمال الدوّاسة أي الدكة القديمة[٣] وجنوب أراضي دير مرّان[٤] . ويسقي قسماً كبيراً من اراضي الصالحية ماراً بسفح قاسيون . وكل مياه الصالحية منه[٥] . ويجتاز اراضي الميطور[٦] وبرزة[٧] ويسقيها . وينتهي في اراضي[٨] حرستا[٩]

نهر نورة

كذا رسمه ابن عساكر[١٠] ورسمه آخرون بالألف المقصورة[١١] . ويسميه الناس اليوم تورا . وهو من صنع الآراميين[١٢] . أما نسبته فيختلف فيها فقال ناس إنه سمي باسم أمير اسمه ثورى كان قبل الاسلام[١٣] . وقال آخرون إنه أحد ملوك

١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط في الظاهرية ، تاريخ رقم ١) ورقة ١٧٧ آ.
٢) غدق الافكار
٣) انظر مخطط الصالحية لدهمان (مطبوعات مديرية الآثار العامة ، دمشق ، ١٩٤٧).
٤) انظر ياقوت ، معجم البلدان (ط . وستنفلد . لبزيغ ١٨٦٩) ٢ : ٦٦٦ . ومسالك الابصار (ت . احمد زكي باشا . القاهرة ١٩٢٤) ص
٥) المروج السندسية لابن كنان (ت . دهمان ، مطبوعات مديرية الآثار العامة ، دمشق ١٩٤٧) ص ٣٦ .
٦) المروج السندسية ، ص ١٢ – وانظر مخطط الصالحية لدهمان.
٧) معجم البلدان ١ : ٥٦٢ – ضرب الحوطة لابن طولون (مجلة المجمع العلمي . مجلد ٢١ ، ١٩٤٦ عدد ٣ و ٤ ، ص ١٥٤ ...) – دوسّو Dussaud, *T. H. S.* ص ٣١٦ .
٨) معجم البلدان ٢ : ٢٤١ – ضرب الحوطة ص ١٥٦ «وشرجا من نهر يزيد وتورا» – دوسّو Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٠٢.
٩) عن نهر يزيد انظر أيضاً: R.Thoumin. *Deux quartiers de Damas: Quartier Kurde*: p. 116. *(B.E.O.)* T. I, 1931. Surtout « L'Alimentation en eau », p. 125.
١٠) تاريخ دمشق (مخطوط) الورقة ١٧٧ آ .
١١) العلموي مثلاً في مختصر التنبيه .
١٢) Ecochard, *Bains*, p. 12
١٣) المروج السندسية ، ص ٣٦.

المسلمين[١]. والنسبة الثانية خطأ.

ينفصل عن بردى بالقرب من الشاذروان. ويمضي نحو الصالحية مارًا بجنوب نهر يزيد. ثم يجتاز الجسر الابيض[٢]، وقرية مقرى القديمة، وبيت أبيات، أي محلة طاحون الاشنان[٣]. وبين يزيد وتورا تقوم أراضي النيرب الاعلى[٤] والسهم الاعلى[٥]. وكان يسقي قرية أرزة التي قام مقامها حي الشهداء[٦]. وكذلك كان يسقي قرية أرزونا وكانت قبيل جسر تورا، قبليه لجهة الغرب[٧]. وهو يسقي قسماً من أراضي جوبر[٨].

وذكر ابن طولون في القلائد الجوهرية (ورقة ١٩٩ مخطوطة دهمان) أن عدة أنهار تتفرع من تورا منها نهر جسر البط ونهر طاحون الوز. وأن تحت هذا النهر عدة أعين تتبع: عين الكرش ويجتمع عليها ماء حتى يصير ...اوها يقال له نهر عين الكرش. وعين غيضة الخواجا ابن مزاق، وعين طريق الشبلية. وأصلها من بستان شرقيها. اهـ.

ومن تورا يتفرع فرع يسمى مقسم الثلث يسقي أراضي قرى حزة[٩]

---

١) مختصر تنبيه الطالب للعلموي (تحقيق صلاح الدين المنجد – مطبوعات مديرية الآثار العامة، دمشق ١٩٤٧) ص ٨٦.

٢) انظر دور القرآن بدمشق – الملحق الثاني رقم ٥، ص ٦٥.

٣) المروج السندسية ص ١٢ – ضرب الحوطة ص ١٥٤. عن مقرى: معجم البلدان ٤: ٦٠٤ جبل قاسيون لمحمد دهمان (دمشق ١٩٤٦) ص ١٩، ولم يعرف موقعها دوسو (ص ٣٠٦).

٤) جبل قاسيون لدهمان ص ١٥ – ١٨ (هو اوسع ما كتب) وانظر Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٠٨.

٥) مدارس دمشق للاربلي (تحقيق محمد دهمان، دمشق ١٩٤٧) حاشية رقم ١ ص ٢٨.

٦) ضرب الحوطة ص ١٥٤ – جبل قاسيون لدهمان ص ١٨.

٧) ضرب الحوطة ص ١٥٤ – مدارس دمشق للاربلي، حاشية رقم ٥ ص ٢٩ – جبل قاسيون لدهمان ص ١٨ – ولم يعرف موقعها دوسو (ص ٢٦٤)

٨) معجم البلدان ٣: ١٢٩ – ضرب الحوطة ص ١٥٥ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٩٩.

٩) ضرب الحوطة ص ١٥٦ «وشربها من عين الرشيدية» – Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٠٢.

وزملكا[١] وعربيل[٢]، وبعض أراضي عين ترما[٣].

ثم يُتابع سيره فيسقي اراضي مَدْيَرى[٤] ومسرابا[٥] ودومة[٦] وينتهي في عذرا[٧] التي تشرب منه.

وعلى هذا النهر قناطر إسلامية كثيرة تبعد الواحدة عن الثانية نصف كيلومتر. وعلى جسرين من هذه الجسور كتابتان فاطميتان تشيران إلى تاريخ بنائهما أيام الخليفة المستنصر بالله.

ونص الكتابة الاولى:

« بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بعمارة هذا الجسر، في أيام مولانا الامام المستنصر بالله، الاجلُ تاج الامرآء الابرار المظفر ... المجاهد المرابط عمدة الامام ... تقبل الله منه عمله وأعظم أجره. وذلك ابتغاء مرضات (كذا) الله ورسوله، في ربيع الاول سنة اثنين وأربعين وأربعماية.»[٨]

ونصّ الكتابة الثانية:

« بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بعمارة الجسر مملوك مولانا الامام | المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، تاج الامرآء مقدم الجيوش المظفر ... | شرف الملك عمدة الامام سيف الاسلام بعز الدولة وسعدها وعضدها ذو | الرئاسات أطال الله بقاءه وأدام قدرته في ربيع الاول سنة ست وخمسين وأربع ماية.»[٩]

وقد وجدنا في كتاب القلائد الجوهرية لابن طولون[١٠] محضراً بتاريخ سنة ٦٤٨ﻫ يتعلّق بمداذين نهر تورا. وها هوذا نصّه:

١) معجم البلدان ٢: ٩٤٤ – ضرب الحوطة ص ١٥٧ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٣١٣.
٢) – ضرب الحوطة ص ١٥٩ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٦٤.
٣) معجم البلدان ٣: ٧٥١ – ضرب الحوطة ١٥٩ « وغالب الوادي التحتاني مع اهاليا. وشربها من نهر تورا. واما الوادي فشرب بعضه من نهر داعية وبعضه من بردى » – Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٦٤.
٤) Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٠٥.
٥) 〃 〃 ص ٣٠٧.
٦) معجم البلدان ٢: ٦٢٥ – ضرب الحوطة ص ١٥٧ – Dussaud, *T.H.S.* ص٣٦٩.
٧) معجم البلدان ٣: ٦٢٥ – ضرب الحوطة ص١٥٩ – 〃 〃 ص٣٦٣.
٨) *Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe*. الجزء السابع، رقم 2549.
٩) المصدر السابق، رقم 2451.
١٠) مخطوطة الشيخ محمد احمد دهمان، ورقة (١٦٨ – ١٦٩)

« ثبت لدى قاضي القضاة صدر الدين[١] ابي العباس احمد بن قاضي القضاة شمس الدين[٢]
« ابي البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن يحيى بن محمد الشافعي الحاكم كان
« بدمشق ، في يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة جميع ما تضمنه
« المحضر الذي من مضمونه – وشهد في المحضر اربعة شهود : عبدالله بن رحمويه ، وسليمان
« ابن داود بن عمر بن خطيب بيت الآبار ، ومحمد بن خميس بن محمد ، وابرهيم بن سلامة
« ابن عيسى الشافعي – ان العادة المستمرة والقاعدة المستقرة الجارية في عدادين عمر نوراً من
« اهل الاماكن الاتي ذكرها من كورة غوطة دمشق من السنين المتقادمة والاعوام المتطاولة
« ان لأهل قريتي دومة وحرستا الزيتون بينها نصفان : ثمانية عدادين في ثمانية ايام متوالية .
« ثم يتلوها لاهل قرية عربيل وقرية كفر مدير وقرية مسرابا الوقف على البيمارستان النوري .
« ولداريا الصغيرة . وللثلاثة مزارع من قرية حرستا الزيتون : تعرف إحداهن بمذرون ،
« والاخرى بسطرا ، والاخرى بانطايا اربعة عدادين ، من هذه الاماكن المؤخر ذكرها
« من وقت العصر الى طلوع الشمس ، ما خلا ماسيتي أمير المؤمنين وقناة السبيل المعروفة
« بالزينبية والماصية المختصة المعروفة بدار الضيافة . وحدها من الربوة الى ان تنتهي الى
« مقسم الثلث الذي منه هذه المدادين الاربعة . وهذه المادة لم يتغير ها متغير ولا أزالها مزيل
« من السنين المتقادمة الى الآن . وكتبوا شهادتهم في الثامن من شعبان سنة سبع واربعين
« وستمائة هجرية . وقد اتصل بحكام الشريعة المطهرة حاكماً بعد حاكم بالطريق الشرعي الى
« ان اتصل بالشهادة على الخط وحكم بثبوت الصحة فيه بشيخنا قاضي القضاة نجم الدين عمر بن
« ابراهيم بن مفلح الحنبلي في ثالث ذي الحجة سنة احد وتسعماية . »

نهر الداراني

هو نهر داريا القديم[٣] سُمّي باسمها لانه يسقيها. ويسمى اليوم « الديراني »
« وهو أرفعها (النهور) مجرى وأبعدها مقسماً »[٤] ينفصل عن بردى بالقرب من
الشاذروان[٥] ، فيسقي اراضي المزّة[٦] ، ويبلغ داريا[٧] فيسقيها.

---

١) أحمد بن يحيى ابن سنى الدولة . – ٦٥٨ انظر ابن كثير ١٣ : ٢٢٤
٢) يحيى بن هبة الله ابن سنى الدولة . – ٦٣٥ النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠٢
٣) تاريخ دمشق (مخطوط) ، ورقة ٧٧ آ .
٤) نخبة الدهر ، ص ١٩٨ .
٥) انظر عنه ترجمة الانام للبدري (ط القاهرة ١٣٤١ هـ)
٦) معجم البلدان ٤ : ٥٢٢ – نخبة الدهر ، ص ٢٦٤ – ضرب الحوطة ، ص ١٦٠ – رحلة ابن جبير (ط ليدن ١٩٠٧) ، ص ٢٩٧ – وانظر ايضاً : المزة فيا قيل في المزة (ط . القدسي ١٣٤٨ هـ) . ودور القرآن بدمشق لصلاح الدين المنجد (دمشق ١٩٤٦) ، ص ٤٧
٧) معجم البلدان ٢ : ٥٣٦

نهر القنوات

هو من صنع الرومان[1]. ومن المرجح أنه نهر قينية القديم[2]. لانه هو الذي يسقي اراضيها.

ينفصل عن بردى بالقرب من الشاذروان. وينقسم عند الشكنة[3] الحميدية (وقد أصبحت مقر الجامعة السورية منذ شهور) الى فرعين:

آ – الفرع الاول يجري جنوباً فينقسم خمسة أقسام:

١ – قسم بستان حجر الاحمر ويسقي أراضي كفرسوسية[4]

٢ – قسم القدم[5] ويسقي اراضي قينية[6] والخلخال

٣ – قسم الشعاب ويسقي باب السريجة وباب المصلّى والميدان

٤ – قسم عاتكة ويسقي حي قبر عاتكة

٥ – قسم المعلقات.

ب – الفرع الثاني يجري شرقاً، فيدخل المدينة، ويجتاز حياً سمي باسم النهر. وتتفرّع منه طوالع كثيرة توزع المياه على الحارات والدور والحمامات والطواحين والجوامع. كحي قبر عاتكة، وباب السريجة، والخراب، ومأذنة الشحم، وحارة اليهود وزقاق المارستان، وحارة الشابكلية في القنوات، وكحمام التوروزي، وحمام الخياطين، وحمام المسك، وحمام ست عذراء، وحمام السنانية، وحمام البزورية، وحمام القيشاني، وحمام ملكة. وكقصر اسعد باشا العظم، وكطاحون السجن، وكالقلعة وسوق الاروام، وكالجامع الاموي، وغير ذلك.

---

١) M. Ecochard, *Bains*, p. 12

٢) تاريخ دمشق (مخطوط) ورقة ٢٧٧ آ.

٣) بنيت ايام السلطان عبد الحميد.

٤) معجم البلدان ٤:٢٨٨ – دور القرآن بدمشق، ص ٤٧.

٥) ضرب الحوطة، ص ١٦٠

٦) قرية درست. كانت بساتين زمن ياقوت (معجم الادباء ٤:٢١٩) وهي غربي المصلى بجوار الخلخال، جنوب غربي باب السريجة (دور القرآن بدمشق، ص ٤٧ و١٠١) ظاهر باب الجابية (ضرب الحوطة، ص ١٦١).

وقد ذكر البديري الحلاق ان هذا النهر رمم وعُمّر سنة ١١٥٦هـ. قال : « وفي غرة جمادى الاولى سنة ١١٥٦هـ شرع حضرة سليمان باشا المعظم في تعمير وترميم القنوات وجعل جميع المصارف من ماله جزاه الله خيراً واشتغل بها من الفعلة مائتا فاعل ، فأمر بقطع بعض الصخر من طريقها وبتشييد اركانها واصلاح ما فسد منها ورفع وجدرانها وبضبطها ضبطاً جيداً ، وباصلاح فروض مستحقيها على الوجه الحق ، وان يأخذ كل ذي حق حقه . »

مذكرات أحمد البديري الحلاق من سنة ١١٥٤ هـ. الى سنة ١١٧٦ ، تنقيح محمد سعيد القاسمي (مخطوط بالظاهرية عام ٣٢٣٧) .

نهر القناة

هو قناة المزة. ويسمى اليوم القناية ، والمزاوي[1] ، وكان يسمى نهر مزة[2] . ينفصل عن بردى في قرية دمر[3] . ويسقي قسماً من أراضي المزة وما يحيط بها .

نهر بانياس

هو نهر أبانا الذي تذكره التوراة[4] . يسميه الدمشقي نهر « بلنياس » ويذهب الى انه بلنياس الحكيم فتحه فسُمي باسمه[5] . وظن آخرون أنه منسوب الى بلنياس المهندس l'architecte[6] . وهو من صنع الآراميين .[7] ينفصل عن بردى عند الربوة[8] . ثم يدخل مدينة دمشق فيمرّ بقلعتها[9]

(١) Ecochard, *Bains* p. 12

(٢) نخبة الدهر للدمشقي ، ص ٢٦٤ ؟.

(٣) معجم البلدان ٢ : ٥٨٧ — Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٦١.

(٤) Ecochard, *Bains*, p.12

(٥) نخبة الدهر ، ص ١٦٤ .

(٦) Tresse, *l' Irrigation dans la Ghouta*. (*R.E.I.*) 1929, p. 470.

(٧) Dussaud. *T.H.S.* p.309 — Ecochard, *Bains* p 12.

(٨) عن الربوة انظر معجم البلدان ٢ : ٧٦٢ — مسالك الابصار (دار الكتب ١٩٢٤) ص ٢٠٧ — ابن جبير ص ٢٧٨ و٢٧٩ — .

(٩) عن القلعة انظر : ترجمة الانام للبدري (القاهرة ١٣٦١ هـ) ص ٦٠ — ٦١ و Sauvaget, *La Citadelle de Damas*.

« ثم ينقسم قسمين: قسم للجامع وقسم للقلعة. ثم ينقسم كل قسم على تقاسيم »[١] ويخرج فرع مارًا شرق المدرسة القجماسية[٢] تحت حمام محمد باشا العظم[٣]. وينقسم هذا القسم فرعين الاول يجري نحو الباب الصغير[٤] والميدان[٥] والثاني نحو بساتين الشاغور والباب الشرقي[٦]. وتسميه العامة « قليط ».

وقد استمد من بانياس نهر، في الماضي، كان يسقي بعض أراضي بابيلا[٧] كما ان بانياس كان يسقي بعض أراضي حجيرة[٨].

واما قسم القلعة، فيخترقها، ومن ماء هذا القسم ماء العادلية الصغرى[٩]، والكبرى[١٠] والظاهرية الجوانية[١١] ونوفرة جيرون[١٢] وغيرها...

وعلى الجملة فإن النصف الشمالي من المدينة يُسقى معظمه من نهر باناس، (×

---

١) مسالك الابصار (مخطوط بخزانة باريس رقم ٢٣٢٥) عن الخزانة الشرقية لحبيب الزيات ٣ : ١٤٠.

٢) مختصر تنبيه الطالب، ص ١٠٠. هدمت كلها واصبحت عرصة. انظر مخطط دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد، رقم ٤٩.

٣) هدم منذ شهور، وظهر تحته نهر بانياس.

٤) دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد (مطبوعات مديرية الآثار العامة ١٩٤٥) ص ٤٩.

٥) هو ميدان الحصا، جنوب دمشق. انظر : Sauvaget, *Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas (R.E.I. 1935) pl. VII.*

٦) دمشق القديمة ص ٣٩.

٧) وقفية سعد الدين باشا العظم (مخطوطة بمديرية الآثار العامة، ورقة ٧١).

٨) المصدر السابق

٩) مختصر تنبيه الطالب، ص ٥٨ ومخطط دمشق القديمة للمنجد، رقم ٤٦.

١٠) المصدر السابق، ص ٥٧ 〃 〃 〃 〃، رقم ٣٥.

١١) المصدر السابق، ص ٥٥ 〃 〃 〃 〃، رقم ٣٦.

١٢) انظر عنها مسالك الابصار، ص ٢٠٠.

×) عن نهر باناس انظر ايضًا : حبيب الزيات، نهر ابانا وفرفار. (الخزانة الشرقية ٣ : ١٣٩ – ١٤١) وتاج العروس ٢ : ٢٩٩ مادة (بَرَدَ) –

نهر الجدول

ورد ذكره في تاريخ ابن عساكر[١] ويُسمى اليوم نهر المقرباني نسبة الى عقربا[٢]. ينفصل عن بردى ، في المرجة (ساحة الشهدآ) ، فيكون أرفع من بردى مستوى ، وبردى اخفض منه . ثم يكون خندقاً للقلعة من شمالها . فاذا تركها مرّ بين السورين[٣] ثم يماشي سور المدينة ، ويصل الى باب السلامة[٤] . ثم يمر بالصفوانية[٥] ثم يمضي فيسقي اراضي جرمانا[٦] وعقربا وبيت سحم[٧] .

نهر داعية

ذكره ابن عساكر[٨] . ويسمى الداعياني . ينفصل عن بردى في الصفوانية فيسقي طرفاً من أراضي جوبر . ويتفرّع من الداعياني ثلاثة انهر اخرى .

١ – الاول ينفصل عن الداعياني بالقرب من طاحون العبد[٩] . ويسقي اراضي عين ترما . وكفربطنا[١٠] .

٢ – الثاني ينفصل عن الداعياني بالقرب من عين ترما ويسقي اراضي سقبا[١١] وحمورية[١٢] وافتريس[١٣] وبيت سوا[١٤] .

---

١) تاريخ دمشق (مخطوط) ، ورقة ١٧٧ آ.

٢) معجم البلدان ٣ : ٦٩٤ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٩٤ – ضرب الحوطة ص ١٥٩ « وينسب اليها القماش المقرباني ».

٣) انظر دمشق القديمة ، ص ١٤ .

٤) « المصدر السابق ، ص ٤٥ .

٥) تسمى اليوم الصوفانية . انظر مخطط دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد .

٦) معجم البلدان ٢ : ٦٤ – ضرب الحوطة ، ص ١٥٥ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٩٩ .

٧) ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٩٥ .

٨) تاريخ دمشق (مخطوط ، ورقة ١٧٧ آ.

٩) على الطريق المؤدي إلى كفربطنا وجسرين

١٠) معجم البلدان ٤ : ٢٨٦ – ضرب الحوطة ص ١٦٠ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٠٤ .

١١) معجم البلدان ٣ : ١٠٠ – ضرب الحوطة ، ص ١٥٨ – ولم يعرف موقعها دوسو رغم شهرتها (ص ٣١٢) .

١٢) معجم البلدان ٢ : ٣٤٠ – ضرب الحوطة ، ص ١٥٦ – Dussaud, *T.H.S* ص ٣٠٢ .

١٣) ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٣٠٤ .

١٤) معجم البلدان ١ : ٧٧٨ – ضرب الحوطة ، ص ١٥٥ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٦٦ .

٣ – الثالث ينفصل عن الداعياني بالقرب من عين ترما ايضاً ويسقي أراضي كفربطنا وجسرين[١] والمحمدية[٢].

نهر المليحي

ينسب الى قرية المليحة[٣] او المنيحة.

ينفصل عن بردى بالقرب من طاحون الاحد عشرية[٤]. ويسقي اراضي المليحة وبلاط[٥] وخيارة[٦] ودير بجدل[٧].

نهر زبدين

ويسمى الزبديني نسبة الى قرية زبدين[٨]. ينفصل عن بردى بالقرب من بستان القوادري[٩] ويسقي اراضي الحديثة، حديثة الجرش[١٠] (الحتيتة اليوم) وزبدين. وتفيض مياهه في الشتاء على نهر الحاروش[١١] او حروش. وكان يعد من نهر زبدين نهر درمينا كما جاء في وقفية سعد الدين باشا العظم – (بمديرية الآثار العامة ورقة ٤٢).

---

١) معجم البلدان ٣ : ٨٣– ضرب الحوطة، ١٥٥ – Dussaud, *T.H.S.* ص٢٩٩.

٢) ضرب الحوطة، ص ١٦٠ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٩٨ و٣٠٠.

٣) معجم البلدان ٤ : ٦٧٣–ضرب الحوطة، ص ١٦٠ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٠٥.

٤) تقع شرق محلة القماطلة، على بعد ٥٠٠م من الباب الشرقي، مشهورة.

٥) معجم البلدان ١ : ٧٠٨ – Dussaud, *T.H.S.* ص ٢٩٥.

٦) Dussaud, *T.H.S.* ص٢٠٥ – ضرب الحوطة، ص ١٥٧ –.

٧) Dussaud, *T.H.S.* ص٢٩٤ – ضرب الحوطة، ص١٥٤ –.

٨) Dussaud, *T.H.S.* ص٣١٢.

٩) بستان مشهور يقع شرق جسر المطيّر. وترتيب البساتين على طريق المليحة، ابتداء من مدفن أبي، على شمال الذاهب شرقاً كما يلي : مزرعة القوتلي – بستان هدايا – جورة السوداء – جسر المطيّر، فوق العقرباني – بستان البطيخي – بستان الملي – بستان القوادري...

١٠) معجم البلدان ٢ : ٢٢٥–ضرب الحوطة، ص ١٥٨ Dussaud, *T.H.S.* ص٢٠١.

١١) يجري من عين حروش في أرض زبدين انظر : الغوطة لمحمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي – المجلد ١٦ – ج ٣ و٤ – ص ١٧٤).

نهر الزابوه

ذكره ابن عساكر[١]. ينبع من عين التويني[٢] ويرفده بردى ويسقي اراضي جسرين والمحمدية والاشعري[٣].

نهر الملك

ذكره ابن عساكر[٤]. ينفصل عن بردى بالقرب من جسر الغيضة[٥] ويسقي قسماً من اراضي المحمدية.

نهر هزرما

نسبة الى قرية حزرما[٦]. ينفصل عن بردى ويسقي اراضي حوش الصالحية[٧].

نهر الشيلاني

ويسمى الشيداني. ينفصل عن بردى بالقرب من بالا[٨] ويسقي بالا وحوستا[٩] القنطرة.

والى جانب هذه الانهار التي تنفصل عن بردى، توجد انهار اخرى تجري من ينابيع قريبة او بعيدة من مجراه.

من هذه الانهار نهر قناة الاشعري ينبع من عين الغيلانية بالقرب من قرية حتورية. ويسقي اراضي الاشعري وأوتايا والشيفونية.

ومنها نهر البحيراني ينبع من اراضي قرية بجارية ويسقي اراضيها واراضي جربا.

ومنها نهر حروش، ينبع من اراضي بزينة من عين حروش ويردفه بردى في الشتاء. ويسقي اراضي تل احمر وقسماً من اراضي دير سلمان وجديدة وحران العواميد.

---

١) تاريخ دمشق (مخطوط)، ورقة ١٧٧ آ.
٢) عين من عيون الغوطة
٣) من قرى المرج
٤) تاريخ دمشق (مخطوط) ورقة ١٧٧ آ.
٥) جسر مشهور، والغيضة كانت تسمّى غيضة السلطان، ولها ذكر في التواريخ
٦) Dussaud, *T.H.S.* p. 302
٧) Dussaud, *T.H.S.* p. 304
٨) Dussaud, *T.H.S.* p. 294
٩) Dussaud, *T.H.S.* p. 303

٣

خانات دمشق

جمع ابن عبد الهادي ، في القرن العاشر الهجري ، أسماء الخانات التي عرفها في زمانه ، واغلب الظن أنه لم يستقص كل الخانات التي كانت في دمشق . وقد نشر الاستاذ حبيب الزيات رسالة ابن عبد الهادي التي جمع بها ما عرفه من خانات دمشق ، وقدّم لها بتمهيد عن معنى الخان، والوكالة والقيسارية، وعن أسماء الخانات ومن أي شيء تستمد[1].

وكان صاحب كتاب « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء »[2] نشر فصلاً عن خانات دمشق في القرن الماضي ، بيّن لنا عددها ، ولكن لم يسرد أسماءها جميعاً ، بل اكتفى ببعض الخانات التي كانت في عصره ، وأغلبها من العصر العثماني.

على اننا لم نجد حتى يومنا هذا ، من عُني من المعاصرين بالبحث عن هذه الخانات من الناحيتين الطوبوغرافية والمعمارية . ومن الواجب ان نبحث عنها ، ونعلم كيفيّة تنظيمها وعمارتها ، لما كان لهذه الخانات من شأن كبير في الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية .

وسنحاول هنا ان نقدم أنموذجات من خانات دمشق . تبين كيف كانت وتذكر مواقعها ، وأوصافها ، وعدد غرفها وطبقاتها ، وقد استخرجنا ذلك من كتب الوقف المخطوطة التي عثرنا عليها ، والمطبوعة التي قرأناها .

وقبل أن نبدأ بذكر هذه الانموذجات ، نقدم قائمة بأسماء بعض خانات كانت بدمشق ، جمعناها من الكتابات القديمة ، او الكتب ، لم يذكرها ابن عبد الهادي ، ولا القساطلي ، ولا الزيات .

وها كم ما جمعناه من اسماء بعض الخانات .

---

١) الاعانات على معرفة الخانات لابن عبد الهادي ، يوسف بن حسن . نشرها ، عن مخطوطة الظاهرية الاستاذ الزيات . انظر الخزانة الشرقية ٣ : ٤٦ وما بعدها ، بيروت ١٩٤٦ .

٢) الروضة الغناء لنعمان القساطلي ، ص ١٢٦ ، بيروت ١٨٧٩ .

١ – خان العميان ، وقف على الخانقاه العزية[١].

٢ – خان الجورة او خان المقادسة . قام مقامه تربة قانصوه اليحياوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ.[٢]

٣ – خان عاتكة ، وقف على المدرسة المرشدية.[٢]

٤ – خان النجيبي ، بميدان الحصى[٤]. وينسب الى جمال الدين آقوش النجيبي (– ٦٧٧هـ).

٥ – خان فارس ، كان قبلة مسجد القصب ، فلما جدد المسجد وزاد فيه الامير ناصر الدين محمد بن منجك أخذه وضمه الى المسجد[٥].

٦ – خان الناصر ، ينسب للملك الناصر ، باني المدرسة الناصرية الجوانية ، قال ابن كثير[٦] : بنى الخان الكبير تجاه الزنجاري[٧] وحولت اليه دار الطعم[٨].

٧ – خان التربة بحكر السماق ، وقف على البيمارستان النوري[٩].

٨ – خان يعرف بالاصطبل ، ظاهر دمشق ، وقف على الظاهرية[١٠].

٩ – خان الشبلي خارج باب الجابية ، وقف على المدرسة العزية[١١].

١٠ – خان الظاهر . أمر بتجديده تنكز سنة ٧٣٢هـ[١٢].

١١ – الخان المعد لشغل الاقمشة خارج باب شرقي . وقف على تربة الامير سرور ابن عمر الحسامي المتوفى سنة ٦٩٥[١٣]

---

١) مختصر تنبيه الطالب للنعيمي تحقيق صلاح الدين المنجد (مطبوعات مديرية الآثار العامة بدمشق ، ١٩٤٧) ص ١٥٠.

٢) المصدر السابق ، ص ٢١٥.

٣) Combe, Sauvaget et Wiet, *Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe*, N° 4350. T.XI p 233.

٤) البداية والنهاية لابن كثير (ط القاهرة) ١٤ : ٧٦

٥) مختصر تنبيه الطالب ، ص ٢٢٩

٦) البداية والنهاية ١٣ : ٢٤١

٧) اي المدرسة الزنجارية ، انظر مختصر التنبيه

٨) انظر مخطط دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد.

٩) *Répertoire*, N° 4411, T. XII, p. 8

١٠) *op. cit*, N° 4743, T. XII, p. 230

١١) *op. cit*, N° 5034, T. XIII p. 164

١٢) البداية والنهاية ١٣ : ١٥٢

١٣) *Répertoire*, N° 5011 T. XIII, p. 149

١٢ – خان لاجين شرقي دمشق[1].

***

اما الانموذجات التي وعدنا بذكرها فها هي ذي :

١ – خان المقدم

« وجميع الحصة الشائعة وقدرها الربع من جميع الخان الكائن بدمشق المحروسة المعروف بالمقدم[2] داخل باب الفراديس ، المعدّ الآن لضرب النحاس ، المحدود بحدود أربعة من القبلة المدرسة المقدمية الجوانية[3] ، وتمامه النهر. ومسجد الرأس[4] . ومن الشرق الاسطبل المعروف بابن قراسنقر ، وتمامه وقف الملك المؤيد . ومن الشمال سور البلد[5] وتمامه المدرسة المجاهدية[6]. ومن الغرب الطريق ومنها يتطرق الى ذلك.

(قطعة من وقفية المقدّمية . السطر الخامس الى السطر الثامن)
محفوظة عند الاستاذ الشيخ حمدي السفرجلاني

٢ – خان قصر[7] حجاج

« جميع الحصّة الشائعة وقدرها ثمانية عشر سهماً من أصل أربعة وعشرين سهماً شائعاً في

١) البداية والنهاية ١٤: ١٩٥

٢) هو الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم . من كبار أمراء صلاح الدين. توفي سنة ٥٨٣ . (انظر ترجمته في وفيات الاعيان لابن خلكان . وانظر مختصر تنبيه الطالب للعلموي ، تحقيق صلاح المنجد ، دمشق ١٩٤٧ ، ص ١٠٨)

٣) من مدارس الحنفية بدمشق . انظر مختصر تنبيه الطالب ص ١٠٨ – ١١٠ ، و Sauvaire, *Description de Damas*, dans *J. As.* Septembre-Octobre 1894 p. 284-285.

٤) مسجد بباب الفراديس ، يُقال ان رأس الحسين مدفون به (ثمار المقاصد في ذكر المساجد لابن عبد الهادي – المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٣ – ص ٦٩) . ودفن في هذا المسجد رأس الملك الكامل بن الغازي بن العادل . (البداية والنهاية لابن كثير ، ط . القاهرة دار السعادة) ١٣ : ٢١٥ . وقد جدّد هذا المسجد بردبك سنة ٨٧١ (اعلام الورى لابن طولون مخطوط ، ٣٦)

٥) انظر دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد ، ص ١٣ – ١٤

٦) من مدارس الشافعية ، انظر مختصر تنبيه الطالب ، ص ٧٣ ، و Sauvaire, *Description*, dans *J. As.* Mai-Juin 1894 p. 441.

٧) محلّة كبيرة في ظاهر باب الجابية منسوب الى حجاج بن عبد الملك بن مروان (معجم البلدان لياقوت . ط . وستنفلد) ٤ ص : ١١٠ .

جميع الخان ارضاً وبناء الكائن ذلك ظاهر دمشق المحروسة خارج باب الجابية(١ بقصر حجاج المجاور لحمام الزين(٢ يفصل بينها الدخلة النير (كذا) نافذة. يغلق عليه باب خاص. ويشتمل الخان المذكور على ساحة سماوية يدخل إليها من دهليز. بها سبعة عشر مخزناً يغلق على كل منها (ب) باب خاص، وعلى بايكتين وغير ذلك من منافع وظهور خواص حدها منه ذلك من القبلة الحمام يفصل بينها الدخلة المذكورة. ومن الشرق الشارع وفيه باب الخان. ومن الشآم ملك بن الاغراري قديماً وتمامه بن اللحام ومن الغرب ملك بن خالد قديماً ويونس وقف البيمارستان النوري وتمامه ملك سنان ».

(كتاب وقف الصابونية ورقة ٥ ب - ٦ آ)

محفوظ لدى معالي نسيب بك البكري نائب دمشق.

٣ــ خان بالقرب من جامع تنكز.

« وجميع عمارة الخان الكائن ظاهر دمشق المحروسة خارج باب النصر(٣ بالقرب من جامع تنكز(٤ بالصف القبلي من الشارع، وجميع الحوانيت المستخرجة من جداريه الشامي والغربي وعدتها خمسة عشر حانوتاً. يغلق على الخان المذكور باب خاص ويشتمل على سفل وعلو. فالسفل على بوايك ومخازن. لكل من المخازن باب خاص وساحة بها بركة ماء يجري اليها الماء من نهر القنوات(٥ من طالع حمام الحسام، وهو ستة أصابع. أبداً ما جرى الماء في النهر المذكور، بحق واجب. ويصعد الى العلو من سلم حجر الى طباق عدتها أحد وعشرون طبقة. لكل باب خاص. وظهور خواص به. ومياه أمطاره ترمي الى الطريق بحق واجب. حد ذلك من القبلة خان شاهين الزردكاش(٦ ومن الشرق وقف المرحوم المقر الشمسي بن المزلق(٧ رحمه الله ومن الشآم الشارع وفيه باب الخان واغلاق (٦ ب)

---

١) احد الابواب الفرنية بدمشق (دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد-دمشق ١٩٤٥ ص ٣٠).

٢) Ecochard, *Bains de Damas* p.47 (2e partie) Beyrouth 1943

٣) أحد الابواب الغربية بدمشق (دمشق القديمة للمنجد).

٤) بناء تنكز سنة ٧١٧هـ. انظر مختصر تنبيه الطالب للعلموي (تحقيق صلاح الدين المنجد ص: ٢٢٨). وانظر ايضاً H. Sauvaire, *Description de Damas*. (*J.As*, Mars - Avril 1896, p. 237.)

٥) انظر دراستنا عن أنهار دمشق.

٦) الزردخاناه هي السلاح خاناه، ومعنى هذا اللفظ بيت الزرد، وكان به جميع انواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح، والدروع المتخذة من الزرد. وفي هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لاصلاح العدد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة. ويسمى صانع ذلك الزردكاش. (صبح الاعشى ٤ : ١١ - ١٢)

٧) توفي سنة ٨٤٨هـ. انظر ترجمته في مختصر تنبيه الطالب، ص ٢١٠

الحوانيت الشمالية ومن الغرب الشارع أيضاً وفيه اغلاق الحوانيت الغربيّة.»
(وقفيّة الصابونية ورقة ٦ب – ٧ آ)

٤ ــ خان بالمقيبة

« وجميع الخان أرضاً وبناء الكائن ذلك ظاهر (٧ ب) دمشق المحروسة خارج بابي الفراديس(١ والفرج(٢ بالمقيبة(٣ الكبرى بالقرب من جامع التوبة(٤ بالصف القبلي من الشارع. ويغلق عليه باب خاص ويشتمل على عدة بوايك واربع مخازن. وعلو ذلك ثمانية عشر مخزناً وعلى حانوتين خارج باب الخان بالصف الشآمي يفصل بينهما الشارع ومخزن برسم الغلة ومقعد. وعلى طبقتين راكبتين على الساباط(٥ ويصعد الى علو الخان والطباق من سلم حجارة. وبوسط الخان بركة يجري اليها الماء من نهر تورة(٦ بحق واجب شرعي وهو ستة اصابع ابداً ما جرى الماء في النهر المذكور. وجميع الخمس طباق الملاصقة للخان المذكور من جهة الغرب شرقيات وغربيات راكبة على بعض بوايك الخان. ويصعد اليهن في سلم حجر ولكل من الطباق المذكورة منافع ومرافق وظهور خواص. حد ذلك جميعه من القبلة زقاق التفاح ومن الشرق ازقاق ومن الشآم الطريق وفيه باب الخان وباب الطباق ومن الغرب الطريق. »
(وقفيّة الصابونيّة ورقة ٧ ب – ٨ آ)

٥ ــ خان الحموي

« وجميع الحصّة المشاعة ومبلغها ثمانية أسهم من اصل اربعة وعشرين سهماً وهي الثلث مشاعاً في جميع عمارة الخان والحوانيت المستخرجة من جداره الشآمي ومن الطباق الراكبة على الحوانيت المذكورة الكائن ذلك جميعه ظاهر دمشق المحروسة خارج بابي الفراديس(٧ والسلامة(٨ بين (٨ ب) مسجد الحموي(٣ وسوق . . . ويعرف بخان الحموي. ويغلق عليه

١) دمشق القديمة ص ٥٨
٢) المصدر السابق ص ٥٥
٣) دور القرآن بدمشق لصلاح الدين المنجد (دمشق ١٩٤٧)، الملحق الثاني ،رقم ١١، ص ٧٢
٤) البداية والنهاية لابن كثير. (القاهرة – دار السعادة) ١٣ : ١٤٢،ومختصر تنبيه الطالب ص ٢٢١ ، و Sauvaire, *Description* (J.A.s Mars - Avril 1896. p. 238.)
٥) الساباط سقيفة بين دارين تحتها طريق . ج سوابيط وساباطات (القاموس)
٦) انظر دراستنا عن انهار دمشق .
٧) دمشق القديمة ص ٥٨
٨) المصدر السابق ص ٤٥
٣) مسجد كان بالقرب من مسجد القصب

باب خاص من جهة الشآم يدخل منه من دهليز تحت احدى هذه الحوانيت . وبهذا الدهليز مخزن له باب شرقي وخاص به . مشتمل على منافع ومرافق . وهو من جملة ما فيه الوقف المذكور . ثم يدخل منه الى ساحة سماوية كبيرة بها مخازن سفل دائرات بجوانبها الاربع وعدتها سبعة وعشرون مخزنًا متخذة للحياك وغيرها . وبهذه الساحة بركة يجري اليها الماء من نهر ثورة بحق واجب شرعي. وهو ثمانية اصابع دائمًا مستمرًا ابدًا ما جرى الماء في النهر المذكور . وبوسطها رحبة بها ثلاث مخازن شآمي وقبليان متخذة للحياكة ايضًا . وبالساحة المذكورة مرتفقان متلاصقان يجري اليهما الماء من البركة المذكورة يتصرف الى قناة الوسخ بحق واجب . وبها ايضًا بئر ماء معين واصل توت ولها منافع . وظهور هذه المخازن خواص بها غير ان في ظهور الشآمية منها منافع الطباق المذكورة. وعدة هذه الحوانيت المستخرجة من جدار هذا الخان اثنان وعشرون حانوت ثلاثة منها شرقي مجاز حمام الحموي(١ وحانوتان غربي المجاز المذكور . لصيقها مطلع يصعد منه الى بعض هذه الطباق. وباقي هذه الحوانيت سبعة عشر حانوتًا متلاصقة اولها لصيق هذا المالي الى باقي هذه الطباق لكل من هذه الحوانيت داخل وفناء واغلاق وفوقها سقايف راكبة عليها مطلة الى الشارع بحق واجب ويصعد الى هذه الطباق من مطلعين احدهما وهو المذكور من سلم حجر الى خمس طباق لكل منها باب خاص ومنافع ومرافق وطاقات مطلة الى الشارع بحق واجب وظهور خواص . ولهن مرتفق خاص بهن مشترك لهن . والمطلع الثاني لصيق آخر الحوانيت من جهة الغرب يصعد منه في سلم حجر ايضًا الى باقي الطباق وعدتها سبعة . لكل باب خاص ومنافع ومرافق وطاقات مطلّة الى الشارع بحق واجب وظهور خواص ولهن مرتفق مشترك بينهن وخاص بهن ومن جملة مرافقهن المشارق المذكورة في ظهور مخازن الخان الشآمية .

حد ذلك – خلا الثلاث حوانيت المذكورة شرقي مجاز حمام الحموي – من القبلة محاكرات بستان الوزير . ومن الشرق حمام الحموي(١ وتمام الحد لأربابه . ومن الشآم الشارع وفيه باب الخان ، واغلاق الحوانيت ، ومطالع الطباق المذكورة . ومن الغرب محاكرة بن الصارم وتمام الحد محاكرات لأربابها من بستان الوزير .

(وقفية الصابونية ٨ ب – ٩ ب)

---

١) حمام بناه الامير عز الدين ايبك الحموي . توفي سنة ٧٠٣ هـ . (البداية والنهاية لابن كثير ، ١٤ : ٣٠) وقد تمت عمارة هذا الحمام في شوال سنة ٦٩٤ ووصفه ابن كثير بانه من احسن الحمامات . (ابن كثير ١٣ : ٣٤٣) . وانظر مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها للاربلي (تحقيق دهمان ، دمشق ، ١٩٤٧) ص ٢٥–٢٦ . وانظر الملات في تعداد الحمامات لابن عبد الهادي (تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٤٧) ص ٦ وما بعدها .

٦ ــ خان ابن هواش

« جميع الخان ارضاً وبناء الكائن ظاهر دمشق خارج باب السلامة بالقرب من مسجد القصب(١ (١٢آ) بالبقسماطيين بالصف الشآمي من الشارع ويعرف بخان ابن هواش ويشتمل على بوّابة حجارة بلقاء نحيت ، واربع حوانيت مستخرجة من جداره القبلي من ذلك ثلاثة مستجدة والرابع عتيق معدا للجبصين . وعلو البوابة من جهة الشرق ثلاث طباق ، ويشتمل كل منها على منافع ومرافق ورواشن كبار مطلة الى الشارع . ومن جهة الشرق طبقتان برواشن كبار مطلة الى الشارع بمنافع ومرافق . وطبقتان من جهة الشرق بالزقاق المعروف بالبيمارستان ، علو الخان المذكور . ويدخل في دهليز به عدة ثمان مخازن . وعلو المخازن الغربية ثلاث طباق بثلاث رواشن صغار مطلّة على دهليز الخان المذكور . ثم يدخل الى ساحة سماوية بها بركة ناهدة مبلطة ببلاط مزّي واسود . وتجاه البركة المذكورة صفّة قبلية بها صفة بمحراب . يجري الماء الى البركة المذكورة من عين الكرش . بحق واجب . وقناطر حجارة مستديرة . وسبع بوايك . من ذلك عدة أربعة غربيأت ، ومخزنين وثنتان شرقيات وبايكة قبلية ومرتفقين متلاصقين . ويصعد الى العلو من ثلاث سلالم حجر الى سوابيط اربعة بها عدة مخازن من ذلك سبعة شرقيات وثمانية شماليات واثنا عشر غربيات . ولكل من الحوانيت والبوايك والمخازن والعلو باب خاص .

حد ذلك من القبلة الشارع الاعظم وفيه باب الخان ، واغلاق الحوانيت. ومطلع الطبقتين الغربيتين (١٢ب) ومن الشرق الزقاق المعروف بالبيمارستان وفيه مستطلع الخمس طباق ومن الشآم دار قبلاي وغير ذلك . ومن الغرب خان القرابلة ».

(وقفية الصابونية ورقة ١٢ آ – ١٢ب) .

٧ ــ خان مصطفى لالا باشا[١]

« وجميع الخان الجديد آرضاً وبناء وعمارة وماء ، الكائن ذلك ظاهر دمشق المحروسة خارج باب الفرج بمحلة عين علي(٣ وحمام الكحال والمؤيدية المعروف بإنشاء حضرة الباشا الواقف الموما اليه[٢] : أفاض الله نعمه عليه ، ويشتمل على ساحة كبيرة ، ويحيط بها جدران معمورة بالحجارة والمون ، يتوصل الى ذلك من باب قبلي كبير مقنطر مبني بالحجارة

---

١) مختصر تنبيه الطالب للعلموي ، ص ٢٢٩ وانظر:
Sauvaire, *Description*(J.As. Mars- Avril 1896, p. 238).

٢) أحد الوزراء البكلربكية الذين تولوا دمشق . وليها سنة ٩٧١هـ. وكانت مدته خمس سنوات ، ثم عزل . (ذكر من تولى دمشق من البكلربكية . مخطوط في الظاهرية بدمشق . عام ٤٦٨١) . وكان صاحب خيرات وحسنات . عمر تكايا وأماكن ، وعمر هذا الخان تحت القلعة ، والحمام بسوق السروجية ، وفتح قبر ص . (الباشات والقضاة لابن جمعة ، نسخة مصورة في خزانة المجمع العلمي بدمشق) .

٣) ما تزال العين موجودة في زقاق يسمى زقاق العين .

المنحوتة الملونة المنقوشة ، مركب عليه باب من خشب مصفح جميعه بالحديد والمسامير ،وهو مصراعان ، ويدخل منه الى دركاه مقبية بالحجارة والمون . وبها مخزنان سفليان . احدهما عن يمين الداخل ، والآخر عن يساره ، ويتوصل من الدركاه الى الساحة ، وهي مبلطة بالحجر الاسود. وفي وسطها بركة كبيرة ناهدة مبلّط ما حولها ، يجري اليها الماء من الماء المختص به الآتي ذكره فيه ، وبالساحة المذكورة مسجد مرتفع عن الارض ، ورواق يختص به مرتفع مثله ، راكب ذلك جميعه على مخزنين مقبيين بالحجارة والمون ، وعلى ثماني قناطر معقودة بالحجارة منحوتة مركبة شرقاً بغرب على عشرة أعمدة من حجارة مركوزة في البركة ، ويصعد الى المسجد في سلّم مستدير من حجارة منحوتة يتوصل منه الى داخله في ممشى مبلّطة بالبلاط المنوّع في وسط الرواق المذكور وهو جانبان : شرقي وغربي ، مسقّف ذلك جميعه بالخشب والدفوف المدهونة المسمّاة بدف وسير راكب على كباش من خشب مدهون ، مركب ذلك على أعمدة من رخام وعدتها أربعة . ثم يدخل من الممشى في باب شمالي مبني برخام وبلاط ملوّن ، وهو بمصراعين من خشب ، الى وسط المسجد المذكور . وبه محراب وبجدرانه خزانات وثمانية شبابيك مبنيّة من رخام وبلاط محددة ، اثنان منها : في جهة القبلة مطلّان على البركة ،واثنان : من جهة الشرق مطلّان على ساحة الخان ، واثنان من جهة الشمال مطلّان على الرواق ، واثنان من جهة الغرب مطلّان على جهة الخان.وسقف ذلك بالخشب(٣ .

وبساحة الخان المذكور لصيق سلّم الشمالي يصعد منه الى علو الخان من جهة الشمال في السلم المذكور.

وبساحة الخان المذكور ميضأة شرقية مستخرج من قبلتها حوض ماء ، ومن شمالها حوض ماء ، ومن غربها انابيب ماء حنفية ، ولها بابان من جهة الشرق ، وميضأة غربية بالساحة المذكورة ، ومن شماليها باب ، وباب ثان من جهة القبلة وكلاهما مسقّف مقبو من حجارة ومون لكل من مرتفقاتها جرن يجري اليه الماء والى الاحواض من ماء الخان المختص به .

والخان اربعة رواقات سفليات مسقفات باقبية من حجارة ومون على قناطر مركبة جميع ذلك من حجارة منحوتة ، وبالرواق الشرقي بايكة كبيرة يغلق عليها بابان شرقيان ، وفيها طالع الماء ، وبالرواق الشمالي بايكة كبيرة ، المختلطة بالبايكة المذكورة ، ويغلق عليها باب شمالي ، وسقف البايكتين مقبو من حجارة على عضائد كبيرة من حجارة ، وبالجهة الشمالية داخل الرواق الشمالي ميضأة مسقوفة يصل الماء اليها والى مرتفقاتها من ماء الخان المختص به ، وبالرواق الشمالي والغربي والقبلي مخازن سفلية ، وعدتها مع المخزنين اللذين بدركاه الباب المستجد خمسة وخمسون مخزناً .وبالطرف الشمالي الى الطرف الغربي عين سفلية مبنيّة بالحجارة وبالبلاط على صفة البركة ينزل اليها في درج ويصل الماء اليها من عين علي بحق واجب مستمر معلوم ، مسقوفة هي والمخازن السفلية بأقبية بحجارة ومون ، ويصعد الى علو الخان في خمسة سلالم من حجارة منحوتة اثنان منها في الدركاه . فالاول منها عن

---

٣) هدم هذا المسجد لما بُني سوق المال ، فبنى آل مردم بدلاً منه جامعاً في شارع بغداد سنة ١٣٥٥هـ. انظر وصفه في ذيل ثمار المقاصد لطلس (مط المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٣)ص٢٤٦

يمين الداخل ، والثاني عن يساره ، والثالث من جهة الشرق والرابع من جهة الشمال والخامس في القرنة خلف اليمن المبنيّة على صفة البركة . ويتوصّل من السلالم الى رواقات اربعة مسقوفة بالقبب المبنيّة بالآجر والمون ، ومبلط ارض الرواقات بالبلاط اللاطون ، وبها مخازن برّانية وجوّانية عليه . وعدّة المخازن العلوية مائة مخزن وخمسة عشر مخزناً ، ومن جملتها مكان قبلي راكب على دركاه باب الخان مشتمل على داخل وفناء وابواب واوجاق وشباكين مطلّين على السوق الآتي ذكره فيه مسقف بقبتين كبيرتين مبنيّتين بالآجر والمون ، وبالعلو المذكور اربع ميضآت ثنتان شرقيتان والثالثة شالية والرابعة غربيّة مشتملات على مرتفعات مسقوفات بقبو من حجارة ومون . وجميع اخباث المرتفقات واوساخ الخان وفائض مائه ومساقط مياه ميازيبه وبلاليمه تنحدر الى سرابات محفورة تحت ارض الخان ساقطة على النهر الجاري تحت ارض الخان المتصل الى نهر بردى ينصبّ ذلك فيه . وللخان المذكور حق من الماء من نهر ثورا من ماصبة امير المؤمنين المستمد من الصالحية في طريق سلطاني الى بستان ياسمين بيد مصطفى بك الحاني . وينقسم الماء نصفين : النصف الواحد يختص بمصطفى بك المذكور ومن يشركه والنصف الثاني الى الخان الجديد المذكور وهو احدى عشر اصبعاً بالذراع النجاري يختص به . والباقي يقسم بين أربابه على قدر استحقاقهم . وللخان المذكور ايضاً ماء يصل اليه من فائض عين علي ويستمر ممتدًا الى السبيل بسوق الصيرفيين الذي جدد عمارته مولانا الباشا الواقف المومأ اليه بالطريق الشرعي .

وذرع الخان المذكور من الجانب القبلي شرقاً بغرب : مائة وتسعة وعشرون ذراعاً ، ومن الجانب الشمالي شرقاً بغرب الى زاوية زين العابدين : سبعة وثمانون ذراعاً . ويميل الى جانب القبلة ستة عشر ذراعاً . ويمتد الى جانب الغرب : الى تسعة وتسعين ذراعاً . ومن الجانب الغربي قبلة بشمال مائة وعشرين ذراعاً .

ويحدّ الخان المذكور بجميع اشتمالاته واوصافه وتوابعه ومضافاته بتمامه وكماله من القبلة : دار ابن شويشان ومقدّم السقايين وتمامه السوق الآتي ذكره فيه، وفيه الباب المختص بالخان الذي يغلق عليه ، ومن الشرق : جامع الحلبي ، والجنينات ، وضريح سيدي الشيخ احمد سبع المجاهدين ، ومن الشمال ساحة وبيوت مستجدة بيد اربابها وتمامه الحوانيت والفرن إنشاء حضرة الباشا المومأ اليه ، ومن الغرب بيت ناصر الدين الصيرفي والطريق الآخذ الى دار البطيخ كانت والى عين علي وغيرها ، بجملة حدوده وعامّة حقوقه وتوابعه ولواحقه المشروحة فيها والخارجة عنها بحيث لا مدخل لاحد فيه بل هو وقف صرف من اصول الاوقاف . اه .

(كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ص ٦٢-٦٦)

طبع بتحقيق الاستاذ خليل مردم بك بدمشق

سنة ١٩٢٥

٨ – خان بمصطبة الخضر

« وجميع الحصة الشائعة وقدرها النصف والسدس وهي الثلثان ستة عشر قيراطاً من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع الخان الكائن ظاهر دمشق المحروسة خارج باب الفرج بمحلة مصطبة الخضر المعروف قديماً بسوق الشيخي[١] ، المشتمل كامله على باب كبير من الحجارة المنحوتة يدخل منه في درکاه مشتملة على ست قناطر ، ثم يدخل منه الى مكان سفلي مشتمل على بابكتين متقابلتين كل بابكة منها تشتمل على سبع قناطر حجارة وبجانبيه عضادتان من حجارة من الجانب الشرقي والغربي بقوسين من حجارة وخمس قناطر اخرى من حجارة . وبصدر المكان المذكور عشرة مخازن اثنان بجانب العضادتين المذكورتين ، والعلوي يشتمل على ستة عشر مخزناً وطبقتين وطبقة ثالثة علو الدركاه المذكورة بروشنين بارز يطل على الطريق . ولكل من ذلك داخل وفناء وأغلاق وطرق ومنافع ومرافق وحقوق شرعية ، ولذلك معلوم من الماء المختص به ، ويصعد الى الطبقة الراكبة على الباب بسلّم حجارة من الشارع الاعظم ولذلك منافع ومرافق وطرق وحقوق شرعية وحدود أربعة : من القبلة الحوانيت المستخرجة من الجدار القبلي وفيه ابواب ذلك . ومن الشرق خان ازبك الاتابكي ، ومن الشآم الطريق ، ومن الغرب خان الليمون . »

(كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، ص ١٤٩ – ١٥٠)

٩ – خان مراد باشا[١] « البزستان »

« فأما وقفه الجديد ، فهو جميع البزازستان الراسخ البنيان ، الشامخ الاركان ، الواقع باطن دمشق المحروسة بسوق باب البريد المعزى المنسوب الى الواقف الواقف والوزير المطهر العارف، المشتمل على ثلاثة وخمسين دكاناً كباراً معقود على رأس كل منها قوس من الحجارة بقبو معقود بأتقن الصناعة تشييداً واحجاراً وثمانية دكاكين صغار على أحسن هيآت واحكم أطوار . يعلو بعض الدكاكين مخازن (١٧آ) ليحفظ التاجر فيها نفائس الاموال ويختزن عدتها أربعون مخزناً يصعد الى كل منها بسلم خشب رصين من داخل دكان تخص المخزن بما يصعد على التعيين ، وعلى خزينة كبيرة داخل دكان عينت لشيخ البزازين يعلوها خزينة أخرى يصعد اليها من الخزينة التحتانية بسلم متين . وهذه الدكاكين والمخازن في الاضلاع الاربعة من البزازستان الذي وسطه ساحة مبلطة فيها بركة لطيفة يفور منها ماء زلال يحاكي السلسال ، مبلط ما حولها يجري اليها الماء من نهر القنوات (١٧ب) بحق

(خرم مقدار صفحتين)

---

١) احترق هذا السوق سنة ١٩٠٣م. بما فيه جميعه ، ولم يؤخذ منه شيء (اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى . لابن طولون . مخطوط مصوّر في خزانة المجمع العلمي بدمشق) . والشيخي نسبة الى المؤيد شيخ .

١) احد ولاة دمشق زمن الاتراك . انظر ترجمته في المحبي .

... الدكاكين الغربية بخزنان ، فالاول علو الدكان والثاني علو الباب الغربي وفي الجانب القبلي من الباب الغربي دكانان صغيرتان. هذا ما اشتمل عليه من الدكاكين والمخازن على التفصيل والبيان. واما ما حواه من البناء المشيد والقباب الرفيع الشان فهو مشتمل على تسع قباب تناغي قباب الافلاك وتضاهي فيه النسر وسمك الاماك ، سبع منها قباب كبار في كل واحدة منها قائمة فيها شباك حديد ، وقمارى من زجاج صاف جديد . وعدة الشبابيك اثنا عشر شباكاً يحسبها (١٨ آ) الوهم بروجاً وأفلاكاً وعدة القمارى اثنا عشر كذلك يضيء منها كل مظلم حالك كل شباك وقمارى ذات سناء وسنا على احسن اسلوب وبنا والاثنتان من القباب صغيرتان في كل منها ثلاثة شبابيك من حديد مطلة الى داخل البرزستان الجديد وبها قمريات من زجاج شفاف صاف لدخول الضيا ووصول السنا كافل كاف . وهذه القباب مبنيّة من الجهات الاربع على أتراس تحتوي على بدايع الصنائع مستحكمة الاساس . بين كل (١٨ ب) ترس من الحجارة المنحوتة بيض وسود يبهج البصر ويسر الناظر عند الشهود أبيضها أغر وابلج وأسودها كسواد الدعج متساوي المقدار متوازن الاجرام مهتم في ترتيبه وتركيبه غاية الاهتمام حجرها الاسود من الابيض ممتاز ، مرتب موضوع على هنداز كستها البلقة حسناً زايداً وأعطاها اللونان رونقاً متزايداً وعدة الاتراس عشرون ترساً محكمة الاساس . والاتراس على قسيّ من الحجارة كبار مبنية بالاحجار المعظمة المنحوتة المستوية (١٩ آ) المقدار طول كل حجر منها ذراع وثلث ذراع مصنوعة على أزين اسلوب وأحسن إبداع عدتها ثمانية قياس على احكم صنايع الهندسة وأتقن قياس كل قوس منها في الرفعة والسنا يحكي نصف دائرة الفلك وقوس السما وتحت الاقواس الثمانية الحاملة للقباب خمس عشرة عضادة مشيدة مؤسسة بأيدي النعمة المجيدة مؤيدة وفي الجوانب الاربعة من الدكاكين الموسومة والمتاجر الموصوفة المعلومة إحدى (١٩ ب) وأربعون عضادة صغيرة مبنيّة باحجار الهنداز الكبيرة منحوتة مسوية فاصلة بين الدكاكين المحكية المروية . وهذه القباب والمخازن والدكاكين الجامعة ... ... من الخارج ... ... بالشيد والقنب و ... ... إحكامها عن الوصف . وساحته اللاطيفة المحاطة بالدكاكين من الجوانب الاربعة وباحته النظيفة التامة مسطحة مدقوقة بالمدسة المعمولة بالقصرمل والكلس (٢٠ آ) كالصحيفة الملسا ، لا يكاد يوجد التفاوت فيها وهماً ولاحساً دُحيت على احسن الوجوه طريقة وسمتا ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ، ما خلا حول البركة بجبوحة الساحة فإنه ... ... المنحوت الابيض ... ... من غر القنوات ... ... اصبع واحدة ونصف اصبع في دائرة متقورة في حجر مبني بحافة النهر المذكور شماليه ملاصقة للناصية النازل ماؤها الى الطالع القايم البناء تجاه الدار المنسوبة قديماً الى ابن الجوهري ثم الى يوسف (٢٠ ب) يا يا باشي الكائنة باطن دمشق المحروسة بمحلة الشيخ عامود(١ المعروف بطالع تبرك ثم

---

١) جاء في إعلام الورى لابن طولون في حوادث سنة ٩١٥ ما يلي : « وفي هذه السنة بنى النائب مكاناً قبلي دار السعادة والمدرسة المذراوية وغربي المدرسة الصارمية وشمالي حارة

الطالع الملاصق لحمام مراد باشا القديم قريباً من المسجد ثم الى الطالع في دار أحمد باشا ثم الى الطالع القديم بالزقاق النافذ الى محلة الملك السعيد المرحوم نور الدين الشهيد الملاصق بقاسارية الحرمين الشريفين المعروفة بموسى القطان ثم الى البركة. وللبزستان المذكور اربعة ابواب مصاريعها مكسوة بصفايح الحديد بمسامير غلاظ صلاب لا يعتريها وهن ولا انقلاب مدى الدهور والاحقاب (٣١آ) مسلسلة بسلسلة معرضة لمنع الدواب يفتح الواحد منها الى سوق درويش باشا وهو شرقي الابواب في غاية ما يكون من بدايع الصنائع والكتابة الحسنة والاسلوب الرائع من صفاء المرمر وبهجة الحجر الاصفر والازهر، والاثنان غربيان ينتحان الى زقاق ثم الواصل الى الدرب السالك الى نور الدين الشهيد عليه رحمة الملك الحميد المجيد والرابع شمالي يتوصل منه إلى الوقف القديم للواقف الكريم وهو البزاستان السابق المحول إلى سوق السباهية على (٣١ب) أحسن هيآت وأمتن بنية. وفي صنف دكاكينه المسطوره أعلى السطور درابزين رزين من الخشب المنجور، ولكل دكان أغلاق ورفوف كلها بالمتانة والنظافة موصوف لوضع الامتعة والاقمشة الشريفة وتعليق الاقبية والاكسية اللطيفة وفي الغرب من الباب الغربي في الدهليز القديم المتوصل منه الى البزاستان العتيق ستة دكاكين مقبية بالقبو الرصين لكل واحد منها حجر متين منها الواحدة قبلية والخمس الباقية شمالية على (٣٢آ) كل واحد أغلاق من الخشب المتين الطيبة الاعراق. وفي ظاهر جدار البزستان الجديد من الخارج تسعة دكاكين بقبي حجارة معقودة بالحجارة المنحوتة يعلوها رفراف مبني على املح أسلوب وأحسن أوصاف. وفي ظهر الدكاكين الغربية من الخارج باب يتوصل منه إلى سلم حجر يوصل منه إلى مخزن متقن به سلم حجارة يرتقي منه إلى طبقة علوية لسكن الحارس، في الليالي الحنادس، وفي الجانب الشمالي طبقة يصعد اليها من سلم حجر للسكن الثاني (٣٢ب) للحارس الثاني، وهو المنوط بالبزاستان الاول الآتي ذكره المنفصل. هذا بيان البزاستان. وأما حدوده المبينة ورسومه المعينة فمن القبلة ينتهي حده الى قاسارية المرحوم الخواجه موسى بن القطان وقف الحرمين الشريفين ومن الشرق الى سوق درويش باشا وفيه الباب وتمامه قاسارية الحرمين ودار القهوة وقف الحرمين المنسوب إيقافها الى المرحوم محمد آغا بن عبدالله رئيس المحضرين والى السيد اللاجوردي. ومن الشمال خان الحرمين الشريفين المنسوب إيقافه الى ابن القطان والسيد اللاجوردي المذكورين تمامه دار القهوة للحرمين ودهليز البزاستان القديم وفيه الباب الموصل اليه. ومن الغرب إلى الطريق الآخذ بزقاق ثم المذكور وفيه البابان على الوجه المسطور (٣٣ب).

(كتاب وقف مراد باشا على فقراء الحرمين الشريفين كتب بعد سنة ١٠١٦هـ. دار الكتب الظاهرية رقم: عام (٤٣١٧)).

النرباء وغربي المارستان النوري وجدد تجاهه قناة وبركة وساق اليها الماء، واشتهر بين الناس أن رجلاً من الجند اسمه ابو بكر بن شعبان الرجبي بالحيم حسن للنائب ذلك وأنه رأى في منامه بعض الصالحين يدعى سيدي أحمد عمود مدفون لصيق عمود في هذا المكان فأبرز القبر والعمود وكساهما».

١٠ — خان المنبري

«ومن ذلك جميع الخان الكائن بدمشق المحروسة المعروف بخان المنبري بخط سويقة صاروجا الدال على ملك المقام الشريف الواقف.

«وصفة ذلك بدلالة الاصل الرق المذكور أنه يشتمل على باب يدخل منه الى دركاه بها مخازن ، يغلق على كل منها باب ، وعلى ساحة ووسط وبركة يجري اليها الماء من نهر ثورة بحق واجب ، وعلى ثلاث بوائك يغلق على كل منها باب . مبنيات بمناطر حجارة وسقوف وأخشاب . وبها عشرة مخازن بدائر الخان المذكور بالسفل منه ، يغلق على كل منها باب . وبالسفل مرتفق يشتمل على اربعة بيوت يجري الى ذلك الماء من النهر المذكور . ثم يصعد الى علو ذلك من سلم حجرًا بالجانب الشرقي ، وسلم ثان بالجانب الغربي من الخان المذكور ويشتمل العلو على مخازن مستديرة علو البوائك والمخازن ، وتجاه المخازن مشاة بها درابزين مطل على وسط الخان . وبهذا العلو مرتفقان ، ومصارف مياه ذلك واجبات ترمي الى قناة الوسخ بحق واجب .

«ويحصر ذلك حدود أربعة : الحد القبلي ينتهي بعضه الى الطريق ، وفيه باب الخان المذكور وباقيه الى المسجد المعروف بساروجا وغيره . والحد الشمالي ينتهي بعضه الى الدار المعروفة بابن صبح وباقيه الى ملك يعرف بالسيفي أرغون شاه . والحد الشرقي ينتهي الى الطريق الآخذة الى حكر ابن صبح . والحد الغربي ينتهي الى ملك يعرف قديمًا بالشهابي احمد الدوادار بخدمة المقر المرحوم السيفي سودون .»

من حجة قايتباي ص ٥١ — ٥٣

نشرها ماير في لندن

عام ١٩٣٨

نشيد القيامة

للشاعر رومانس المرنم البيروتي

نقله عن اليونانية وعلّق عليه
الاب نقولاوس قادري ق.ب.

توطئة

يعد الاناشيد الساحرة لرومانس يُعدّ نشيد القيامة من اروع ما رسمت ريشته، وصور خياله الطليق، المثقل بالوحي الخصب، والموسيقى، والالوان، هو غني بالقوة والحياة والعمل المسرحي. فرومانس شاعر منطلق يتفلت من القصة والقيود الاخبارية، ليحلق في سماء العمل المسرحي، فيلبس نشيده حلة المأساة، ويطلق للاشخاص عنان الحوار على انقباض.

وهذا النشيد حيّ بحياة الشعر الصافي ملآن بالروعة الساحرة والحركة المتدفقة كأنها ينبوع ماء غزير ينساب في الغياض فيغدق الحياة بسخاء، حيّ بحياة الشعر الزاهر بالالوان والصور النفسية التي تملأ العقل وتحرك القلب، وهو حي يحيا من الم وبغض وحب يزيد في الجمال المسرحي وروعة الموضوع الرئيسي.

فهناك جمع من الاشخاص يتراكضون امام ابصارنا بمشاهد ونفسيات مختلفة متنوعة. ففي اعماق المشاهد يتراءى الكتبة والفريسيون، وجمع من اعداء يسوع كاليهود، وبيلاطس، والجنود الرومانيين لابسين الدروع والعُدد، وقائمين على حراسة الليل حول القبر. وهناك الملاك يسطع نورًا فيظهر بغتةً على الحجر وله منظر كمنظر البرق او الصاعقة.

وهناك النسوة الورعات يسرن الى الرمس في اول شمة النور قبل الفجر.

وهناك في افق المشهد البعيد، وفي مملكة الجحيم يتراءى الاجداد، فالآباء، فالابناء، فرجال الشريعة القديمة وكلهم ينتظرون مع الاب الاول والام الاولى ساعة يمشون.

وفي الوسط من المشاهد المسرحية مشهد جذاب تتوجه اليه الابصار بنوع

خاص مشهد رائع ومهيب شخص المأساة الرئيسي الميت الراقد الذي يروع ويبعث الذعر والرهبة في قلوب الاحياء. هو جثة هامدة بيضاء ولكنه بالسر وفي الليل يمر من سكون الموت الى الحياة القوية حياة اليقظة الكبرى.[١]

وبالقرب من الميت شخص آخر صامت ابكم ولكنه ملآن ايضاً من الاسرار هو الموت عينه، ينشر ظلاله وظلامه على المشهد الصامت الناطق فيحمل الى الكون الصريع انتصار الميت ويبشر الجحيم بهزيمة ذاته وانكساره الهائل.

فمن اول مشهد من المأساة الى آخر مشهد يحس القارئ بثورة العالم وغليان الاحياء حوال شخصين من الاموات اللذين في رهبة القبر وروعة الصمت ينتصبان للصراع كأنهما خصمان يريدان النزال والقتال. وفي هذه الاونة الرهيبة، وحوال هذين الخصمين المتبارزين في الرمس البارد الصامت، ينظر رومانس بعين الشاعر الحق، والخيال المبدع، والرسام الفنان، والنحات الدقيق، ينظر الى الصراع الاليم والمميت ينشأ ويتقوى وينمو حتى يصل الى قمة العارض المسرحي:

«كان جنود خارج الرمس،
وكان صراع بين المسيح والموت داخل الرمس،
فاز المسيح بقوة بالانتصار،
وفقد الموت القوة،
سلب المسيح الاموات الذين في الجحيم
وصرخ الموت للذين هم في الاعماق:
«إني غُلبت فاصرخوا: قام الرب!»[٢]

وهناك الوصف الدقيق يشعر القارئ انه امام مشهد من مشاهد الياذة هوميروس، او امام وصف القتال في رواية «السيد» للشاعر الافرنسي كورنايل.

تزعزعت الجحيم
وتحرك اهلها للفرار
فصرخ الحراس ما الساعة الان؟
هل مضى الليل

بكوا وضحكوا
حزنوا وفرحوا
ويل لنا! ويل لنا!
وحدث الواحد الاخر

١) Giuseppe Cammelli, *Romano Il Melode*, p. 366

٢) راجع المقطوعة الثالثة عشرة من النشيد.

فاستفاق سكان القبور ؟ » قائلًا: ان الامر لجيل
قام الرب !»[1]

غير ان المشهد والعمل المسرحي لا يسمحان بجوار طويل او بوصف مسهب متتابع ، فهو اذن ، بضرورة الامر ، متقطع يلازم احوال واوقات المأساة المختلفة وانما يزيد في الشعور النفسي والعواطف التي تسيطر على مخيلة الانسان واحساساته.

وقد يتلاقى فكتور هوغو ورومانس في مواقف مؤثرة كما في المقطوعة السابعة عشرة من النشيد فهنا الشاعر رومانس يُعطي الكلام لجندي نائم يحلم بالحقيقة :

لا احد في الداخل
وهنا واحد على الحجر ،
ايتراءى ام يخيل لي اني اراه ؟
ايخدعني الليل بسرعة ؟

فيجاوبه جندي آخر ويهدىء من وحشته وذعره :

« أيها العزيز ، الليل يخدعك
فانحدر الينا ونم معنا
هو الروح يتخيل لك .
فاصمت ونم . »

وفي رواية هرناني للشاعر الافرنسي فيكتور هوغو مشهد يقرب من هذا اذ يقف كارلس الخامس على ضريح كارلس الكبير ويخاطبه.

رومانس مؤمن وايمانه حي عامل فصوّر هذا الايمان بتلك الفقرات الصغيرة التي لقنها للشعب وعلمهم ان ينشدوا معاً بايمانهم تلك اللازمة الحيوية : « قام الرب !» فهي صرخة الاجيال السحيقة تتردد في مسمع البرايا فينصت اليها الخلود.

صوّر رومانس تلك الساعة الرهيبة من تراث الخلود ساعة قام المسيح بعد ان نفض عنه غبار الموت كأنما ينفض ثوباً بالياً. وطحن حجر الضريح كقشرة بيضة العصفور ، وابان قوة جناحيه وفتح هـذا الاسد الرابض بسلام ، فتح عرينه بعد ان صرع الموت عدوّه وخصمه ، فتح قـبره بذاته ، فتحة كشقي انسان افلتت منه الحياة عن بسمة اله.

١) راجع المقطوعة الرابعة عشرة من النشيد

ويحلق رومانس كالنسر في سماء الشعر الصافي فيخلق اجواء فسيحة من المسرحيات العالمية كما في المقطوعات الرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، والسابعة عشرة وكلها حركة وحياة ونور وايحاء وقوة كأنها انشودة بلبل طروب يغني على اكمام الزهر في الربيع ، والطير ساعات سكر وترنح ، ولا سيما في مطالع الفجر ، حينما تسبق الطيورُ الشمس فتروح تقبل بتلات الزهر وتطبع على اكمامها قبلات الغنج والايناس.

هكذا رومانس كالبلبل الغرّيد يطرب ويصفق باجنحة الخيال ويغني بموسيقى الشعر ، يغني في منبلج الفجر الجديد فجر القيامة . فيستقبل شمس الحياة بانغام الحياة وانوار الحياة :

« انه لرهيب
يحمل النور
يوزع النور
هو النور
انه حقاً ابن النور . »

وينشد الحياة النيّرة ، الحياة واثبة من الضريح كعصفور خرج من بيضته بعد ان كسرها وطحنها . ويحس رومانس بالمسيح الميت يحيا وينفذ من القبر بعد ان يكون قد ترك للقبر اختامه كما خرج عند مولده من بطن امه البتول وكان قد ترك للبتول « اختام البتولية سالمة . » .

هذا النشيد على روعته وجماله الساحر يُعد بكل حق وجدارة مغناة لا ينقصها الا الاصوات البشرية حتى تتغنى بها وتشيد بانتصار المسيح الظافر الذي وحده تغلب على الموت وصرعه وقتله بموته ،فاذا به يعود من القبر حياً بعد ان داس الموت وابطل قوته وطحن ابواب الجحيم التي تزل اليها ، فاذا به يعود الى الحياة و« يتبعه آدم وتلحق به حواء » واذا بقبر المسيح يغدو « مذخر الحياة » « ومجد العالم » « ومستودع السلام » بينما ان قبورنا نحن البشر قد اصبحت نسياً منسياً الى منتهى الزمن وعلى الرغم من ان نفوسنا قد تفلتت من القبور فاجسادنا تسقط في الاجداث وتعود الى التراب ويبيد ذكرنا وينسى اسمنا مع الدوي . واما قبر المسيح الناهض فليس هو سوى ممر يخفر فيه رواق ينتهي بقوس نصر عظيم .

نشيد القيامة (١

للشاعر رومانس المرنم

ايها المسيح الاله ، بآلامك ،
بقيامتك من الأموات نبتهج معيّدين
ابتلع الموتُ في الصراع . على الدوام ،
ولذا نحن ، المفتخرين ونفرح هاتفين :
قام الرب !

١

ان شعب الآثمين حرّاساً على قبر
أسلم قديماً مَن يحمل الجميع
الحياةَ للقبر ، باشارة .
والالهَ للموت ، يا لجهل الآثمين !
وسابيَ الجحيم للجحيم ، اذا كان ميتاً
ومعطيَ الخلود فلا تخف .
للمائتين كمائت ، واذا كان حيّاً
ومحيي الاموات فتوسل
بكلمة كميت . واصرخ معنا :
وضع الآثمون قام الرب !

(١ Giuseppe Cammelli, *Romano Il Melode*, Inni, pp 370-386. Edizioni « *Testi Christiani* », 1930.

٢

أزل يوسفُ عن الصليب
المخلصَ، وإله يوسف
الذي خلص يوسف
قديماً من الُجب[1].
حفظه الحرّاس
كميت منظورًا ،
ولكنه امات الحراس
من الخوف ،
وهو غير منظور .
حجر كان على الرمس[2]،
وصخرةٌ كانت
داخل الرمس[3]،
فاحجارًا اصبح الحراس
حين أبصروا الملاك
جالساً على الحجر[4]
وقائلًا للنسوة :
قام الرب !

٣

ان القضاة الآثمين
اثبتوا بافكار شريرة
وقالوا :
« هاهو طريح الى الارض ،
مَن زعزع الارض ،
عنه يتحدث الجميع ،
وعنه يتكلم الكل:
ان الذي ذهلت
الارض كلها
من اعماله
قد مات!
لنسهر اذن
لئلا تغدو الاواخر
شراً من الاوائل .
لنسهر لئلا يسرق
التلاميذ جسده
ويكذبوا، مبشرين الجميع:
قام الرب !

---

١) التكوين ٣٧:٢٨ ، وسفر الحكمة ١٠:١٣
٢) متى ٢٧:٦٠
٣) راجع رسالة بولس ١ كورنثس ١٠:١-٥
٤) متى ٢٨:٢

٤

لنسأل الآن
بيلاطس حراساً
فيعطينا حراساً .
ان يسوع هائل
حياً كان او ميتاً !
ففي حياته،
حلّ شريعة السبت،
واذا قام من الاموات،
فتزول الشريعة.
يرجى،
وهو طريحٌ مائت.
ينتظر حياً،
وهو مقيّد.
وبعد ثلاثة ايام،
قال تلاميذه كلهم:
اننا عندما
رأينا المعلم،
قلنا :
قام الرب ! »

٥

« يا بيلاطس، اخبرنا بجلاء،
فنحن، أبناء الوطن
والغرباء،
نلتجئ اليك،
فأرشدنا .
بك فلتحفظ حقوق الامة .
نحن نطلب ان لا يحلّ
المائت شريعة الله . »
لِمَ تتجاهلون
ايها الآثمون ؟
اتيقيمون بيلاطس
رقيباً على الشريعة ؟
كم المسيحُ
يفضل بيلاطسَ !
فالمسيح هو الذي
ثبت الشريعة،
والمسيح هو الذي
اعطى النعمة
للصارخين :
قام الرب !

٦

هذا كلامه لاحبائه :
« اني سأقوم
بعد ثلاثة ايام
وانا ، اذا مت ،
سأدوس الموت .»
نحن لسنا نخاف
وقوع هذا الامر ،
ولكننا نظن
ان سيسرقه البعض.
انه لن يقوم ؛
فنحن بهذا عالمون ،
ومع ذلك ،
لسنا بمرتاحين
من هذا القبيل .
فالروح اذا خرجت
لن تعود
الا بأمر الله .
اما اذا كان
هذا الهاً
فلنقل :

قام الرب !

٧

سمع بيلاطس
بهذا فاجابهم :
« ان كلامكم
لموعب هزؤا .
من يسرق ميتاً ؟
وما المنفعة من ميت ؟
ان المحبُ يحبُ الحبيب
حتى اللحد ؛
ولا فائدة
ان يظهر له الحب
بعد ان صار في اللحد .
فالمائت راقد
لا يبدي حراكاً .
فما الفائدة لكم
من راقد؟ »
الا دعوا المائت
ايها الدافنون ،
فلن يسرق .
ولكن ، اذا ما قام ،
فاصرخوا :

قام الرب !

٨

انا جلدته ،
وانتم صلبتموه ،
ويوسف وضعه
في الحفير .
انه لميتٌ !
انه لجثة هامدة !
عندما مات ،
نظر اليه الجميع .
فاذا قام من الرمس ،
ينظر اليه الجميع .
تقولون انتم
انهم سرقوه ،
وهم يقولون
انه قام !
لِمَ التعامي اذن ؟
نحن نؤمن بما رأينا
ولذا نقول :
قام الرب !

٩

يتراءى لي
ان كل واحد يذيع :
إما انه سُرق ،
وإما انه قام ،
فهذا غير اكيد ،
وذاك محال .
ولكن اذا كان هذا
يجديكم الان نفعاً
فخذوا الان حراساً
وليحفظوا الرمس .
ولكن احذروا
الا يقول الحراس
مخدوعين ثانية :
كان هذا ابن الله حقاً [١]
واحذروا الا يصرخوا
وفيما هو في الرمس
كما صرخوا قبلاً
وهو على الصليب :
قام الرب !

---

١) متى ٢٧ : ٥٤

١١

هكذا قال لهم
بيلاطس :
« عندكم حراس[١]
فاذهبوا واعملوا
ما يجديكم الان نفعاً . »
حينئذٍ قال الآثمون للجنود :
لا تعطوا الآن
اجفانكم نعاساً
وتجلّدوا .
احتملوا ساهرين قليلاً
الى ان يحسب
يسوع ميتاً .
يا بيلاطس ،
اغسل الآن روحك ،
كما غسلت قبلاً يديك
وقل : « اني بريء . »[٢]
أبغتة تروعك الآن
رؤيا امرأة[٣] ؟
اذن ماذا تصنع
حين تسمع
السماويين
والأرضيين
يصوتون
بعد القيامة :
قام الرب ؟
واذا كنتم
تريدون ان تتمموا
ارادة بيلاطس ،
فاصنعوا هذا
فيغدو تعبكم
لكم ربحاً
ولنا مجداً ،
لانه بعد
فساد الجسد بجلاء .
لا احد يجسر على القول :
قام الرب !

١) متى ٢٧ : ٦٥ ٢) متى ٢٧ : ٢٤ ٣) متى ٢٧ : ١٩

١٢

لا تعتقدوا الآن
بأن الامر سوف يبقى
بلا ربح لكم .
اننا نريد مكافأتكم
على اتعابكم .
لقد اعطى اليهودُ
يهوذا ثلاثين ديناراً ؛
واما أنتم فتأخذون
ضعف الثلاثين .
هذا ما نقوله لكم :
ان يسوع لهائل
حياً كان او ميتاً ؛
لا نتعبن باطلًا
فلن تأخذوا
منا ذهباً ،
اذا بقي المسيح
بالرغم منا ؛
وبقي القائلون :
قام الرب !

١٣

تحرك الجنود
برأي الآثمين الباطل ،
وذهبوا الى الرمس .
فالجند كانوا يحرسون
المسيح الملك .
لقد كان جنود
خارج الرمس ،
وكان صراع
بين المسيح والموت
داخل الرمس .
فاز المسيح
بقوة بالانتصار ،
وفقد الموتُ القوة .
سلب المسيحُ الاموات
الذين في الجحيم ،
وصرخ الموت
للذين هم في الاعماق
اني غُلبتُ فاصرخوا :
قام الرب !

١٤

هكذا غاب الموت[١]
فتزعزعت الجحيم ،
وتحرك أهلها للفرار ،
فصرخ الحراس :
ما الساعة الآن ؟
هل مضى الليل
فاستفاق سكان القبور ؟
لقد تبلبلوا
ثانيةً وثالثةً
في راحتهم ،
بكوا وضحكوا ،
حزنوا وفرحوا ،
وهتف الواحد
نحو الآخر :
ويل لنا ! ويل لنا !
وحدّث الواحد
الآخر قائلاً :
ان الامر لجميل :
قام الرب !

١٥

ترعزعت الارض
بالخوف الشديد ،
وارتفع الحجر عن الرمس.[٢]
هل الرجل الذي
نحن نحرسه
والذي ، وهو على الصليب ،
تخوّف منه الآثمون ،
هل قام الآن
وانهض معه آدم ؟
ها هو الآن
يكسر الصخور ،[٣]
ها هو الآن
يزعزع الحجر ،
هو هو نفسه
كما كان قبلاً
لقد مزّق الحجاب[٤]
وفتح الرمس ،
وبينما كنا نائمين
قام الرب !

١) هنا يتلاقى الشاعر كورنايل مع رومانوس في وصف القتال
Corneille : Le Cid , III 3

٢) متى ٢٨:٢ ٣) متى ٢٧:٥١ ٤) متى ٢٧:٥١

١٦

لننهض الآن ، يا احبائي
ولنفتش ،
ولننظر القبر !
ان الحجر نقل
بالزلزلة حقاً .
فاذا كانت الجثة
بعدُ في الرمس
فلنصمت !
واما اذا كان الميت
قد اختفى
فلنبكِ
مع سكان الجحيم !
بكى الموت ،
وانتحبت الجحيم ،
عندما فتشنا معاً .
من قال الويل ؟
ومن صرخ
ان الامر لجميل
واصوات من تقول :
قام الرب ؟

١٧

لا أحد في الداخل !
وها واحد على الحجر !
أيتراءى
ام يخيّل لي
اني اراه ؟
ايخدعني الليل
بسرعة ؟
— ايها العزيز ،
الليل يخدعك
فانحدر الينا
ونم معنا !
هو الروح يتخيل لك .
فاصمت ونم !
— او بالحري لنسهر الآن
ولننتبه الى هنا وهناك ،
لئلا يترصد احد نومنا
ويأتي فيسرقه .
- من يستطيع ان يهدى
هؤلاء الصارخين :
قام الرب !

١٨

اجل قد تناهى الليل ،
أجل قد تناهى .
وما نطقت به
كان حقاً ، يا عزيزي .
ومن كان ميتاً
هو الآن حي يُرى ..
ها هو يزعزع
الحجر في الداخل .
ها هو يهتف بنا
بهذه الكلمات :
انه لرهيب ،
يحمل النور
يوزع النور ،
هو النور ،
انه حقاً ابن النور ؛
وخادم النور ،
وهذه هي الكلمات
التي قالها للنسوة :
قام الرب !

١٩

هذه خسارتهم ،
وهذا ربحنا ،
لاولئك كان جرحاً ،
ولنا حياة ،
لانه بالحقيقة
قام الرب !
وان يكن الحافظون
للقبر
قد اخذوا فضة ،
ليصمتوا مكرهين[1]
فالحجارة تصرخ :
« ان الحجر رفع
بدون يدين ،
فقد قُدّ من جبل .
فكما خرج
قديماً من الحشا
هكذا خرج الآن
من الرمس
وقام الرب ! »

---

١) متى ٢٨ : ١٢ و١٣

٢٠

انت ، يا مخلص ،	والد يوسف ،
أتيت من الحشا	فأتى آدم
بدون زرع ،	يلحق بك
وتركت للبتول	وتبعتك حواء ،
اختام البتولية ،	فخدمت حواء مريم .
كما تركت اليوم للقبر	فكل الارض
اختام القبر .	تسجد لك
تركت للحفير	مرغمة الك
سباني يوسف ،	نشيد الانتصار :
واخذت من الحفير	قام الرب !

قيامة المسيح

بحث تاريخي

بقلم الخوراسقف الياس الزيناتي

وقد تضاربت اقوال علماء الكنيسة في التوفيق بين مختلف ظروف الزمان والمكان التي رافقت قيامة سيدنا يسوع المسيح من الموت على ما ذكرها الانجيليون، وان اتفقوا جميعهم دون استثناء على حقيقة وقوع القيامة، كما قد حاول اعداء ديانتنا انكار وقوع حادث القيامة بسبب تناقض ظاهري في ظروف هذا الحادث الخطير بل الوحيد في نوعه، على ان هذا التناقض او بالاحرى هذا عدم الائتلاف الكامل بين هذه الظروف، على الرغم من الصعوبات التي تقوم في وجهه، لا يتجاوز حدود الشكل الظاهر ولا يرتكز في واقع الحال على اساس صحيح . ومن تمعّن في قراءة الاناجيل الاربعة بروية وايمان تجلى له وجه الحقيقة على ما هي في ذاتها .

وما غايتنا من المقال الحاضر الردّ على خصوم الدين وتفنيد مزاعمهم الباطلة بشأن قيامة السيد له المجد من بين الاموات . فهذه قضية قد تبلج نورها كالشمس في رابعة النهار . وقد كتب فيها العلماء والآباء القديسون المقالات المسهبة واجلوا غوامضها باصدق البراهين واقواها بحيث لم يتركوا ثلمة الّا سدّوها دون ان يدعوا زيادة لمستزيد في هذا المعنى . بل انما القصد ان نذلّل ما يعترض من الصعوبات الظاهرة في سبيل سياق الحوادث التي سبقت ورافقت ولحقت حادثة القيامة نفسها . ونجعل من شتيت الاخبار قصةً واحدةً بعينها متناسقة التركيب متماسكة الاطراف . وقد كثرت ولا بأس المحاولات قبلنا للجمع بين هذه النصوص ولكل منها قيمتها

وروّادها (١) فاتينا نحن ايضاً بمحاولتنا هذه ربما تروق لاهل العلم وتعين على ازالة بعض الغوامض ٠

وهذه هي روايات الاناجيل الاربعة لحادث القيامة :

انجيل القديس متى الفصل ٢٨

« ١ وفي غلس السبت المسفر عن اول الاسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الاخرى لتنظرا القبر ٠ ٢ واذا زلزلة عظيمة قد حدثت لان ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس فوقه ٠ ٣ وكان منظره كالبرق ولباسه ابيض كالثلج ٤ ومن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كالاموات ٠ ٥ فاجاب الملاك وقال للنسوة لا تخفنَ انتنَّ ٠ قد علمتُ انكنَّ تطلبن يسوع المصلوب ٠ ٦ انه ليس ههنا فانه قد قام كما قال ٠ تعالينَ وانظرنَ الى المكان الذي كان مضجعاً فيه الرب ٧ وأسرعنَ واذهبنَ وقلنَ لتلاميذه انه قد قام وهو يسبقكم الى الجليل وهناك ترونه ٠ ها انا قد قلت لكنَّ ٠ ٨ فخرجنَ مسرعات من القبر بخوف وفرح عظيم وبادرنَ ليخبرنَ تلاميذه ٠ ٩ فاذا يسوع لاقاهنَّ وقال سلام لكنَّ ٠ فدنونَ وامسكنَ قدميه وسجدنَ له ٠ ١٠ وحينئذ قال لهنَّ يسوع لا تخفنَ ٠ اذهبنَ وقلنَ لاخوتي ليذهبوا الى الجليل وهناك يرونني ٠»

انجيل القديس مرقس الفصل ١٦

«١ ولما انقضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم ام يعقوب وسالومة حنوطاً ليأتينَ ويحنطن يسوع ٠ ٢ وبكرنَ جداً في اول الاسبوع واتينَ القبر وقد طلعت الشمس ٣ وكنَّ يقلنَ فيما بينهنَّ من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر ٠ ٤ وتطلعن فرأينَ الحجر قد دُحرج وكان عظيماً جداً ٠ ٥ فلما دخلنَ القبر رأينَ شاباً جالساً عن اليمين عليه لباس ابيض فانذهلن ٠ ٦ فقال لهنَّ لا تنذهلنَ انكنَّ تطلبنَ يسوع الناصري المصلوب انه قد قام وليس هو ههنا وهوذا المكان الذي وضعوه فيه ٧ فاذهبنَ وقلنَ

(١) راجع خاصة: Lagrange, *L'Evangile de N. S. Jésus-Christ*. Paris, Gabalda: 1936, pp. 582 sqq. Prat, *Jésus-Christ*. Paris, Beauchesne 1933 pp. 433 sqq.

لتلاميذه ولبطرس انه يسبقكم الى الجليل وهناك ترونه كما قال لكم.
٨ فخرجنَ من القبر وفررنَ وقد اخذتهنّ الرعدة والدهش ولم يقلنَ لاحد شيئاً
لانهنّ كنّ خائفات ٩ وبعد ما قام باكرًا في اول الاسبوع ترآءى اولا
لمريم المجدلية التي كان قد اخرج منها سبعة شياطين ١٠ فانطلقت واخبرت الذين
كانوا معه وهم ينوحون ويبكون. ١١ وهم اذ سمعوا بانه حي وانها ابصرته
لم يصدقوا. ١٢ وبعد ذلك ترآءى بهيئة اخرى لاثنين منهم وهما يسيران
منطلقين الى البرية ١٣ فذهب هذان واخبرا الباقين فلم يصدقوا ولا هذين.
١٤ اخيرًا ترآءى للاحد عشر وهم متكئون وبكتهم لعدم ايمانهم وقساوة
قلوبهم لانهم لم يصدقوا الذين رأوه قد قام.»

انجيل القديس لوقا الفصل ٢٤

« ١ وفي اول الاسبوع باكرًا جدًا اتين الى القبر وهنّ يحملنَ الحنوط
الذي اعددنه ٢ فوجدنَ الحجر قد دُحرج عن القبر. ٣ فدخلنَ فلم يجدنَ
جسد الرب يسوع. ٤ وبينما هنّ متحيرات في ذلك اذا برجلين قد وقفا
عندهنّ بلباس برّاق ٥ واذ كنّ خائفات ونكسنَ وجوههنّ الى الارض
قالا لهنّ لماذا تطلبنَ الحي بين الاموات. ٦ انه ليس ههنا لكنه قد قام.
اذكرنَ كيف كلمكنّ وهو في الجليل ٧ اذ قال انه ينبغي لابن البشر
ان يُسلَّم الى ايدي اناس خطأة ويصلب ويقوم في اليوم الثالث. ٨ فذكرنَ
كلامه ٩ ورجعنَ من القبر واخبرنَ الاحد عشر وجميع الباقين بهذا كله.
١٠ ومريم المجدلية وحنة ومريم ام يعقوب واخر معهنّ هنّ اللواتي اخبرنَ
الرسل بهذا. ١١ فكان عندهم هذا الكلام كالهذيان ولم يصدقوهنّ. ١٢ فقام
بطرس واسرع الى القبر وتطلع فرأى الاكفان موضوعة على حدة فانصرف
متعجباً في نفسه مما كان. ١٣ وان اثنين منهم كانا سائرين في ذلك اليوم الى
قرية اسمها عماوس بعيدة عن اورشليم ستين غَلوة ١٤ وكانا يتحادثان عن
تلك الحوادث كلها. ١٥ وفيما هما يتحادثان ويتساءلان دنا منهما يسوع نفسه
وكان يسير معهما ١٦ ولكن امسكت اعينهما عن معرفته. ١٧ فقال لهما
ما هذا الكلام الذي تتحاوران فيه وانتما سائران مكتئبين. ١٨ فاجاب

واحد منهما اسمه كلاوبا أفأنت وحدك غريب في اورشليم ولم تعلم ما حدث
بها في هذه الايام . ١٩ فقال لهما وما هو . قالا له ما يخص يسوع الناصري
الذي كان رجلاً نبياً ذا قوة في العمل والقول امام الله والشعب كله
٢٠ وكيف اسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه. ٢١ ونحن
كنا نرجو انه هو المزمع ان يفدي اسرائيل ولكن مع هذا جميعه فاليوم هو
اليوم الثالث لحدوث ذلك . ٢٢ ألا ان نساء منا ادهشننا لانهنَّ بكرنَ الى
القبر ٢٣ فلم يجدنَ جسده فاتينَ وقلنَ انهنَّ رأينَ مظهر ملائكة قالوا انه
حي . ٢٤ فمضى قوم من الذين معنا الى القبر فوجدوا كما قالت النساء لكنهم
لم يروه . ٢٥ فقال لهما يا قليلي الفهم وبطيئي القلب في الايمان بكل ما
نطقت به الانبياء . ٢٦ أما كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام ثم يدخل
الى مجده . ٢٧ ثم اخذ يفسر لهم من موسى ومن جميع الانبياء ما يختص
به في الاسفار كلها . ٢٨ فلما اقتربوا من القرية التي كانا يقصدانها تظاهر
بانه منطلق الى مكان ابعد . ٢٩ فألزماه قائلين امكث معنا لان المساء
مقبل وقد مال النهار فدخل ليمكث معهما . ٣٠ ولما اتكأ معهما اخذ خبزاً
وبارك وكسر وناولهما . ٣١ فانفتحت اعينهما وعرفاه فغاب عنهما . ٣٢ فقال
احدهما للاخر أما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق
ويشرح لنا الكتب . ٣٣ وقاما في تلك الساعة ورجعا الى اورشليم فوجدا
الاحد عشر والذين معهم مجتمعين . ٣٤ وهم يقولون لقد قام الرب في الحقيقة
وتراءى لسمعان . ٣٥ فاخذا هما يخبران بما حدث في الطريق وكيف عرفاه
عند كسر الخبز . ٣٦ وبينما هم يتحدثون بهذه وقف يسوع في وسطهم
وقال لهم السلام لكم انا هو لا تخافوا .»

انجيل يوحنا الفصل ٢٠

« ١ وفي اول الاسبوع جاءت مريم المجدلية الى القبر في الغداة والظلام
باقٍ. فرأت الحجر مدحرجاً عن القبر . ٢ فاسرعت وجاءت الى سمعان بطرس
والى التلميذ الاخر الذي كان يسوع يحبه وقالت لهما قد اخذوا الرب من
القبر ولا نعلم اين وضعوه . ٣ فخرج بطرس والتلميذ الآخر واقبلا الى القبر.

٤ وكانا مسرعين معاً فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء الى القبر اولاً ٥
وانحنى فرأى الاكفان موضوعة لكنه لم يدخل . ٦ ثم جاء سمعان بطرس
يتبعه ودخل القبر فرأى الاكفان موضوعة ٧ والمنديل الذي كان على رأسه
غير موضوع مع الاكفان بل ملفوفاً في موضع على حدته . ٨ فحينئذ دخل
التلميذ الآخر الذي جاء اولاً الى القبر فرأى وآمن ٩ لانهم لم يكونوا
بعد يعرفون الكتاب انه ينبغي ان يقوم من بين الاموات . ١٠ وذهب
التلميذان الى موضعها . ١١ اما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي
وفيما هي تبكي انحنت الى القبر ١٢ فرأت ملاكين بثياب بيض جالسين
حيث وُضع جسد يسوع احدهما عند الرأس والآخر عند الرجلين ١٣ فقالا
لها يا امرأة لمَ تبكين . فقالت لهما انهم اخذوا ربي ولا اعلم اين وضعوه .
١٤ فلما قالت هذا التفتت الى خلفها فرأت يسوع واقفاً ولم تعلم انه يسوع . ١٥
فقال لها يسوع يا امرأة لمَ تبكين مَن تطلبين فظنت انه البستاني فقالت له يا
سيدي ان كنت انت حملته فقل لي اين وضعته وانا آخذه . ١٦ فقال لها
يسوع مريم . فالتفتت وقالت له رابوني الذي تفسيره يا معلم . ١٧ قال لها
يسوع لا تلمسيني لاني لم اصعد بعد الى ابي بل امضي الى اخوتي وقولي لهم
اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم . ١٨ فجاءت مريم المجدلية واخبرت
التلاميذ انها رأت الرب وانه قال لها هذا .»

***

فمن مطالعة هذه الروايات ومقابلتها مع بعضها ومن درس دقائقها درساً صحيحاً يتبين بجلاء امران نظن انه باشراق النور عليهما تنجلي غوامض الصعوبة التي قد طالما القت بعض الغشاوة على وجه الحقيقة الناصع في هذه القضية :

الاول : نظن بل نؤكد ان النساء المذكورات في روايات القيامة لم يكنَّ عارفات بختم القبر بامر الحكومة وبوجود الحراس عليه والا لما كنَّ اشترينَ الحنوط والاطياب وتجرأنَ على المجيء اليه قصد نزع الحجر عن بابه لتحنيط جسد يسوع . بل لما كان خطر ببالهنَّ ابداً ان يقدمنَ على عمل كبير كهذا يترتب عليه ما يترتب من عظم المسؤولية ويعود عليهنَّ باوخم العواقب كما هو

واضح وخصوصاً في تلك الظروف الحرجة الدقيقه التي وُجد فيها يومذاك اتباع يسوع الناصري.

وانه لامر طبيعيٌ جداً ان تكون هؤلاء النساء جاهلات ما جرى بعد دفن يسوع بين رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وبين بيلاطوس الحاكم بشأن ختم القبر بخاتم الحكومة واقامة الحراس عليه الى ان تنقضي الايام الثلاثة التي كان تنبأ المسيح انه ينبعث من الموت عقيب انقضائها. لانهنَّ على اثر دفن جسد السيد رجعنَ الى بيوتهنَّ باكيات حزينات لا يلوينَ على شيء. وبعد ان اشترينَ الحنوط والاطياب اللازمة للتحنيط قبل حلول السبت قررنَ مثل غيرهنَّ من اليهود على حسب الوصية كما ذكر القديس لوقا ولم يجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطوس بشأن ختم القبر وحراسته الّا في الغد الذي بعد التهيئة اي صباح السبت اذ كانت النسوة قارات في بيوتهنَّ عملاً بالناموس.

الثاني ان مريم المجدلية ومريم الاخرى التي هي ام يعقوب وام يوسى ذهبتا وحدهما في غلس السبت المسفر عن اول الاسبوع اي في سحر يوم الاحد باكراً «لتنظرا القبر» حسب رواية القديس متى. فنظن بل نرجح بل نؤكد ان ذهابهما على هذا الوجه وفي هذا الوقت كان للاستطلاع فقط. وهذا ما يعنيه الانجيلي بقوله: «لتنظرا القبر» اي لتريا ما اذا كان جدَّ شيءٌ على القبر من تعدٍ او تحقير او غير ذلك لانهما كانتا تعرفان بغض اليهود للمسيح حتى اذا وجدتاه صحيحاً سالماً تعودان عند طلوع الفجر مع رفيقاتها النساء الاخريات لتحنيط جسد يسوع. وبرهاننا على ذلك هو:

١ً: لم يذكر القديس متى كونهما حملتا معهما الحنوط لتحنيط جسد يسوع مع ان القديس مرقس والقديس لوقا يذكران صريحاً ان المجدلية نفسها ورفيقتها مع بقية النساء اشترين الحنوط والاطياب قبل حلول السبت وعقيب انقضائه لاجل تحنيط جسد يسوع.

٢ً: وعلى فرض انهما اخذتا معهما الحنوط وقد اغفل القديس متى ذكر ذلك فهل يعقل ان تذهبا وحدهما للعمل المذكور وقد كانتا تواعدتا ضمناً حسب رواية القديس لوقا مع بقية النسوة رفيقاتها قبل حلول السبت حين اشترينَ

الحنوط والاطياب على ان يأتين معاً عقيب انقضاء السبت الى القبر لاتمام هذا العمل المبرور. وما هو الداعي لانفرادهما بهذا العمل دون بقية رفيقاتهما. وهل يُعقل ان تُجربا وحدهما تحنيطاً ثم تعود بقية النساء رفيقاتهما تُجرين تحنيطاً آخر ؟

٣ً : واذا كانت مريم الجدلية ورفيقتها مريم الاخرى ورفيقتها الثالثة سالومة حسب رواية القديس مرقس — ولا شك في ان بقية النساء كن معهن اذ ذاك حسب رواية القديس لوقا — كنّ يتساءلن في الطريق عمن تراه يدحرج لهنّ الحجر عن باب القبر. فهل من المعقول ان تكون مريم الجدلية ومريم الاخرى رفيقتها قادرتين وحدهما من دحرجة الحجر في ذلك الليل وفي ذلك المكان المنفرد ؟

٤ً : اذا اخذنا رواية القديس متى على ما هي نجد فيها ان مريم المجدلية ومريم الاخرى ذهبتا وحدهما الى القبر . ولما صارت الزلزلة وخاف الحراس وصاروا كالاموات خاطب الملاك النسوة وقال لهنّ : « لا تخفنَ » فخطاب الملاك هو بصيغة الجمع لا بصيغة المثنى وقد كان الواجب ان يكون بصيغة الجمع لان مريم المجدلية ومريم الاخرى لم يكن معهما احد آخر. واذا قيل ان انجيل القديس متى كتب باللغة الآرامية ولا مثنى في هذه اللغة اجبنا . اجل ان القديس متى كتب انجيله بالارامية وهذه اللغة لا مثنى فيها للافعال بل ان صيغة المثنى وصيغة الجمع في الافعال هي واحدة . فيقال للامرأتين لا تخفنَ ويقال للنسوة لا تخفنَ . غير ان الاسماء تثنى بوضع لفظة ܬܪܝܢ للمذكر وܬܪܬܝܢ للمؤنث امام الاسم مجموعاً كما جاء في انجيل القديس متى نفسه: ܩܪܒܬ ܠܘܬܗ ܐܡܗ ܕܒܢܝ (٢٠—٣٠) ܙܒܕܝ ܥܡ ܒܢܝܗ
ܬܪܝܢ ܡܢ ܬܠܡܝܕܘܗܝ (٢١-١). ܫܠܚ ܝܫܘܥ ܬܪܝܢ ܥܘܝܪܐ
ܘܬܪܝܢ ܣܡܝܐ (١٤-١٩) فكان يجب ان يقال : « فأجاب الملاك وقال للامرأتين : لا تخفنَ انتما » وفوق ذلك فان انجيل القديس متى ترجم حالاً بعد كتابته بالارامية الى اللغة اليونانية . ومنهم من يقول ان ترجمته الى اليونانية كانت بقلم القديس متى نفسه . ومنهم من قال كلا بل تمت تحت

اشراقه . وفي كلا الحالتين قد تبناها هو . واللغة اليونانية مثل اللغة العربية تُثنى فيها الاسماء والافعال وكل ترجمات انجيل القديس متى بعد ذلك أخذت عن الترجمة اليونانية حتى ان غير واحد من العلماء تمكن ان يقول ان القديس متى كتب انجيله باليونانية . واذا قيل ان المثنى قلَّ استعماله في اللغة اليونانية في العهد الذي كتب فيه القديس متى انجيله اجبنا لا بأس ولكنه كان على المترجم ان يترجم لفظة ألأتتين السريانية بلفظة ἄνθρωποι كما ترجمها في غير مواضع من الانجيل عندما اراد ان يعبر عن المثنى كما مرَّ آنفاً . فيتضح من ذلك ان رواية القديس متى من اول الفصل الثامن والعشرين لغاية العدد الخامس منه غير مرتبطة بما بعدها لغةً ومعنًى بحيث يلزم ان يكون قول الملاك للنسوة لا تخفنَ موجهاً الى مريم المجدلية ومريم الاخرى اللتين اخبر الانجيلي عنهما في العدد الاول من الفصل نفسه بانهما ذهبتا لتنظرا القبر بل يجب ان نتأكد انه قد تخلل بين ذهاب المجدلية ورفيقتها وحدوث الزلزلة وارتعاد الحراس وبين مخاطبة الملاك للنسوة بقوله لهن لا تخفنَ زمن غير قصير يفصل ما بعده عما قبله .

٥ : اذا لم يكن سبق للمجدلية ورفيقتها مريم ام يعقوب ان حضرتا قبل بقية النساء الى حيث القبر فكيف نوفق بين قول القديس مرقس: « بكَّرنَ جداً في اول الاسبوع واتينَ القبر وقد طلعت الشمس » كيف نوفق بين التبكير جداً وطلوع الشمس وكل المسافة بين اورشليم وبستان يوسف الرامي لا تتجاوز بعض مئات الامتار . وكيف نوفق بين رواية القديس متى الذي لم يذكر في المجيء الى القبر سوى المجدلية ومريم الاخرى وبين رواية القديس مرقس والقديس لوقا اللذين يذكران غيرهما كثيرات من النساء .

فاذا تقرر ذلك نأتي الآن على سرد وقائع القيامة بحسب ترتيبها كما يبدو لنا مستندين على اقوال الانجيل : لما ثبت لدى بيلاطس موت يسوع سمح لنيقوديموس ويوسف الرامي ان ينزلا جسده عن الصليب ويدفناه فأتم هذان الرجلان التقيان هذا العمل المبرور بحضور القديسة مريم والدته وبقية النساء اللاتي كنَّ يرافقنه . وقد اتما ذلك على عجل نظراً لقرب حلول

السبت وما كادا ينتهيان من الدفنة حتى رجع كل الى بيته ليحتفل بالفصح حسب الشريعة والنساء ايضاً رجعن الى بيوتهنَّ ومنهنَّ من اشترى حنوطاً واطياباً في مساء ذلك اليوم قبل حلول السبت . ومنهنَّ وهنَّ اللواتي تأخرن على الجلجلة من ابقى مشترى ذلك الى مساء اليوم التالي اي عند انتهاء السبت وذلك لاجل المجيء الى القبر صباح الاحد لتحنيط جسد يسوع الذي كان اتمه يوسف الرامي ونيقوديموس بسرعة ولم يكن في نظر هؤلاء النساء الصالحات المحبات بكاف لذاك الجسد الالهي.

ففي غلس السبت المسفر عن اول الاسبوع اي في سحر الاحد جاءت مريم المجدلية ومريم الاخرى لتنظرا القبر اذا كان باقياً على حاله كما تركتاه يوم الجمعة مساء لا لتحنطا جسد يسوع كما سبق القول وحين صارتا على مقربة من البستان حيث هو القبر حدثت الزلزلة المذكورة في انجيل القديس متى فاضطرب الحراس وارتعدوا واضطربت ايضاً المجدلية ورفيقتها . اما اضطراب الحراس وارتعادهم فلأنهم ابصروا القبر قد فُتح بغتةً وخرج منه ظافراً من كانوا قتلوه من يومين مضيا . واما اضطراب المجدلية ورفيقتها فلأنهما شعرتا بالزلزلة وابصرتا اولئك الجنود حوالي القبر دون ان يكون عندهما سابق معرفة بوجودهم هناك فظنتا انهم انما اتوا ليكملوا اهانة جسد يسوع او لغاية اخرى . فرجعتا على اعقابهما خائفتين مضطربتين قبل ان تصلا الى القبر ولم تميّزا شيئاً مما حدث لا من حيث فتح القبر ولا من حيث حالة الحراس الذين صاروا كالاموات لان الظلام كان لا يزال باقياً . وهذا طبيعي جداً اذا ما لاحظنا الحادث من كل وجوهه ، ولاحظنا معه طبيعة النساء الضعيفة . وبوصولهما الى المدينة كانت بقية النساء رفيقاتهما على اهبة الذهاب الى القبر ليحنطنَ جسد يسوع وربما كنَّ بانتظار رجوعهما اليهن لتخبراهنَّ بما رأتا من حالة القبر . لان انفراد المجدلية ومريم ام يعقوب رفيقتها بالمجيء لتنظرا القبر لا بد من ان يكون جرى بمعرفة بقية النسوة . فحملن الاطياب والحنوط واتين القبر عند طلوع الفجر لان ما ابصرته المجدلية ورفيقتها عند القبر جعلهن ولا

شك يتأخرن الى ذلك الوقت اي الى ان يكون بزغ النهار. وكنَّ يقلنَ فيما بينهن على الطريق: من تراه يدحرج لنا الحجر عن باب القبر. وهذا مما يؤكد ان المجدلية ورفيقتها مريم الاخرى ما تقدمتا في المرة السابقة الى القبر والا لما كانتا تقولان مع النسوة: من تراه يدحرج لنا الحجر عن باب القبر، لانه قد كان دُحرج. ولا كانتا تهتمان بعدُ في امر التحنيط. وقد قال لهما الملاك ان المسيح قام من بين الاموات.

وبوصولهنَّ الى القبر لم يجدن احداً من الحراس فتقدمن من القبر فرأين الحجر قد دُحرج. وعندما دخلنَ الى القبر لم ترين جسد يسوع فاخذتهن الحيرة. وللحال قبل اي بحث او انتظار اسرعت مريم المجدلية وحدها راجعة الى المدينة لتخبر بطرس ويوحنا بما حدث حسب رواية القديس يوحنا قائلة: قد اخذوا الرب من القبر ولا نعلم اين وضعوه. كأنها تشير بذلك الى الجنود الذين كانت رأتهم مع رفيقتها في المرة الاولى. فظنت انهم اخذوه ليكملوا اهانته. واخبرت المجدلية بطرس ويوحنا دون غيرهما من الرسل لانه يرجح ان يكون هذان الرسولان في ذاك الوقت دون غيرهما عند البتول مريم بعد ما تركتها النسوة وذهبن الى القبر يعزيانها في حزنها ويستغفرها بطرس عن انكاره ابنها في ليلة الآلام. ورجوع المجدلية الى المدينة كان قبل ظهور الملاك للنسوة حسب رواية القديس متى والقديس مرقس وظهور الملاكين حسب رواية القديس لوقا كما هو واضح والا لما كانت قالت لبطرس ويوحنا ما قالت: فرجوعها الى المدينة صار «عندما كن متحيرات» حسب قول القديس لوقا لانه لا شك قد تخلل بعض الوقت بين وصول النساء الى القبر وبين ظهور الملائكة لهنَّ بدليل هذا القول: «بينما كنَّ متحيرات واذا برجلين قد وقفا عندهنَّ بلباس براق» فلا بد ان تكون هذه الحيرة استغرقت فترة من الزمان.

فللحال اسرع بطرس ويوحنا مع المجدلية الى حيث القبر. ولما وصلوا لم يشاهدوا احداً هناك لان النسوة بعد ان تركتهنَّ مريم المجدلية في حيرتهنَّ ورجعت الى المدينة ظهر لهنَّ الملاك واخبرهن بقيامة المسيح

وامرهن بالرجوع الى المدينة ليخبرن الرسل بذلك. اما هنّ فخرجن من القبر وفررن وقد اخذتهنّ الرعدة والدهشة والفرح ولم يقلن لاحد شيئاً لانهنّ كنّ خائفات. فدخل اولاً بطرس الى القبر ثم دخل يوحنا ولم يشاهدا جسد الرب بل وجدا الاكفان والمنديل ملفوفة وموضوعة بترتيب فخرجا من القبر» ورجعا الى موضعهما» اما المجدلية فبقيت وحدها عند القبر تبكي. وعندما انحنت متفرسة في داخل القبر ابصرت ملاكين بثياب بيض فقالا لها : يا امرأة لِمَ تبكين. فقالت لهما: انهم اخذوا ربي ولا اعلم اين وضعوه. وكأنها شعرت بحركة وراءها فالتفتت الى خلفها فرأت يسوع واقفاً ولم تعلم انه يسوع لانها لم تتفرس في وجهه. واذ سألها يسوع لِمَ تبكين ومن تطلبين قالت له يا سيدي ان كنت انت حملته فقل لي اين وضعته وانا آخذه. قال لها يسوع: مريم. فعرفت انه الرب فجاءت مريم واخبرت التلاميذ بما رأت وسمعت.

وفي تلك الاثناء اي بينما كان بطرس ويوحنا والمجدلية عند القبر كانت بقية النساء راجعات الى المدينة بعد ان راين الملاك وبشرهنّ بقيامة المسيح. فبينما كن في الطريق لاقاهن يسوع وقال: سلام لكنّ. واذ ذاك اسرعن ودخلن المدينة واخبرن الرسل بما جرى معهنّ. وظهور المسيح لهنّ كان عقيب ظهوره للمجدلية قرب القبر «لانه ترآى للمجدلية اولاً» حسب قول القديس مرقس. وفي عصر ذلك اليوم ظهر المسيح لتلميذي عماوس كما هو مدون في الانجيل المقدس لوقا. وقد كان ترآى في النهار ايضاً لبطرس. وفي مساء اليوم ظهر لبقية التلاميذ معاً دون توما وهم متكئون يتحدثون بهذه الامور. وبعد ثمانية ايام ظهر المسيح ايضاً للفيف تلاميذه وتوما كان بينهم وقال لتوما: هات اصبعك الى ههنا وعاين يدي وهات يدك وضعها في جنبي وكن مؤمناً لا غير مؤمن. وهكذا دواليك مدة اربعين يوماً كان ختامها يوم خميس الصعود

هكذا جرى سياق الحوادث في قيامة المسيح على ما ظهر لنا ونظن

اننا على صواب من الامر. ولنأخذ الان في ايراد اهم الصعوبات التي قد يعترض بها ونحلها كما نرى :

يقال اولاً : انه يوجد اختلاف في سرد الحوادث . فكل من الانجيليين الاربعة يورد حادثة القيامة وظروفها المرافقة بشكل لا يأتلف مع ما يورده الآخر .

اجل ان لكل من الانجيليين طريقة مخصوصة للاخبار كما ان لكل منهم غاية في كتابة انجيله . فكما انهم لم يتفقوا على طريقة واحدة بعينها في سرد عجائب المسيح وتدوين اقواله وتعاليمه ، بل كل منهم كتب شيئاً وترك غيره او كتبه على شكل لم يكتبه غيره عليه حسبما تحققه هو او رآه اوفر ملاءمة للغاية التي توخاها من الكتابة ، هكذا فعلوا في سرد حادثة القيامة وما رافقها من الظروف. وهي لعمري طريقة فضلى ارادها بحكمته الله تعالى موحي الكتاب المقدس وملهمه يتجلى بها وجه الصواب الجميل ويتلألأ معها الصدق والحقيقة الكاملة. لانه لو ان الكتبة الملهمين كتبوا الحوادث كلها بشكل واحد وعبارة واحدة لكان الريب في صدق روايتهم حظ وافر ولكان الخصوم يجدون فيه مجالاً واسعاً للتقول والتجني اذ يسهل جداً ان يقال اذ ذاك : ان التواطؤ اصبح في العمل. وهل يُعقل ان يرى قوم امراً او يسمعوا خبراً وخصوصاً اذا كان كثير التشعب ويدونونه او يوردونه بعد حين كلهم وكلٌ على انفراد بالحرف الواحد والطريقة الواحدة اللهم اذا استثنينا التواطؤ بينهم ؟

لقد كان للصعوبة قوة لو وُجد تناقض حقيقي بين قول وقول بمعنى ان واحداً ينفي ما يثبته آخر او يثبت ذاك ما ينفيه هذا . ولكن ان يورد انجيلي ظرفاً من الظروف لا يورده انجيلي آخر او يسرد خبراً ما سرده غيره دون ان يكون في ما اورده هذا الثاني وسرده اثبات لما نفاه ذاك الاول او نفي لما كان اثبته فليس في ذلك شيء من التناقض . فاذا ما قال مثلاً القديس متى ان النسوة رأين ملاكاً عند القبر وقال

القديس لوقا انهنّ رأين ملاكين فهل من تناقض في قولها؟ الا يجوز ان تكون النساء اتين مرتين الى القبر وفي المرة الاولى ابصرن ملاكاً وفي المرة الثانية ابصرن ملاكين. وكل من الانجيليين المذكورين اشار الى احدى هاتين المرتين؟ او ألا يجوز ان يكون احد الملاكين وُجد في داخل القبر والآخر وُجد واقفاً خارجه. فاشار القديس متى الى احدهما فقط والقديس لوقا الى الاثنين معاً؟

فالانجيليون الاربعة متفقون على حادث القيامة وهذا هو الامر المهم وهي الغاية التي كانوا يقصدونها وقد ارادوا اثباتها وقد اثبتوها. اما الظروف التي رافقت الحادث فلم تكن لها تلك الاهمية التي يريد الخصوم اليوم ان يعلقوها عليه. ولذلك لم يهتم الانجيليون يومذاك لكل هذه الظروف كما يهتم لها اليوم من يريدون انكار حادثة القيامة. فضلاً عن ان الانجيليين كتبوا اناجيلهم في وقت كانت حادثة القيامة وكل ظروفها معلومة بالكفاية لدى سامعي الانجيل اذ كان الكثيرون بينهم شهوداً عيانيين لذلك او اقله سامعين لهؤلاء الشهود العيانيين. فما كانوا بالحاجة الى فصل كل هذا التدقيق الذي نريده اليوم نحن الذين يفصلنا عن تلك الحادثة نحو من الفي سنة.

وفوق ذلك ان هذا الاختلاف العرضي في سرد الحوادث الانجيلية يزيد في اثبات الحقيقة المراد بيانها لانه لو ان الانجيليين يكتبون اموراً غير واقعة لكانوا يكتبونها بصورة منظمة متفق عليها لا تترك مجالاً لاقل اعتراض او صعوبة بحيث يكونون اذ ذاك كمن يؤلف قصة على هواه ولكنهم يكتبون اموراً وقعت بالفعل فهم يكتبونها كما هي جرت لا كما يريدون هم ان تكون جرت.

يقال ثانياً: القديس متى يذكر ان مريم المجدلية ومريم الاخرى فقط جاءتا في غلس الاحد الى القبر بينما القديسان مرقس ولوقا يذكران غيرهما من النساء.

ان الرد على هذه الصعوبة الثانية قد اوضحناه بالكفاية فيما سبق اي

عندما اثبتنا ان مجيء مريم المجدلية ورفيقتها مريم الاخرى وحدهما حسبما ذكره القديس متى انما هو مجيء استطلاع لحالة القبر وليس هو المجيء الثاني مع سائر النسوة لاجل تحنيط جسد يسوع كما اورده القديسان مرقس ولوقا.

يقال ثالثاً : يقول القديس مرقس اتت النسوة الى القبر وقد طلعت الشمس. ويقول الانجيليون الآخرون : اتين في السحر الباكر حينما كان ظلام. بل ان القديس مرقس نفسه يقول : وبكرن جداً في اول الاسبوع واتين القبر.

ان القديس مرقس يقول : « لما انقضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم ام يعقوب وسالومة حنوطاً ليأتين ويحنطن يسوع » فهو لم يقل « اتين » بل « ليأتين » فليس اذن من الواجب ان نجزم في كون هؤلاء النساء الثلاث اتين الى القبر في ذلك الوقت اي عندما انقضى السبت . فهذا معنى كامل مستقل بذاته عما بعده . اما استئنافه القول : « وبكرن جداً في اول الاسبوع واتين القبر وقد طلعت الشمس » فهو معنى آخر مستقل عن الاول وقد تخلل ليلٌ بكامله بين مشترى الحنوط وعزمهنّ على المجيءْ الى القبر وبين مجيئهن فعلاً الى هناك : فكأن مشترى الحنوط حسب الرواية المشار اليها الذي قامت به النساء الثلاث اي المجدلية ومريم ام يعقوب وسالومة لا ينفي عن غيرهن ايضاً مشترى مثله. هكذا التبكير في الاتيان الى القبر قصد التحنيط لا برهان اكيداً عليه كونه تم منهن دون غيرهن . فالقديس لوقا يقول ان النساء اللواتي تبعنه من الجليل (والمجدلية ورفيقتاها لا شك منهنَّ) اتين باكراً الى القبر وهن يحملن الحنوط الذي كنَّ اعددنه قبل حلول السبت. وليس من يرتاب في كون هؤلاء النساء التقيات كلهن قد كنَّ توافقنَ منذ يوم الجمعة عقيب دفن المسيح على مشترى الاطياب والمجيء معاً صباح الاحد الى القبر لاجل تحنيط جسد يسوع كما يجب ان لا يرتاب احد في كون هؤلاء النساء جميعهن اتين معاً الى القبر صباح الاحد للغاية المذكورة . فلاجل

حل هذه الصعوبة اي التوفيق بين المجيء باكراً جداً وبين طلوع الشمس يحسن ان نعود الى ما قلناه سابقاً من ان مريم المجدلية ومريم الاخرى قد حضرتا في الصباح الباكر جداً لتنظرا القبر . وهذا المجيء الاول قد صار ولا شك بمعرفة وموافقة بقية النساء حتى اذا رجعتا اليهنَّ واخبرتاهنَّ بان القبر باقٍ على حاله اتين جميعهن ومعهنَّ الطيوب لاجل التحنيط . فالقديس مرقس يشير بقوله : «وبكرن جداً في اول الاسبوع واتين القبر وقد طلعت الشمس» الى المجيئين معاً اي الى المجيء الاول الذي قامت به المجدلية ومريم الاخرى في السحر الباكر جداً والى المجيء الثاني الذي قامت به كل النساء عند طلوع الشمس. كون المجيء في المرتين انما كان بمعرفة وموافقة الجميع فاعتبره كأنه مجيء واحد من حيث وحدة النية التي هي تحنيط جسد يسوع . وهكذا فعل القديس يوحنا بقوله : «في اول الاسبوع جاءت مريم المجدلية الى القبر في الغداة والظلام باقٍ فرأت الحجر مدحرجاً عن القبر» فهو قد اشار الى المجيئين معاً لان المجدلية لم ترَ الحجر مدحرجاً الا في المرة الثانية عندما اتت مع بقية النساء . وهكذا القول عن القديس لوقا.

يقال رابعاً : يقول القديس متى بظهور ملاك واحد للنسوة ومثله القديس مرقس. اما القديس لوقا والقديس يوحنا فيقولان بظهور ملاكين.

اجل ان القديسين متى ومرقس يشيران الى ملاك واحد والقديسين لوقا ويوحنا يشيران الى ملاكين . انما يقول القديس متى عن الملاك انه كان جالساً فوق الحجر الذي دحرجه عن باب القبر اي كان خارج القبر . ويقول القديس مرقس ان الملاك الذي ظهر للنسوة كان داخل القبر جالساً عن اليمين . فملاك القديس متى هو اذن غير ملاك القديس مرقس . فالقديس متى والقديس مرقس تكلم كلٌّ منهما عن ملاك دون ان ينفي وجود الملاك الآخر . اما القديسان لوقا ويوحنا فاشارا الى الملاكين معاً . وليس في الامر اقل تناقض.

يقال خامساً : ان المسيح لم يدع المجدلية تلمسه وقد سمح للنساء ان يمسكن قدميه.

اذا كان وجه الصعوبة من حيث التناقض في الكلام من ان يوحنا ينفي ما اثبته متى اجبنا ان ما وقع للمجدلية هو حادث مختلف عن حادث بقية النسوة . فالمجدلية كانت وحدها عند القبر عندما ابصرت يسوع وقال لها : «لا تلمسيني» والنساء دون المجدلية كنّ راجعات من القبر الى المدينة عندما لاقاهن يسوع وقال سلام لكنّ فامسكن قدميه وسجدن له. فليس اذن لمس المسيح وعدم لمسه في حادث واحد بعينه .

اما اذا كان وجه الصعوبة من حيث المعنى اي لماذا سمح المسيح لبقية النساء ان يمسكن قدميه ولم يسمح للمجدلية بهذا الشرف. اجبنا بقصر الرأي اذا ما لاحظنا السبب الذي بنى عليه المسيح عدم السماح للمجدلية بلمسه وهو: « لاني لم اصعد بعدُ الى ابي » وقابلناه مع الفصل الرابع عشر من انجيل القديس يوحنا حيث يقول المسيح لتلاميذه : « لا تضطرب قلوبكم انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي ايضاً. ان في بيت ابي منازل كثيرة والا لقلت لكم فاني منطلق لاعد لكم مكاناً. واذا انطلقت واعددت لكم مكاناً آتي وآخذكم الي لتكونوا انتم حيث اكون انا . » وتأملنا جيداً بروح التقوى المسيحية وتفهمنا بالروح معنى هذا الكلام الالهي البديع الذي يملأ القلب فرحاً وتعزية لمعت لعيني عقلنا بارقة نور يمكننا ان نسير على ضوئها الى ابواب الحقيقة التي ارادها السيد له المجد بقوله : « لا تلمسيني. » ليس المقصود هنا من اللمس ان تقبّل المجدلية اقدام المسيح او ان تلمس بيدها جراحاته المقدسة. والا لما كان سمح به المسيح للنساء الاخريات ولا كان حرض الرسل عليه بقوله لهم عند ظهوره بعد قيامته: جسوني وانظروا ان الروح ليس له لحم وعظام.» وبقوله لتوما على الخصوص : « هات اصبعك وادخله في جراح يدي وهات يدك وامددها في جنبي » لان السبب الذي من اجله لم يسمح للمجدلية بلمسه « هو لاني لم اصعد بعدُ الى ابي » كان لا يزال باقياً . فاذا تعالت محبته ورأفته سمح به بل حرّض عليه الاخرين فهل كانت المجدلية اقل استيهالاً

لهذا السماح وهي التلميذة المحبة والمحبوبة اكثر من الجميع والتي تستحق مثلهم ان لم نقل اكثر منهم عطف الرب وحنوه لانها ثبتت امينة في محبتهـا الى النهاية ! فالمعنى الذي يريده المخلص بكلمته « لا تلمسيني لاني لم اصعد بعد الى ابي » هو على ما يظهر لنا « لا تمسكيني » اي لا تحاولي امساكي للبقاء معك او للذهاب معي.

فكأني بالمجدلية وفي قلبها ما فيه من الشغف والشوق عندما ابصرت المسيح قائماً من القبر وهتفت « رابوني » بعدما سمعت صوته وعرفت انه الرب انطرحت على الارض وامسكت قدميـه المقدستين وقبلتهما وذرفت عليهما دموع الفرح والابتهاج ومسحتهما بشعر رأسها ولسان حالها يقول مع عروس النشيد : وجدتُ من احبتهُ نفسي فامسكه ولا اطلقه (نشيد ٣ : ٤) واذ شعرت ان المسيح يريد تركها سألته ان يأخذها معه لانها لا تطيق فراقه بعد مذكرة اياه بوعده السابق : « واذا انطلقت واعددت لكم مكاناً آتي وآخذكم الي لتكونوا انتم حيث اكون انا » فاجابها بما اجابها اي اني حتى الان لم اصعد الى أبي لأعد لكم هذا المكان الموعود وآخذكم اليه مع اني لا ازال على وعدي هذا. ويدل على ذلك قوله تعالى مستلئاً : « بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم . » فحرف الاضراب « بل » يشير بالكفاية الى ان المجدلية قد كانت الحت على المسيح ان يأخذها معه لانها لا تريد الانفصال عنه فقال لها : « لا بل امضي الى اخوتي » ولن يكون موعد اللقاء بيننا ببعيد. وهذا الالحاح الضمنى من المجدلية لتذهب مع المسيح يقابله ذاك الالحاح الصريح من المجنون الـذي كان فيه لجاون ليكون مع المسيح بعد ان اخرج منه الشياطين كما يقابل جواب المسيح لهذا المجنون . « بل امضِ الى بيتك لدى اهلك واخبرهم بما صنع الرب بك. مرقس ٥-١٩ » جوابه تعالى للمجدلية : « بل امضي الى اخوتي »

يقال سادساً واخيراً : اما كان الانسب والاطبق للصواب ان يشهر المسيح قيامته على اعدائه وعلى الناس اجمع بصورة حافلة وبشكل لا يمكن الشك

فيه بنوع من الانواع فكان بذلك يسد كل فم ويلقم الحجر كل مكابر ويسهل الايمان لمحبيه ؟

وهكذا يقول الكافرون والملحدون والضعيفو الايمان عن كل اعمال الله لانهم يريدون ان يخضعوا اعمال العلي لنقدهم القاصر واحكامهم الضعيفة . فجوابنا لهؤلاء وامثالهم ان الله تعالى في اعماله واقواله لا يراعي احكام البشر واقوالهم . حسبه ان يعمل الخير وان ينادي بالحقيقة وغاية القيامة هنا اتمام عمل الفداء للبشر وليس اقناع الملحدين. فلا فهمهم يزيد شيئاً على حقه الثابت الى الابد ولا عدم فهمهم ينقص شيئاً منه . ومن يحاول ادراك غير التدابير الالهية يرزح تحت اعبائها الثقيلة بحسب قول الحكيم : « ان البحث عن الجلال يعيي (امثال ٢٥ــ٢٧). ولو كان الله اعلن قيامة ابنه بهذا الشكل البشري الواضح الذي يريده هؤلاء الضعيفو الايمان ؟ فاين كان الايمان ؟ وهل يبقى لهذه الفضيلة السامية من اجر او استحقاق ؟

ونختم قولنا وهو اجمل ختام بكلمة المسيح لتلميذه الكثير الشك والارتياب القديس توما : « الان لانك رأيتني يا توما آمنت فطوبى للذين لم يروني وآمنوا.»

العيلة في لبنان

على ضوء امثاله الشعبية

بقلم لحد خاطر

مقدمة

لكل امة من امم المعمور امثال شعبية دارجة على السن العامة من افرادها ، هي ترجمان حالها ، وعنوان تفكيرها ، وصورة حية لآرائها في تصريف الامور وشؤون المعيشة .

ولم يشذ لبنان عن هذه القاعدة فان لعامته امثالاً من هذا النوع تضمنت الكثير من الحكمة والعبرة في مشاكل الحياة اللبنانية واطوارها ومطالبها ، وما تقوم عليه من اركان ومبادئ ، وتهدف اليه من غايات ومرام .

والمثل العامي اوفى تمثيلاً لحالة الامة من المثل الفصيح ، لان هذا لا يعرفه الا الادباء والمثقفون ، بينما الاول يتداوله الشعب برمته ، من مختلف الطبقات . وعلى ذلك يمكن اعتباره اصح صورة لحالة المتمثلين به وخير ترجمان لنفسيتهم ونوع تفكيرهم ووجهة نظرهم في ما يطرأ عليهم من الحوادث في مراحل العمر .

***

اما الامثال الدارجة على السن اللبنانيين فاكثر من ان تعد ويمكن حسبانها من متروكات الاجداد الادبية القيمة .

اما اصولها الاولية فتنوعة المآخذ والمصادر ، على ان جُلّها لبناني بحت ، لا سيما ما دار منها على شؤون خاصة بلبنان ، ولا تُرى في غيره . نخص منها بالذكر ما كان ذا علاقة بالاوضاع الجغرافية المحلية من مثل قولهم : « شو م صيدا من هدير البحر – كرمال عين تكرم كل مرجعيون – يا طالب العافية من البوشرية » .

ولا ريبة ان في امثالنا طائفة تشاركنا فيها الاقطار العربية المجاورة ولا سيما ما كان منها عربي الاصل ، على ان ترديد هذه الامثال عهداً طويلاً في لبنان وباللهجة المعروف بها اهلوه قد اكسبها من حيث المعنى والمبنى طابعاً لبنانياً خاصاً يميزها عن امثالها في تلك الاقطار ، ويجعلها خليقة حقاً باسم « امثال لبنانية » .

***

وها اننا نقدم منها على سبيل المثال طائفة مما يدور حول العيلة ومتعلقاتها . عسى ان تبدو منها صورة صادقة صحيحة لهذه الناحية الاجتماعية في لبناننا العزيز :

العيلة اللبنانية

العيلة من وجبت على المرء اعالته من اهل بيته ، وهي تتألف من الاولاد زهورها الفواحة ومن الزوجين او الاب والام ركناها الركينان ، يتبع هؤلاء احياناً الجدان والجدتان والاعمام والعمات والاخوال والخالات .

اللبنانيون يجودون العقبى ابقاء المذكر

والعيلة محترمة الجانب في لبنان رباطها الاولاد من صبيان وبنات والذي لا يعقب يعيش الحياة منغصاً وللتهوين عليه يقولون له : « بلاهم ولا بلاهم ! وجودهم هم وبلاهم هم »

ولكنه قلما يقتنع ويقعد عن استشارة الاطباء والقوابـل (الدايات) والعواجز طمعاً بأن يبقى من يقيم له ذكراً من بعده ويرث عنه مـا يكون عنده من مال وعقار . اما تقول امثـالهم ؟ :« من خلّف ما مات — الولاد صورة الوالدين » : والرزق لا يسمح به بعد العين الا للاولاد او الاحفـاد من الذكور (العصب) . وقد قالوا في ذلك :« بحبك يا سواري مثل زندي لا — ابن ابنك لك ابن بنتك لا » .

ايثارهم الصبيان على البنات

ويؤثرون في مواليدهم الذكور على البنات ويقولون عن الصبيان :« ما احلا بشارتهم ولو ماتوا بساعتهم » . اما البنت فالعتبة تحزن عنـد ولادتها اربعين يوماً . ويقولون بهذا المعنى : « البنـات هَمُّهم للمات — البنت ان خلصت من الف عار بتجيب العدو للدار — بنتي في طربيا وهما واصل ليا — بتجي البنت وبيجي همّها معها » .

ولعل السبب في ذلك انها متى تزوجت تصير لرجلها تحمل اسمه واسم عيلته وتترك اسم والديها وتنتقل ميراثها الى عيلة اخرى قد تكون غير ذات كفاية بعيلة ابيها ، لذلك قالوا :« من كانت البنت عاقبته لا يأمن يكون الكلب صهره » .

ويتفق ان يحصل بعض آباء البنات على اصهار من ذوي المكانة فيكونون

لهم ذخراً ومستنداً. وفي مثل هؤلاء قالوا :« يا صهري يا سندة ضهري».

وبكل حال فان ولادة البنات في لبنان قلَّما تقابل بالارتياح وقد درجت العادة ان يهوِّن على ام البنت باسماعها العبارات الملطَّفة من مثل قولهم : « الّلي بتجيب البنت بتجيب الصبي – الله يخلّيلها بيّها – البنت خلقة الله والصبي خلقة الله ! »

وان كانت البنت هي المولود الاول بعد الزواج قالوا للام من باب التعزية : « نيالك جتك بنت تخدمك» وربما اوردوا لها المثل القائل :« من اسعدهـا زمانها جابت بناتها قبل صبيانها » لانهن بزعمهم يكبرن اولاً ويساعدن الام في القيام بمهام العيلة .

الطفولة

العيلة اللبنانية تبذل عناية كبرى في رعاية اطفالها،فالام تشبع ابنهـا من حليبها اعتقاداً ان « الشبعان من حليب امه » يشبُّ صلب العود قوي الشكيمة وتفطمه للحال لدى تأكدها من حمل جديد لاعتقادها ان «حليب الغيل (حليب المرأة الحامل) يهدّ الحيل » ومتى ظهرت اسنانه تصنع له «السنينية»وهي حفلة تدعو اليها الاهل والاصدقاء. وتقدم فيها النقل والحلوى،وذلك لان طفلها يكون قد اجتاز خطراً كبيراً يرافق غالباً طور التسنين . ومن امثالها في ذلك :«لو عرفت امي بظهور سناني كانت هيّتلي كفاني » .

وتظل الام تراقب طفلها بلهفة حتى لا تلمّ به « المطرودة » (العين) و«الّلي ما بتسمّى » (القرينة) ريثما يترعرع ويبلغ سن الدراسة فترسله للحال في القرية الى مدرسة تحت السنديانة ليتعلم فيها « فكّ الاسم » و « تعليقه » راجية من الاستاذ ان يقسوه ما اراد بحيث يكون « الجلد له والعظم لها » اذ لا يهمها الا ان تراه من الناجحين في التحصيل ولا يضيع الوقت سدى فيقال له : «يا مرجوحة التيني متل ما رحت متل ما جيت » . ومن فراسة اللبنانيين توقعهم نجاحاً في العلم لكل ولد كبير الراس بدليل قولهم :« كبير الراس قرّا ».

التربية

ولتربية الاولاد شأن كبير في الاسرة يتعاون فيه كل اعضائها ، ذلك لانهم يقولون : « الطير المربّى غالي — اولادكم ربوهم بتلاقوهم — اللي ما بيربي صغير ما بيلاقي كبير ».

وليست التربية عندهم من الامور السهلة التحصيل : « ترباية الصبيان متل قرقشة الصوّان — الولاد ما بيربوا ليربّوا على القلب دملة — ما بتعرف قيمة المربّي حتى تربي — ما بيربي جسد تا يفنى اسد » .

ومنهم من يؤثر في تربية اولاده الضرب والقسوة فيقول : « ان حبيت ولدك هيّئله القضبان حزم حزم — الضرب للولد متل الزبل للبستان ».

على ان الذي يضرب ولده لا يرضى ان يصوّبه الناس على عمله ويفضل ان يقال له : لقد غاليت في القسوة والولد لا يستحق كل ما انزلته فيه من قصاص ،ولعل ذلك مارمى اليه المثل القائل : « بضرب ابني بالسكين وبكره مين يقولّي آمين ».

وفي الناس من ينكر طريقة التربية بالضرب ويؤثر عليها التعليم الرصين والتوعد بالعقاب الاليم لدى المخالفة وهؤلاء يقولون : « هزّ عصا العزّ ولا تضرب بها » لان العصا في اعتقادهم لا تفيد الولد الجافي الشعور بل تدفعه الى القحة في ارتكاب المعاصي ويقولون في هذا المعنى : « اللي ما بتقطع فيه الكلمة ما بتقطع فيه ضربة السيف — شو بتعمل العلقة مع اللي عينه بلقا — اللي ما يكون لنفسه واعظ كلّت عنه جميع المواعظ — الوقح ضربه بخشب البيت بيقول دبس وزيت — القليل الشنة بزوق عليه بيقول الدني عمال تشتي »

وهناك من يشير بارشاد الولد بالحسنى والتؤدة وافساح مجال الحرية امامه ليطبّق ما طُلب منه عن اقتناع وايثار دون ما ضغط ولا ارهاق : « حطّ ابنك على الحيطان ، وقلّه هيدي طرايق الشيطان ».

وقد يعامل الوالد ولده بالقسوة طوال مدة حداثته ، فاذا ما كبر وشب رأى الافضل ارشادَه بالرقة والايناس : « متى طلعت دقن ابنك احلق دقنك —

ابنك وهو صغير ربّيه ومتى كبر خاويه » . ومنهم من يترك ابناءه لمدرسة الدهر : « ابنك لا تعلمه الدهر بيعلّمه » .

آراء في عهد الطفولة

وقد خصّت الامثال اللبنانية عهد الطفولة بطائفة كبيرة منها ، أبدت فيها الآراء المختلفة الحكيمة ، منها قولهم في ميزة الولد على قلب والديه : « الولد شريك الزوج » . واعز منه الحفدة : « ما اعز من الولد الا ولد الولد » .

وقد لا يبادل الولد والديه محبتهما : « قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجر » ومنهم من يقول : « من يوم ما شفتكم يا اولادي ما عاد هني لي زادي » . وكثيراً ما تؤدي تربية الاولاد والمهام العيلية الى افتقاد الام صحتها وابتلائها بسقم جسمها : « قالوا بنتي كويّسة وشعرها حرير ، قلنا اصبروا عليها حتى تخلّف وتربّي وتعانق السرير » .

وقد يكون في الصغار من لهم عقل الكبار وحسن فطنتهم : « من حي ولد خير من شيخ — من حي تلميذ سبق معلمه — الديك الفصيح من البيضه بيصيح » . على ان الولد مهما كبر عقله تظل نزعة الطفولة مسيطرة على حركاته ونزعاته : « الولد ولد ولو حكم بلد — الصبي صبي ولو كان ابن النبي . يا ذلّ بلد حاكمها ولد » . وللاولاد من الطيش ما لا يمكن من الحكم في منازعاتهم بصورة منطقية لانهم سرعان ما ينقلبون عن مطالبهم دون ما سبب ، لذلك قالوا : « قاضي الولاد شنق حاله » واذا كان الولد شريراً سبّوا اهله قبل ان يسبوه لان الاهل هم المسؤولون الاولون عنه : « الولد الميشوم بيسبّب لاهله المسبّة » .

وينصح احد الامثال بالا يرافق الولد في الطريق لانه « : ان وقعت حمارة رفيقه ضحك عليه ، وان وقعت حمارته هو بكي عليه » وهكذا يكون مرافق الولد خاسراً في الحالين

كذلك تنصح الامثال اللبنانية باغفال ما يقوله الاولاد لان : « كل من يحطّ عقله بعقل الولاد يتعب » و « الولد الذي ليس من صلبك لا تهتم بتربيته » لان « اللي بيربّي غير ولده ، مثل اللي بيعمّر في غير ملكه » — وقد

قيل ايضاً : « كل شيء اذا ربيته نفعك الا ابن آدم قلمك » — و « الولد الذي ما هو من ضهرك كل ما جن فرحله ».

والعيلة الكثيرة الاولاد هي عند اللبنانيين عيلة مباركة من الله : « البنون الكثر ، اولهم فقر ، وآخرهم يسر ، وطولة عمر » .

البنت والعلم

اما البنت فقد كانوا في القديم لا يهتمون لتعليمها لانها لم توجد كالصبي « لتقعد في الديوان » واهم ما كانوا يطلبون منها « خدمة زوجها وتربية اولادها » اما الآن فالبنات عاشين الصبيان في تحصيل انواع العلوم على قدم المساواة . والامهات اللبنانيات يخصصن البنات بجانب كبير من عطفهن : « العنكبوته شافت بنتها على الحيط قالت لها يا عقد لولو ومعلّق بخيط »

واذا كانت البنت مزدانة بالعلم والتهذيب فضّلها كثيرون على الصبيان الطائشين وما قالوه بهذا المعنى : « البنت الكسيحه ، ولا الصبي الفضيحة — من حي بنت بتسوى الف صبي — كم من صبيان خربوا البيت وبنات عمروه ».

الخطبة

ومتى كبر الفتيان والفتيات كان في مقدمة ما يفكر اهلهم في تيسيره لهم الخطبة والزواج سنة الله في خلقه ، وللبنانيين في هذين الامرين امثال كلها حكمة وعبرة . فما قالوه في ظهور بعض الخطاب على حسين غرّة ، كما يحدث غالباً : « الخطاب ورا الابواب » ولا عجب ان يعمى امثال هؤلاء الخطاب المستعجلين عن نقائص المخطوبات : « لمّا يوقع النصيب من السما يوقع الخطيب بالعمى ».

ومن الآباء من لا يرضيه اقبال الخطّاب على طلب يد فتاته لانه ممن يصدقون قول القائل : « البنت الي بيكتروا خطابها بتبور » .

وقد تؤدي الخطبة إلى اقرار عدم الموافقة في الزواج فتحلّ عروتها ويأتي آخر فيتزوج الفتاة وفي ذلك يقولون : « واحد خطب والثاني تزوّج » ويحاكيه قولهم : « العروس في الاكليل ، ما بينعرف لمين بتصير ».

وللنصيب في الخطبة كما في الزواج اكبر اثر : « كل شيء تسبيب ما عدا الزواج نصيب — النصيب غلّاب » .

ومنهم من ينكرون غلبة النصيب لما فيها من قيد لحرية الاختيار وهم يقولون: «قالوا الزواج نصيب لكن تلتينه تسبيب». واكثرهم يحاذرون التدخل في عقود الزواج تفادياً للمسؤولية في قابل الحين: «امش في جنازه ولا تمش في جازه».

اهتمامهم بالاصل والفصل

والشاب اللبناني في زواجه يسأل اولاً عن اصل العروس وما اذا كان اهلها من «مزاويجه» اي من بيت هو كفوء لبيته. وهذه القاعدة قلت الآن مراعاتها ومن امثالهم في اهمية الاصل: «خذ الاصيله ولو على الحصيره — دور الدوره ولو دارت وخذ الاصيله ولو بارت — الاصل عون». ويقولون بهذا المعنى: «فلان بياكل القشور وبيرجع للجذور، أو بياكل الفول وبيردّ للاصول — اسأل عن الاصول قبل الوصول — على القرمية تنبت الوخية — من كان ابوه بصل وامه توم من اين تجيه الريحة الطيبة — زرعت حنظل بارض عنبر تعبت جهدي وسقيت سكّر عند فصله رجع لاصله».

ومنهم من يسأل عن الفعل فقط: «اصالك فعلك يا سفرجل» وهذا من نوع قول الشاعر:

لا تقل اصلي وفصلي ابداً انما اصل الفتى ما قد حصل

اسأل عن الام

وطالب يد الفتاة يسأل قبل كل شيء عن سلوك امها واخلاقها وسمعتها لاعتقاد اللبنانيين ان البنت تمشي في بيتها مع زوجها كما مشت امها من قبلها مع رجلها ومن امثالهم في هذا المعنى: «سَئال عن الام قبل تلم». ومنهم من يقول: «شوف الام ولمّ — لا تاخذ العورا ولا بنت بنتها تعديك على طول الزمان عوار». واشهر امثالهم بهذا الخصوص: «طبّ الجرّه على فمها تطلع البنت لامها».

والام اللبنانية مثال الرقة والحنان. ويقولون بهذا المعنى: «الدنيا ام» و«الام هي الدنيا» فكأنهم يحصرون بالام مباهج الدنيا وزخارفها. ويقولون اذا ولّى الصيف: «لو كان له ام كانت بتبكي عليه». لان قلبها مستودع

الشعور الفياض. اما قولهم : « وهل في الامر يا امي ارحميني » فيكاد يرمي الى حصر الرحمة بالام دون سواها .

ومنهم من ينكر انتقال الاخلاق بالسلالة ويقول المثل المشهور :« الورده بتخلف قرده ، والقرده بتخلف ورده – البطن بستان بيجيب شكال ولوان» ويرى آخرون ان الفتاة لا يمكن الحكم في سلوكها الى ان تتزوج فيظهر معدنها ، ويقولون في ذلك :« البنت مقله مغطايه – البنت صرفه ملفوفه ».

ومنهم من يلاحظ اخلاق العمة والخالة والاخوات ويقول هؤلاء :« خدوا البنات من صدور العمات – الولد لو بار بيطلع تلتينه خال – البنت الكبيرة بتزوج خياتها » هذا اذا تزوجت قبلهن واحسنت سلوكها مع زوجها .

وهناك من يرى ان الزوج هو الذي بتصرفه يعمل من زوجته اما ملاكاً واما شيطاناً : فهي شيطان اذا افسدها واذا هذبها فهي ملاك .

ومن امثال القائلين بهذا الرأي : « الفرس من ورا الفارس – خد عن الطريق وحوز ».

المال

ويراعون المساواة في درجة الغنى بين طالبي الزواج كما في غير ذلك من الشؤون كالعمر والجاه والثقافة والاخلاق وذلك يعرف مما يروونه عن شاب قيل له لماذا لا تتزوج؟فاجاب : « بنت الحصيره (اي الفقيره) ما متريدها وبنت السجاده (اي الغنية) ما بتريدنا » وقد درجت العادة في لبنان ان يجري تبادل المصاهرات بين اسر معلومة متكافئة في مكانتها وكرم اصلها : « يا متلنا تعال لعندنا – قدره ولاقت غطاها – الدار مكتوب على بوابها ما بتجيب الا مثل صحابها – على شكله شكشك له – كما حنا كما حنين والحسن اخو الحسين » .

واذا لم تكن مساواة بين الخطيبين فيندر ان يتم بينهما زواج : « اللي ما بيقدر على الفرس وعليقها يحيد من طريقها ».

والغالب ان لا يسأل الشاب اللبناني عن مهر العروس وبائنتها بمقدار ما

يسأل عن اخلاقها وآدابها وما يقوله الناس عنها لان : « الصيت الحسن خير من المال المجموع – والمليح مليح الخصايل ».

ويقولون بهذا المعنى: «يا آخد القرد على ماله راح المال وبقي القرد على حاله»

ويوصي الفلاحون اولادهم : « لا تاخدوا ألّا بنت القلّه وارض الخلّه – خدوا فقرا يغنيكم الله ».

اما البنات فيهمهن جداً وقبل كل شيء آخران يلاقين نصيباً لان في بقائهن الحياة بغير زواج شيئاً من المرارة والعار لذلك قالت الامثال : «زوج من عود خير من القعود – الرجّال لو كان فحمه وجوده في البيت رحمه » ويقرب من هذا قول فتاة لامها تعاتبها: « على الحطب كبيره وعلى الزواج صغيره؟ ».

والعادة ان يراعى سياق العمر في التزويج فاذا تروّجت الكبرى قالت اختها الصغرى : « تروّجتْ اختي مَن كبر بختي ».

ومنهن من تؤثر في الرجل جماله : « الشاب العيّوق ولا المال اللي في الصندوق » . وغيرها تؤثر صحته وقوة جسمه : « خدي رجّال الشغّال ولا تاخدي صندوق المال » .

امّا الفقيرات فيؤثرن الشاب الغني لقسوة ما يتحملنه من اذى الفقر : « لا يغرّك الشاب وترويقه بيمسي وبيصبح على ريقه. زوّج الفقيره للفقير بيكتّروا الشحّادين – اللي بيتروج بالدّين بيبيع ولاده بالفايده».

واذا رفضوا تزويج فتاة ممن لا توتهم حالته غالوا في طلب مهرها : « ما بدّك تروّج بنتك غلّي نقدها » ويؤمن اصحابهم على عملهم قائلين : «خبّي العسل بجراره لتجي اسعاره »

ويحاذرون تزويج بناتهم ممن يتغيّب كثيرًا عن منزله: « عمرك ما تاخدي مكاري ليله عندك ليله بالبراري » .

ويؤثرون تزويج اولادهم ببنات من بلدتهم لمعرفتهم ماضيهن : « اللي بيتروج من بلده مثل اليشرب من الكبايه . واللي بيتروج من الغربه متل اليشرب من بريق الفخار – تروّجنا وجبناها غريبه زوان بلادنا ولا القمح الصليبي – بنت بلدك بتحملك على المليح والوحيش».

كذلك يؤثرون ان يكون الزوج من طائفة البنت ومذهبها لان الوحدة في المعتقد تساعد على الانسجام والتفاهم : «من أخذ من غير ملته وقع في عله غير علته».

ومن الشبان من يجابههم الفشل كلما صمموا على الزواج لاسباب قد يكونون هم منشأها : «كلما قلت بدي اتزوج بيمرج حماري وسيقانه بتتعوج»

العرس

ولا بدّ قبل العرس من التفاوض لتنظيم الحفلات وتوجيه الدعوات والعادة ان يجري ذلك مع امي العريس والعروس ، وقد ضرب المثل ببراعة من يقوم بنقل هذه المفاوضات بينهما لما تستوجبه من دهاء وزلاقة لسان: فاذا قيل: «فلان بيدخل مع ام العروس وبيطلع مع ام العريس» فهم انه مراوغ مراء يلبس لكل حالة لبوسها .

ويقال للتي تنهمك في عمل غير ذي فائدة : « فلانه فاضيه مشغوله مثل ام العروس» لان الاعمال المتعبة في العرس تتعاون عليها القريبات والصديقات ولا يبقى على ام العروس الا مهمة الاستقبال والإشراف.

ويقال لمن يطلب عارية من صاحبها حين حاجة هذا اليها : « ليلة عرسك عيرني قرصك» (القرص هو الطنطور كانت تلبسه العروس في حفلة الزفاف) . ومثله « ليلة زفك عيرني دفك» (الدف آلة طرب تستخدم في حفلات الزفاف).

ومن عادة اللبنانيين في خروجهم بالعروسين الى المعابد لاجراء حفلة العقد الّا يعودوا في الطريق نفسها تشاؤماً ويشيرون الى ذلك بالمثل القائل: « مثل العراسة بيروحوا على درب وبيرجعوا على درب »

اما النقوط وهو مبلغ من مال كان الاهل والاصدقاء يقدمونه للعروسين على سبيل المساعدة فقد جرت العادة ان يرقص به مقدّمه في« الحلقة » ثم يضعه على طبق أعدّ لذلك وعليه انواع الشراب والنقل وفي ذلك قالوا : « واحد رقص والثاني حطّ النقوط » وهو قريب من قولهم : « ناس اكلوا الدجاج ناس وقعوا في السياج — واحد طبخهُ ما ذاقه والثاني كبّر مشداقه » .

سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيدُ وهذا يأكل السمكه

ويقال لمن يشكرون قريباً او صديقاً : « مين بيجي مع البنت امها — مين بيشكر العروس امها وخالتها واهل حارتها ».

والعروس تسرّ بجهازها وبالافراح القائمة في عرسها وبمن يتطوّع لخدمتها من الصواحب والاهل ، فتتوهم ان الايام ستظل طوع يدها على هـذا النحو فيقال لها عبرة وتذكيراً : « لا تفرحي بطيّ جهازك يا ما بدك تجلي قدور. لا تفرحي بكحلك عرسك ياما مخبالك ... »

بعد العرس

اذا كان العروسان على وفاق بعد العرس غبطها الناس وقالوا عنها: « قرين على فرد مخدة » والعروس عندهم : « وشواشة المخدة ما عليها متبدي ».

ويقولون عن الزوجة التي تعرف كيف تداري زوجها : « اللي زوجها معها بتدير الفلك باصبعها » — وقالوا ايضاً : « اذا كان زوجي راضي شو دخل القاضي »

واذا كمل تفاهم الزوجين رضي احدهما بما يفعله الآخر ولو كان مما لا يوجب الرضى : « ايش ما طبخت الرعنا بياكل زوجها الاعمى » وان تبرّجت الزوجة وافق الزوج على ما تفعل ولو كان مما قد يعرضها لنقد الآخرين : « قالت يا رجّال بدي اتحنى ، قال لها يا مرا انا بتمنى ».

وان لم يكن تفاهم لم يكن وفاق : « قالت يا رجّال بدي بابوّج قال لها يا مرا رجليك عوج » وقد تكون رجلاها مستقيمتين .

وقد يعنت الزوج زوجته في رفض ما تطلب فتعمد الى الدموع ترقق بها قلبه القاسي : « دموع المرا سلاحها — دموع الفواجر حواضر » . والمرأة هي العمدة في تدبير البيت وترتيبه والاقتصاد في المنفعة بحيث تضع الشيء في محله فلا تكون بخيلة كما لا تكون ايضاً مبدرقة ولهم في ذلك امثال منها : « الرجّال جنّا والمرا بنّا — الرجّال جلّاب والمرا دولاب » .

على ان الزوجين اذا ما شجر بينهما خلاف اصبحت حياتهما جحيماً فيقول الزوج : « تزوجنا لنستر رزق الله على العزوبية » وتقول الزوجة : « لا من بيت ابونا ولا من اللي تزوجونا » . وتقول ام العروس : « يا بنتي زواج زوجتك ولكن حظ منين بدي جبلك ».

وقد يشتدّ الخلاف بين الزوجين فتترك الزوجة البيت الزوجي وتعود مع من تكون ُرزقت من البنين الى بيت ابيها شاكية باكية ، فاذا كانت هي المذنبة قالوا لها : « الطريق اللي جيت. عليها ارجعي عليها » لان : « المرا ما لها غير زوجها — والمرا بلا رجّال قلعة بلا جبال » وان كان هو المذنب وتكررت اساءته اليها استقبلوها مع من معها قائلين : « البيت اللي ربّاك ما بينساك ». على انهم قد يتأففون ممن يرافقها من بنين لا يرون ما يوجب عليهم اعالتهم فيقولون: « زوّجت بنتي لارتاح من بلاها جات وجابت ولادها وراها ». ويقول آخرون: «زوّجت بنتي لاقعد في حماها جات وجابت جراها».

وقد يحل بالزوج نكبة فيضطر حموه الى اعالته مع زوجته ومن له من اخوة واخوات. وفي مثل هذه الحال يقول والد الزوجة : « زوجت بنتي لارتاح من همها جات وجابت زوجها وولادها وولاد عمها (اولاد حميها) » وربما اضطر الاب بعد جنوحه الى حياة الراحة ان يعود الى العمل ليقوم بالعبء الجديد الذي جاءت ابنته بعد زواجها تثقل به كاهله ، وعندئذ يقول : « زوجنا بنتنا لنستريح عادت حملتنا المنجل والشطيح » (الشطيح قفاز من جلد يُستعان به في الحصاد ، ولعلّ الكلمة من السريانية).

واذا احبّ شاب فتاة عاقلة في اسرة تحوم عليها الشبهات أخذ زوجته التي أحبها ورأى فيها من الاوصاف ما أوجب احترامه وقلب لأهلها ظهر المجن وهو يقول : «اخدت من الحزمه عود ، والباقي تاخده القرود».

ومن النسوة من لا تبدي نشاطاً في عمل الّا اذا كان متعلقاً بالتجمل والزينة : « جتني الشطاره جتني يا زوجي ُمْ مشّطني». ومنهن الجاهلة التي تخرب بيت زوجها لتطعم اهلها الذين لا يلبثون ان ينكروا معروفها ، ومنهن العاقلة التي تعرف ان ليس لها ولبيتها الا ما تقتصده من القرش الابيض لليوم الاسود : «حبّوني اهلي وانا غنيّة وحبني زوجي وانا قويّه».

والمرأة التي تطيع زوجها تسمّن عظامه كما قال الكتاب وتملأ بالاغتباط قلبه : « تلاتة بتطول العمر: الدار الوسيعه ، والفرس الطليعه، والمرا المطيعه».

والزواج الباكر يساعد على نمو النسل وقوته : « زوّج ابنك وهو ولد بيجبلك ولد — تزوج بجهلك وربّي ولادك عا مهلك ».

واذا كره الزوج زوجته اختلق لها الذنوب من تحت التراب ،كما أشير الى ذلك في مثل على لسان امرأة قالته لزوجها الذي كان يكرهها ويبالغ في إعناتها بطالبه :« حلو ومالح طبختلك — وبرّا وجوّا فرشتلك — لكن درب التبّانه ما حبيتلك» درب التبانه عند العامة هي ما يسميه العرب «نهر المجرة» وهو منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة بينا تكون في اول الليل متجهة من الشرق الى الغرب اذ بها تظهر بعد ساعات متجهة من الجنوب الى الشمال . ويقولون ان الرجل غضب على زوجته لانها لم تجعل اتجاه فراشه موافقاً لاتجاه المجرة وهو اعنات لم يسمع بمثله .

والحياء اجمل حلية للمرأة وقد قالوا: « مرا بلا حيا طعام بلا ملح » .

والزوجة الشريرة لا تُعرف الّا بعد مرور مدّة على زواجها فيبدو المخبأ من جوهر اخلاقها وقد قالوا : « المرا اول سنه عروس، وتاني سنه جاسوس ، وثالث سنه حيّه بسبع روس ».

وقالوا لمن يوالي او يعدّد زوجاته :« اول مره مرمرة ، ثاني مره سكره ، ثالث مره عنبره ، رابع مره تودّي للمقبره ».

واذا كثرت النساء في البيت الواحد تعطلت الاعمال فيه وقد قالوا في ذلك :« اذا كثروا الطباخين شوشط الطعام — بيت الوحده عمران ، وبيت التنتين خربان ، وبيت التلاتة ساكنه الشيطان ».

ويقرب من هذا قصة ذاك الذي تزوج من امرأتين حانا ومانا . وكان قد وخطه الشيب فجعلت الكبيرة منها تنتزع من لحيته الشعر الاسود ليبدو شائباً في مثل سنها ، والصغيرة تنتزع منها الشعر الابيض ليظل مثلها محتفظاً بمظهر الفتوة والشباب ، وعلى هذا النحو اصبح امعط الوجه اجرد الذقن فقال كلمته التي ذهبت مثلاً :« بين حانا ومانا ضاعت لحانا!».

وللمرضع نصيب في امثالنا اللبنانية فما تقوله فيها :« كل مع المرضع ولا تماشيها » لانها تأكل لاثنين بل لاربعه :«المرضعه بتاكل قدّ اربعه » ولانها تسرع في طريق منزلها للاهتمام برضيعها .

والفتاة المتزوجة مهما طال عليها المطال في بيت زوجها تظل تهفو الى العش

الذي درجت منه ، والى نوع المعيشة الذي اعتادته فيه. يُحكى في هذا المعنى ان امرأة اهلها فقراء تزوجت من احد كبار الاغنياء. فكان همه ان يوفر لها جميع اسباب الترف والراحة ، على انها كانت ابداً تتلهف على عيشها في بيت ابيها وتقول لزوجها : « يا ما كان احلى نقل بيت بيي ونوم الكرخ ! ».

فلم يسع الرجل الّا اخذها بنفسه الى بيت ابيها ليرى بعينه ما هو ذلك الذي كانت تتلهف عليه وتحنُّ اليه ، واذا « بالنقل هو البلوط المشوي » و« بنوم الكرخ » هو النوم الى جانب الموقدة على جلد خروف دون ما غطاء، فتعجب الزوج من امرأة تعيش في بحبوحة النعم مثل زوجته تحنّ الى تلك التوافه وتشتاقها ناسياً ان ما يعتاده المرء في صغره ، وان يكن غير ذي بال ، يظل له اثره في نفسه طوال حياته .

الترمل والزواج مجدداً

تهتم المرأة اللبنانية كثيراً لموت زوجها وتتمنى لو سبقته الى القبر : « اللي ربنا متمم سعادتها بيطلع زوجها في جنازتها » وذلك لانه « ساتر عرضها » و« عمود بيتها » و « الحارس الامين لاولادها » — ومن اقوالهم في موت زوجة الفلاح : « اذا ردت خراب بيت الفلّاح ادعي عليه تموت مرته او تموت بقرته » لان المرأة تسانده في جميع اعماله الزراعية فوق قيامها باعمالها المنزلية.

وشاعت اقوال حول موت الزوجة قد تصدق على بعضهم ، لكن اكثر اللبنانيين ينكرونها ولا يرددونها الّا بالاستهجان منها قولهم : « موت المرا تجديد عرس — موت المرا مثل دقة الكوع » اي انه يؤلم موقتاً ويزول اثره سريعاً .

ومهما يكن من امر فالارمل لا يطول به الوقت حتى يُفكر ثانيةً في الزواج بدليل قولهم : « اعزب دهر ولا ارمل شهر » لكن اذا كان له اولاد صعب عليه الحصول على « بديله » أي زوجة جديدة اذ يُقال لمن يطلبها : « الحقي عكا ورواد ولا تآخذي ارمل عنده ولاد » على ان المناظلات كثيرات و« كل مطلوب موجود » والبديله بعد وصولها الى بيت الزوج يدعوها الاولاد : « خالة » وقد قيل فيها : « الخالة مرة الاب لا بتحب ولا بتنحب » . وهنا المشكلة الكبرى .

وجحا (الرومي المشهور) الشائع ذكره في لبنان قصص عديدة مع خالته ترددها الالسن. منها: انه كان على جبانته وانحطاط همته كلما سنحت له فرصة ينهال عليها بالضرب حتى لقد قيل: «متل جحا ما فيه الا الخالته — قلنا مات جحا واسترحنا منه رجع وقال صباح الخير يا خالتي — جحا ذبح بقرة خالته وكل من عنده سكين جابها» وهذا مثل آخر يدل على سقوط شأن الخالة عند اولاد الزوج وهو قولهم: «مثل اللي مضيّع جحشة خالته ان لاقاها بيغني وان ما لاقاها بيغني».

ومن الاولاد من لا يرون فائدة تذكر في محبة الخالة لهم فيقولون: «ان حبتني خالتي عالتنور، وان بغضتني عاالتنور» ويرى غيرهم ان التقرب اليها يحسن من حالهم في العيلة: «ان حبتني خالتي طعمتني نقول وان بغضتني نيستني عاالتنور».

امّا اولاد الارملة التي تترك اولادها وتتزوج فيكرهونها وزوجها معاً الا اذا كانوا عند زواجها لا يزالون صغاراً وفي حاجة قصوى الى عطفها وحنانها

امّا الزوج فيعامله اولاد الزوجة باللامبالاة: «اي من اخد أمي صار عمي»

وان لزمتهم حاجة كرهوا ان يسألوه اياها لمعرفتهم انه لن يأتيهم بها: «حاجة لا تهتّك وتّي عليها زوج امّك».

ويلاحظ ان رابطة الاخوة بين اخوين من ام واحدة وابوين مختلفين هي من الضعف بحيث لا تعدّ شيئاً مذكوراً ولذلك قالوا: «اخي من امي مثل الهوا في كمي».

والارملة ان كانت عاقراً عادت الى بيت ابيها وان كانت ذات اولاد فامّا ان تسهر على تربيتهم وخدمتهم قانعة من بهارج الحياة بهم، وامّا ان تتركهم وشأنهم لتنتقل الى عصمة زوج جديد. ومهما يكن من امر فزواج الارامل قلّما يكون سعيداً لما يرافقه عادة من مرارة المقابلات والذكريات. والارملة - تقول الامثال اللبنانية — انها لا تحسن التربية: «الارملة ان ربّت تور ما فلح، وان ربّت كلب ما نبح» والمنتظر ان تتصدق المتزوجات عليها لفقدانها

عمادها وسوء حالها ولذلك يقال : « يا ارامل يا بنات تصدقوا عالمتزوجات » للشيء يوضع في غير موضعه .

وفي المثل القائل : « لولا القربله وهز الخالي كانت الارمله تستغني زماله » (الزماله عندهم : الفرس . ما يدل على اعتبار الارملة في لبنان شحيحة الحال محدودة الموارد محتاجة الى من يمدها دائماً بالايد والمعونة .

الحماة والكنه

يتكلم اللبنانيون كثيراً عن العداء المستحكم بين الحماة وكنتها ، ويقولون انه عداء تقليدي قل ان لا يقع ، وان وقع كان من الصعب علاجه . ولعل السبب في ذلك رؤية الحماة سلطانها في المنزل يتضاءل ويحل محله سلطان كنتها بما لها من روعة الشباب ونفوذ الكلمة في زوجها واولادهما ، ولذلك قالوا : « ما في كنه بتحبها الحما ، ولو كانت نازله من السما » ومنهم من يورد هذا المثل نفسه في القالب التالي : « مكتوب على باب الجنه ما عمرها الحما بتحب الكنه » .

وقد يتوسط المحبون لاصلاح ذات البين بين الحماة وكنتها فاذا لم تنجح وساطتهم لما لاقوه من عناد الحماة اوردوا لها المثل التالي : « قالوا يا حما ما كنت كنه ؟ قالت : كنت ونسيت » .

وان سألوا الحماة عما تشكوه من اغلاط كنتها واخطائها اوردت لهم منها الشيء الكثير . وقد تسمعهم المثل التالي : « عندي كنه ما اكرم شانها بتشيل الطبيخ بكمامها » لاهمالها عمل « الشيَّال » الذي لا يستغنى عنه في المطبخ .

وقد يتوسلون لاعادة الصلح بين الحماة والكنة بتذكير الاولى ان كنتها هي مربية اولاد ابنها والساهرة على صحتهم ، فاذا لم تتوفر لها الراحة والعيش الهني فقد يؤدي سوء حالها من حيث لا تريد الى الحاق الاذى باولئك الاولاد وعلى ذلك قالوا : « حبوا كناينكم تعيش بنينكم » .

وكثيراً ما تختلف الحماة والجاره وتتقاطعان . وفي مثل هذه الحال يصح المثل القائل : « الحكي للكنه لتسمع الجاره »

ومن الكنائن من يحسبن تحامل حمواتهن عليهن غضباً علوياً فيقلن: «لا حما ولا ضرّه الا سخطه من الله».

ولحما مع حماته اقوال وحوادث ترددها الالسن، اشهرها قولهم: «حما ما فيه لحماته بيقتل مراته» (يضرب لمن يتشفى بايذاء المهين لعجزه عن ايذاء المتكبر المستقوي)

الاخوة في كنف والديهم

كثيراً ما يعيش الاخوة في كنف والديهم حتى لو كبروا وتزوجوا وولد لهم بنون وبنات فان ذلك لا يمنعهم من ان يقيموا جميعاً مع نسائهم واولادهم واخوتهم واخواتهم تحت سقف واحد يأكلون على مائدة واحدة مفاخرين بأنهم «لا يقسمون ما بينهم الا ما حرّمهُ الله»، والمتعارف ان يقتفي الابناء طريقة والدهم في سياسته وعلاقاته ويقولون: «ما يعقده الاب لا ينقضه الابن — محبة الآباء تتصل بالبنين».

والاخ يناصر اخاه لانه في عرفهم «جناحه»، ولكن للاب الاولوية في الحنان والعطف: «من قال خيي مطرح بيي كان كذاب عليي» بيد ان الوفاق قد ينفصم حبله في بعض الاسر لدواع مالية لان: «القرش يفرّق الاخ عن اخيه» ولكن الاصحاب لا يلبثون ان يتدخلوا لاصلاح ذات البين فيقولون لهم: «كونوا اخوه وقسموا قسمة الحق — عيشوا اخوه وتعاملوا كالاجانب».

اما الاخوات فيحاذرن العار خوفاً من ان يجرحن كرامة اخوتهن: «اللي بيعرف خيي يميّزه فيّ». على انهن يتألمن ان نظرن اخوتهن منحرفين الى تفضيل زوجاتهم عليهن ويقلن: «الاخ اخو مراته والاخت بتحلف وحياته».

توقير الجدود والجدات

ويكبر الاحفاد منذ صغرهم على توقير جدودهم وجداتهم وتهيب مجلسهم متأثرين بما يرد عليهم من مثل هذه الامثال: «وقروا كباركم بيوقركم صغاركم — الكبير بركه — اللي ما عنده كبير يشتري له كبير — اللي ما بيسمع من كبيره يا قلة تدبيره».

واذا لم يكن للابناء صغار انصرفوا الى تدليل والديهم :«صغار ما عندكم دللوا شيوخ بيتكم ».

- والشيب دليل النضج والحكمة والوقار : « كلما شابت طابت — الشيبة هيبة . فاذا لم يوقر الشايب نفسه قالوا له :« الشاب عند طلوعه والشيخ عند فروغه – بعد الكبره جبّة حمرا »لان الاحمر عندهم ملبوس الصغار والشبان.

واذا حاول الشيخ التصابي والعودة الى عهد الشباب بالصباغات والالوان قالوا له :« يا طلبة اللي ما بتستجاب يرجعوا الختيارية شباب » . وهل يصلح العطار ما افسد الدهرُ ؟ .

اما العجائز فيعرفن ان الافضل لهن تجافي مجالس اللهو حيث معارض الشباب والجمال متذكرات المثل القائل : «حط الصبايا في القصر وتفرج عليهم ، وحط العجايز في القبر وسكّر عليهم ».

والكبير ينصرف الى الراحة فاذا حاول العودة الى ما يعمله الشبان قالوا له :« بعد ما كبر وشاب ردّوه للكتاب».

ومما يتمدحون به الشيوخ قولهم :« عقل الكبير كبير – اكبر منك بيوم اخبر منك بسنه – ما في لحم الا في العتيق – اعرض بشبّ وقاتل بختيار ».

وقد يتطاول صغير على كبير فيقولون للمتطاول:«كبر السبع صار مسخره للكلاب!» ويهونون على الشيخ هذا التطاول بقولهم : « وعا الكبير بيساع الصغير » واذا بدا من الشيخ شيء من نزوات شبابه قالوا : « من شبّ على شيء شاب عليه » وان كان الشيخ ممن يريدون فرض حرمتهم على الناس بغير وسائلها المألوفة، قالوا له:«مثل شيخ النور كبير عند نفسه صغير عند الناس» واذا تناهى باحدهم الكبر الى حدّ الخرف قالوا : «الكبر عبر » .

وهم يحرّضون الشيخ على تناول المأكولات المقوّية قائلين : « ما بيقوم بالختيار غير ضرسه » .

وربما نبغ شاب من اسرة لا حسب لها ولا نسب فاضطر الكبير الى مجاراة الناس في توقيره وتكريمه عملاً بالمثل القايل : « كل صغير انتشى باس الكبير ايده ».

العمومة والخؤولة

يوقر اللبنانيون الاعمـام والعمّات والاخوال والخـالات توقيرهم لآبائهم وأمهاتهم . ومن اقوالهم في العم :« عمك حمّال همك – عمك لا تعمعم عم غيره » . ويقولون عن العمة : العمّه بتعم بتربي مطرح الام » وهناك من يرى في الاعمام والعمّات غير هذا الرأي . قيل : سأل احد الاعمام ابن اخيه :« ليش عم تبكي وانا عمك ؟ » اجاب :« كل بكايي بجيتك عمّي ».وقال آخرون : « العم عما » وقد قدمنا قولهم :البنات من صدور العمات .

وهكذا نظرهم في الاخوال والخالات . فمنهم من يحبونهم ، لانهم :من ريحة الام» ومنهم من يذكرون عداوات كثيرة وقعت لابنـاء الاخت مع اخوالهم وخالاتهم . ويتمثل هؤلاء بالقول المشهور:« ابن الاخت عدو الخال» ولكن هناك قولاً آخر يعارضه وهو المثل المذكور سابقاً :« الصبي لو بار بيطلع تلتينه خال ».

على ان اللبنانيين اجمالاً معتصمون بالمحبة العائلية، غيارى على انماء العلاقات الاهلية ولهم في ذلك امثال منها قولهم : « اهلك ولا تهلك – اللي ما فيـه من دمك ما بيعطل همك – الدم مـا بيقلب مـاء – قرايتك ان لوسك ما بلعك – الف عدو برّا الدار ولا عدو جوّا الدار – يا ليت لي قرابه ولو كان من ترابه » ويشبهون القريب لقريبه بالثوب للجسم يرد عنـه الاذى :« اللي بيقلع ثيابه بيبرد ».

ولاهل الزوجة دالّة خاصة على المنزل الزوجي فيؤذن لهم في اية ساعـة بدخوله ، دون تنبيه ولا استئذان : « ان كنت من اهل المرا ادخل بدون مشوره ، وان كنت من اهل الرجال حِط من شْوار الدار » وهـذا المثل يذكرنا على الخصوص بعادة قديمة في لبنان ، ما زالت تحترم حتى اليوم في الجبال لا سيا في منطقة الشوف وهي: ان الزائر الغريب لا يدخل بيت مزوره الا بعد ان يقف في الخارج وينادي بصوت ممدود : « يا اصحاب البيت! » فيجاوب

من في الداخل بكلمة: « اهلاً وسهلاً » بيد انه يتربّص تأدباً ولا يدخل الا بعد ان يظهر صاحب البيت ويدعوه باشاً ملحاً.

* * *

هذه صورة تمثل العيلة اللبنانية في وضعها الصميم الاصيل دون ما تنميق ولا ترويق، وذلك ليس في العصر الحاضر فحسب، بل منذ العصور التي وضعت فيها هذه الامثال العريقة في القدم، والتي منها تستمد صورتنا هذه جُلّ ما لها من بهاء وروعة .

وصف عاصفة

في عاليه نجد

(لامرئ القيس)

محاولة في الادب المقارن

بقلم الاب فريد جبر اللعازاري

اَصاحِ تَرى بَرقاً أُريكَ وَميضَهُ ... كَلَمعِ اليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضيءُ سَنَاهُ، او مَصابيحِ رَاهِبٍ ... امالَ السليطَ بالـذُبالِ المُفَتَّلِ
قَعَدتُ لَهُ وَصُحبَتي بَيْنَ ضارِجٍ ... وَبَيْنَ العُذَيْبِ، بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِ
عَلا قَطَنًا بالشَيمِ أَيمَنُ صَوبِهِ ... وأَيسَرُهُ على السِتارِ فَيَذْبُلِ
فَأَضحى يَسُحُّ المَاءَ حَولَ كُتَيْفَةٍ ... يَكُبُّ على الأذقانِ دَوحَ الكَنَهْبَلِ
وَمَرَّ عَلَى القَنَانِ مِن نَفَيانِهِ ... فَأَنزَلَ مِنهُ العُصْمَ مِن كُلِّ مَنزِلِ
وَتَيماءَ لَم يَترُكْ بِها جِذعَ نَخلَةٍ ... وَلا أُطُماً إِلّا مَشيداً بِجَندَلِ
كَأَنَّ ثَبيرًا في عَرانينِ وَبْلِهِ ... كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ
كَأَنَّ ذُرى رأسِ المُجَيمِرِ غُدوَةً ... مِنَ السَيلِ والغُثاءِ فَلكَةُ مِغزَلِ
وَالقى بِصَحراءِ الغَبيطِ بَعاعَهُ ... نُزولَ اليَماني ذي العِيابِ المُحَمَّلِ
كَأَنَّ مَكاكِيَّ الجِواءِ غُدَيَّةً ... صُبِحنَ سُلافاً مِن رَحيقٍ مُفَلفَلِ
كَانَ السِباعَ فيهِ غَرقى عَشِيَّةً ... بِأَرجائِهِ القُصوى انابيشُ عُنصُلِ [1]

---

١) ويجد القارئ شرح هذه الايات في كتب الادب جميعها ؛ ونخص بالذكر هنا « الروائع » (جزء ٧ طبعة سنة ١٩٣٣) ، و« الادب العربي في اثار اعلامه » للاستاذ فؤاد افرام البستاني ؛ ولا ننسى الى هذين الكتابين « المجاني الحديثة » عن مجاني الاب شيخوه الذي نشر بادارة الاستاذ المذكور ، و« المنتخب من ادب العرب » لحضرات الاساتذة طه حسين ، احمد الاسكندري ، احمد امين ، علي الجارم ، عبد العزيز البشرى ، احمد ضيف (مطبعة بولاق في القاهرة).

اما قصدنا من البحث في هذه القطعة الآن، النقد والتحليل الادبي مع كل ما يستلزم من قوانين واساليب . وجميعنا يعلم ان غاية النقد الادبي الاولى، ان نفهم الاثر الادبي الذي نحن في صدده، لنرى الى اي حد نستطيع ان نتذوقه ونتلذذه ونمتع انفسنا بما فيه من جمال فني. فنصرف هكذا مجهودنا الى درس تطوّر العاطفة، وهي العنصر الرئيسي في كل قطعة ادبية، والى تحليل ما يستتبع هذا التطور من خيالات وصور تتخذها العاطفة كقوالب تبرز ضمنها للبصر والسمع.

نعم، قد لا يكفي ذلك، اذا ما كان درسنا في اثر ادبي يضاف الى العصر الجاهلي، لا بل الى اوائل هذا العصر، شان مقطوعتنا ولكي نعمل بمقتضى الاساليب والقوانين النقدية جميعاً، لا بد لنا، قبل تحليلنا العاطفة والخيال من ان نتساءل هل كلا العنصرين، في نصنا صادق، جدير بان نستسلم اليه دون تردد، او زائفة مصطنع، ليس من صاحبه في شيء، بل هو منتحل اليه انتحالاً، مفتعل عليه افتعالاً. . ولربما كان الامر بين الطرفين، فالى اي حد؟ .

الا ان معضلة صحة اشعارنا هنا، وصحة اضافتها الى امرئ القيس، وصحة وجود امرئ القيس هذا، ان هذه المعضلة، رغم كونها عملاً تمهيدياً للتحليل الادبي الصحيح، قد لا تتضح وقد لا يستقيم البحث فيها، الا بعد التحليل الدقيق فتبرز حينئذ شخصية صاحب المقطوعة على وجه اتم واوضح، ويتسنى لنا حينئذ ان نبدي في امرها رأياً معقولاً مقبولاً[1] .

فنحن اذن، والامر على هذه الحال، نرجي الى ظروف اخرى، التمحيص العلمي، والتحقيق النصي؟ ونكتفي الان بمجرد التماس الجمال الفني الادبي من نصنا هذا، لنستخرج قيمته الانسانية الخالدة، مرتضين اصطلاحياً باضافته الى امرئ القيس، ومرتضين ايضاً مبدئياً بحالته هذه، على النحو الذي انتهى به الينا عن سبيل الرواية، شفهية كانت ام كتابية .

* * *

١) انظر في هذا الراي كتاب الاب عبد الجليل . باريس، ١٩٤٧، ص ٣٦ .
Jeam Abdel-Jalil O. F. M. *Brève Histoire de la Litt. Arabe* ; Paris, 1947

وجميعنا يعلم ان ابياتنا هذه وردت في آخر معلقة امرئ القيس المعروفة بمطلعها « قفا نبكي من ذكر حبيب ومنزل » فاشتهرت بـه ، وكان صاحبها هكذا ، على زعم الرواة ، اول من « وقف واستوقف وبكى واستبكى ».

ولقد الفنا ، عملاً بما قبسناه عن كتب الادب ، ولا سيما القديم منها ، ان نشير الى هذه الاشعار بالعنوان : « وصف البرق والمطر والغيث » ، فنذهب منها الماء والحياة ، وتصبح ، شأن الفسيفساء ، مجموعة ابيات بديعة ، رصفت بعضها وراء بعض ، لا وحدة ادبية فيها ولا رونق فني ، وهي على علاتها من حيث النقد النصي ، طافحة بكلا الميزتين . ولذلك ظننا من حسن الراي ، ومن التوفير لكل هذه القيم الفنية ، ان نتقيد بالفكرة التي سبق اليها المستشرق الانكليزي « شارلس لايل » ، ثم تبعه فيها مواطناه « نيكلسون ، وجيب »[1] ، ونجمع ابياتنا بالعنوان الذي ذكرناه : « وصف عاصفة في عاليه نجد » فيلذ لنا ، مهتدين هكذا بهذه الفكرة ، التي تخلع الوحدة التاليفية على نصنا ، ان نجلس الى جانب شاعرنا ، بين « ضارج والعذيب » ، ونتتبع معه تطورات هذه العاصفة ومراحلها ، من ابدائها ، من وميض البرق ، حتى انتهائها ، وآخر نتائجها ، هذا المطر الذي استحال في بعض الاودية ، الى سيل عظيم ، اباد السباع واماتها ، ثم احتملها طافية على وجه مائه ، منقلبة على ظهورها ، تبدو من رؤوسها خراطيمها ، منتشرة مبعثرة ، فتظنها عن بعد ، نبات « العنصل » وقد نبش عن اصوله وطرح على الارض راساً على عقب .

واطالما اثار هذا المشهد الطبيعي شاعرية العرب في صحرائهم . فهناك لبيد ، وهناك ابو دؤاد ، والكثير والقطامي وعبد بني الحسحاس وابن ذؤيب وساعدة ابن جويه وابن الرقاع وابن مقبل . وان ننس فلا ننسى اوس بن حجر وقصيدته الحائية . واي اديب عربي ، اثناء كلامه عن وصف البرق والمطر والغيث ، لا

١) راجع كتاب « شارلس لايل ص١٠٢ - ١٠٦ . وكتاب نيكلسون ص ١٠٧ . وكتاب « جيب » في الادب العربي .

Charles Lyall, *Translations of Ancient Arabian Poetry* . London, 1930.
L. Nicholson, *A Literary history of the Arabs.* – Cambridge. 1941. [A. Gibb, *Arabic Literature.*] , Oxford 1926.

يتذكر هذا الاخير وتحليل « طه حسين بك » لمقطوعته في هذا الباب . ونحن نرجع دائماً ، وباي تلذذ وباي تنعم ، الى هذين البيتين منها :

يا من لبرق ابيت الليل ارقبه   في عارض كمضيء الصبح لماح
دان مسف فويق الارض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

وناهيك بالتحليل الوجيز الدقيق الذي يجمله لها اديبنا العصري[1] . . .

فهؤلاء الشعراء جميعاً ، النابهون منهم والخاملون ، وصفوا البرق والمطر والغيث في الصحراء العربية . وكان هذا باباً مطروقاً اذ ذاك[2] . ولقد اوردنا اسماءهم هكذا حسب ما تذكرناهم - . وقد يكون في المقارنة والمقابلة بين شعرهم وشعر امرئ القيس بحث ظريف ، الا ان ذلك قد يعدل بنا عن موضوعنا ، وهو درس مقطوعه الضليل مستقلة بنفسها . حتى اننا نصرف النظر عن مقطوعتين غيرها في ذات الباب ، تنسبان لشاعرنا : الاولى منها على البحر الطويل شأن مقطوعتنا ، يستهل بها ضادية يعرض فيها لاغراضه المألوفة من وصف صيد ونسيب ، ويختمها ببيتين في الحكم - . والثانية رائية صغيرة على بحر الرمل في مجرد وصف السحابة والمطر ، ذكرها الاب شيخو في كتابه « شعراء النصرانية » وعلق عليها . ثم قال حضرة الاستاذ - سمك فيها شيئاً ذاكراً كلام الاب ، من ان هذه القطعة احسن شعر جاء في وصف الغيث . ولربما اخذ الاب المذكور هذا الراي عما يحدث الاصمعي عن عمرو بن العلاء . اذ سال ذا الرمه : « اي الشعراء الذين وصفوا الغيث اشعر » فاجاب : امرؤ القيس وانشد قوله :

دِيمَةٌ هطلاء فيها وَطَفٌ   طَبَقُ الارض تَحَرَّى وَتَدُرّ[3]

فنحن اذن ندع جانباً كل هذه الاثار الادبية لكي ننفرد باثرنا وحده ونخلله ونشبعه درساً وتدقيقاً ، فنرتاح ، كما قلنا ، الى شاعرنا جالساً مع صحبته بين ضارج والعذيب يتاملون جميعاً تقلب ذلك الحبي المكلل البعيد الذي شق جوانبه وميض البرق في الافاق . فهو ضخم عظيم يقدر الفتى امتداده من جبل

١) في الادب الجاهلي ، طبعة ١٩٢٧ . ص ٣٠٢ .
٢) انظر « صفة جزيرة العرب » للهمداني طبعة ليدن سنة ١٨٨٤ . ص ٢٢٣ - ٢٢٤
٣) « المجاني الحديثة » بيروت ١٩٢٦ . ص ٥٢ .

قطن يميناً الى جبلي الستار ويذبل من ناحية الشمال . ثم ياخذ في وصف المطر المتساقط من هذه السحابة ويذكر الاماكن التي يغمرها بسيله: «كتيفه» حيث يرمي الاشجار على ام راسها القنان الذي ادركه بنفيانه فكفى ذلك لاكراه الوعول التي تلجأ الى ذراه الى ان تخرج من حجرها وتهبط مهرولة الى السهول «تيماء» التي اقتلع نخلها كله وقوض اطمها الى اركانها ولم يثبت له منها الا ما بني " بالجندل» وهناك ثبير وهناك المجيمر وكلاهما سال عليه الماء من كل جانب ولم يترك بقعة قط منه دون ان ياتي عليها : فكان الاول كشيخ وقور التفع بكساء مخطط وكان الثاني على ما احاط به السيل من النبات والخضد كفلكة المغزل تبرز عن مجموعة الخيطان الملتفة على عصاه . وفي اخر الامر تنشق السحابة في صحراء الغبيط عن البعاع الذي بقي فيها من الماء فيتزايد المطر ويستمر هكذا في تساقطه الى ما يشاء الله ان يستمر حتى ينقطع وليس له من ذلك بد . وحينئذ يكون انتفاض الطبيعة ومرحها واية ذلك تلك العصافير تتنقل بخفة على الافنان وتطلق للفضاء صداحها ولا سبيل الماء اليها لتنالها ، ويكون ايضاً سوء عاقبة الغيث في الارجاء القصوى هذه السباع الطافية على وجه الماء كأن اطراف رؤوسها « انابيش العنصل ».

ولقد اعتمدنا هنا في تلخيص المقطوعة كما في الترتيب الذي جعلناه للابيات في مقدمة مقالتنا على نسخة اهلوارد[1] . اما نسخة اهلوارد نفسها فهي تعتمد على المخطوطة التي عثر عليها المستشرق الالماني في ليدن ودفعته الى ان ينشر في كتابه شعر امرئ القيس الى جانب شعر النابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وكان عزمه في بادئ الامر الا يغفل ، اذ انه تبع في شعر هؤلاء الخمسة الآخرين مخطوطات باريس وغوطا وكان ده سلان « De Slane » قد سبقه ونشر من هذه المخطوطات ما يضاف الى امرئ القيس . ومخطوطات باريس وغوطا هذه ترجع الى الاعلم الشنتمري وهي مكتوبة بالخط المغربي اما مخطوطة ليدن فراجعة الى رواية السكري . ولقد رآها الناقد بعد الفحص والتدقيق اجدر من

[1] W. Ahlwardt, *The Diwans of the six ancient Arabic Poets*. Paris, 1913. ص ١٥٠ .

اخواتها بالثقة نتقيد بها . الا انه لم يتحرج من ان يصحح فيها ما كان يظنه ضعيف الترجيح وذلك بمقارنتها مع مخطوطات باريس وغوطا وغيرهما مما يذكره في مقدمة[1] وقد سار على ترتيبنا هذا العدد الاوفر من اساتذة الادب العصريين[2] الا حسن السندوبي في شرحه ديوان شاعرنا . وقد جاراه على ترتيبه حضرة الاستاذ سليم الجندي من المجمع العلمي العربي في دمشق مع بعض تغييرات زهيدة داخل الابيات[3] ولم نقع لروايتها على اثر في لائحة المخطوطات التي يذكرها اهلوارد ضمن الجداول التي جعلها للمقابلة بين النسخات التي اعتمد عليها في عمله[4].

ومهما يكن من امر فنحن نرى ان نسخة اهلوارد زيادة عما يقوي ترجيحنا النصي لها تصف مراحل العاصفة على اتم صورة ووجه وتجعل نوعاً ما لابياتنا الوحدة المنطقية والعاطفية التي نريدها في كل قطعة ادبية جديرة بهذا الاسم وبهذه الصفة . نعم قد يطعن في الوحدة الادبية هذا الشيء من الغموض الذى يعترضنا في تعيين مواقع الاماكن الصحراوية المذكورة ، غير ان ذلك على وجه الاجمال لا يحدث اضراباً قط في الوحدة العاطفية . وكيف ننكر وجود هذه الوحدة ونحن نرى عاطفة الاعجاب بالمشهد الطبيعي الذي اخذ بمجامع حواس الشاعر وقلبه تتضح وتطفح بها اشعاره . ونلمس هذا الاعجاب يستمر ويسير ثابتاً شاملاً على تنوعها جميع العواطف والاغراض الثانوية التي تتفرع عنه ، فيزلف فيما بينها ويزداد هكذا بها قوة وروعة تبلغان من نفس القارئ كل مبلغ . فما قولك بضخامة هذه السحابة الشاسعة التي يقدرها امرؤ القيس وهو يتاملها عن بعد ممتدة من قطن الى الستار فالى يذبل فتشرف هكذا على فراسخ وفراسخ من مرتفعات نجد . وما رايك في هذا المطر الذي ياتي بسيله الجارف المتلف على كتيفة على القنان على ثبير على المجيمر . افلا تشعر في اتباعك له بشدة وقوة

١) انظر هذه المقدمة المرقمة بالارقام اللاتينية ولا سيما ص١١ و١٢ .

٢) حضرة الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، وحضرات الاساتذة اصحاب الكتاب « المنتخب من أدب العرب » المشار اليه سابقاً .

٣) انظر كتابه « امرؤ القيس – دمشق – ص ١٦٣ .

٤) اهلوارد . ص ١٠٥ – ١١٠ بالارقام الفرنسية .

تضغطان على نفسك وكانك تنوء بثقل الماء. ووقع الوابل. وما بالك بمرح الطبيعة بعد انقطاع المطر. هذا المرح الذي يكني عنه الشاعر بتغريد المكاكي في غرة الصباح. الا تأنس بالارتياح والانشراح يدبان اليك حينذاك، اولا تطرب نفساً بهذا التآنف في آن واحد بين صورتين على طرفي نقيض، ضخامة. العوامل الطبيعية وبطشها ناحية ولطف هذا الطائر الحقير من الناحية الاخرى. نعم رب نفس مترفة متنعمة تنكر على الشاعر صورته الثانية صورة هذا الماء المجتمع في الاودية تطفو على وجهه جثث الوحش ولا سيما على نحو ما وصفها لنا في حالتها هذه، الا ان هذه الصورة على غلاظتها وبداوتها حتى على بعدها فيما نظن ونرى عن طبيعة خيال شاعرنا قد يكون لها شانها في الوصف التام المكتمل لتطورات العاصفة ونتائجها، فوق ما تضيف في ورودها هكذا بعد الصورة الاولى الى قوة عاطفة الاعجاب والاطمئنان، اذ اننا نحن بني البشر، لا تلذ لنا عاطفة ما لم يشبها بعض الشيء، مما هو من اضدادها. فالحلو الخالص يمله ذوقنا، وهو ينفر من الحامض الصرف واما ما جمع بين الطرفين فهذا الذي يسره وهذا الذي يتهالك عليه.

وهكذا تستمر عاطفة الاعجاب ثابتة ترافق العاصفة في كل مراحلها فتراها تظهر ببوادرها ثم تلد ثم تتطور وتنمو ثم تنفجر ثم تزول. فتبرز لنا حينذاك نتائجها، الحسنة منها اللطيفة، والسيئة القبيحة.

وناهيك بهذا الانتقال السريع المفاجىء من وقع المطر الى انقطاعه الى مرح الطبيعة اثر ذلك. ولا نزانا معجلين في الكلام ذاكرين ما هو قبل اوانه اذا ما دعونا القارىء ان يراجع معنا قراءة ابياتنا ولا سيما من البيت العاشر.

والقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العياب المحمل

فيقرأه ويبطىء لائتلاف اللفظ مع المعنى حقة خاصة على كلمة « بعاعه » ثم يقف لحظة نكل مدتها الى ذوقه الفني ثم يستأنف الانشاد

كان مكاكي الجواء غديه صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

فليغفل القارىء هذا وليسبر بعدئذ غور نفسه ليدرك ما تسرب اليها على

اثر هذا التغير المفاجئ الذي حدث في تسلسل العواطف الجزئية الثانوية . فكان العاطفة الرئيسية عاطفة الاعجاب التي تؤلف فيما بين هذه العواطف الجزئية تتحول الى غير طبيعتها الاولى وتعدل الى غير مجراها الاول .

واوصيك الخير كل الخير في نهاية الامر بذكر هذه الاماكن والمرتفعات النجدية التي تعترضنا أثناء مرافقتنا للعاصفة في اطوارها والتي كان لها الشأن الجليل في بعث العاطفة الشعرية حية ثرة عند اعراب العالية[١] . فهي في الادب العربي بمنزلة التيجات (Taygète) والاوليمبوس (Olympe) ووادي التيه (Tempé) في الادب اليوناني وسائر الآداب الغربية التي اخذت عنه جميعاً فنونها واستوحت منه معانيها حتى سحر تراكيبها الى حد . فكل هذه الاماكن المصطفاة هنا وهناك تعد من مهابط الوحي الشعري في الانسانية . ولا بد من ان تبعث الانشراح في صدور قراء الآداب التي خلدت اسمها فيغتبطون لذكرها ويبتهجون به لما تشحن بمجرد لفظها من تذكارات وعواطف حية اثارها ولا يزال يثيرها فينا من تغنى بها من الشعراء. فكم من اديب غربي قديم او حديث يرى نفسه في موقف ادبي او امام مشهد طبيعي فيتذكر للحال اسماء هذه الجبال والاودية اليونانية ، فيطرب لذكرها ويردد لفظها بترنم وتلذذ كأنك قطرت على لسانه الجاف ، الشهد القراح او العصير الحلو الممتاز . ففرجيل مثلاً وهو من ادباء الغرب الاقدمين يصف في الباب الاول من «قروياته» Géorgiques العاصفة وعملها ونتائجها في القرى . وعندما ينتهي به الموضوع الى الحديث عن الصواعق أثناء ذلك فلا يصورها منقضة على جبال « الالب » المشرقة على وطنه « مانتو » ولا على سائر جبال ايطاليا الواقعة تحت بصره بل يصور رب الالهة «جوبيتار» قاذفاً بها رؤوس الاتوس (Athos) او الرودوب (Rhodope) او تلال « السلونيا » (Céraunia) . وكل هذه الجبال في بلاد اليونان لم يشاهدها فرجيل انما يوردها هكذا كاسماء اعلام لاماكن مشهورة تذكي العاطفة الشعرية فيه اذ انها دائمة في خلودها ، لآثار ادبية يونانية درسها الشاعر اللاتيني فتشققت واختمرت بها عقليته ونفسيته . واكبر ظننا ان ذكره لهذه القمم هنا راجع

---

١) أنظر « الهمذاني » ، نفس المرجع المشار اليه سابقاً

الى تذكارات دراساته لشعر تيوكريت»[1]

ونحن لم نورد هكذا عرضاً اسم فرجيل لانه من اكبر ادباء الغرب قديمهم وحديثهم الذين تأثروا بالادب اليوناني ، انا اصطفيناه عمداً بين هؤلاء الشعراء لما راينا من الفائدة الادبية في وقوفنا عند مقطوعته . وسنرجع في بحث آخر الى هذا الدرس كما ايضاً الى درس بعض مقطوعات من الالياذة والاوذيسا والانياذة في وصف العواصف فنقارنها جميعاً مع اثرنا هنا ، على هذه المقارنة بين تلك الآثار لمظهرين مختلفين متباعدين من تطور العقلية الانسانية تفيض لنا الوقوف الصحيح على ما في مقطوعتنا العربية من قيم انسانية ادبية خالدة . الا اننا نستطيع حالًا ان نقول اننا في اثرنا هنا الى جانب شاعر كاف فوق هوميروس وفرجيل بالجمال الخالص لمجرد بعثه الابتهاج في حواسه ، فاقبل عليه يتوخاه اينما وجد ويتأثر به ويذعن له . وشغف فوق ذلك بالفن الصرف فاصبح لا يعادله بشيء آخر قط ويقصده لذاته بصرف النظر عما عسى ان يكون وراء كلامه الفني من عظة وعبرة وشعور سام . فكان المصور الماهر عمد الى ريشة التصوير ورسم بها على لوحة الخيالة الناطقة ما اوحته اليه شاعريته واملاه عليه خياله . وكان الموسيقار الماهر عرف تدبير ادماج الحروف والكلمات بعضها ببعض ليولد منها نغمة «موسيقية» تلائم وقع العاصفة في النفس . فمكنه كل ذلك من ان يعرض مشهد هذه العاصفة على بصرنا وسمعنا في آن واحد . وكاننا بعد قراءتنا لمقطوعته امام لوحة رسم يدوية اضيف الى جمالها الجامد رشاقة وجمال الحياة في حركاتها ونغماتها . وماذا يشغل نفس الانسان غير مجرد المتعة واللذة الفنية وطرب عاطفة الاعجاب عند وقوفه امام لوحة رسم يتأملها او قطعة موسيقية يستمع الى انغامها . وحقاً نحن لا نرى علينا غضاضة ان نسير مع شاعرنا هنا في هذا التلذذ والاستمتاع الفني اذ ان لا عائق اخلاقي يمنعنا عن ان نستسلم لها دون اضطراب وقلق في احدى ملكاتنا الروحية . والجميع يعلم ان ليس الامر كذلك في كل ما يروى «للملكنا الضليل» . هذا من الناحية الاخلاقية . اما من الناحية الفنية الصرفة فلا خوف علينا من

[1] تيوكريت . الكتاب السابع الشعر ٧٢

طلب شاعرنا « الفن للفن » ان يفسد علينا فطنتنا ، وحسن تصرفنا في الحياة العملية ، وحتى انه لا يفسد علينا ذوقنا الفني نفسه . ولما قدمنا داع : هو ان كثيرين من المتهيمين بالفن المتهالكين عليه قاصدينه لنفسه ابتعدوا به عن الحياة العملية الصحيحة واخذوا يحاولون ان يستمدوه من مجرد انعكافهم على نفوسهم . فبدا ادبهم هكذا غالباً سقيماً مريضاً لا اتصال له بالحياة يكلّ ويفلّ حدة ذوق من يطلع عليه ودقة عواطفه وشعوره . ولقد شهدنا ذلك عند الاسكندريين ، في الادب اليوناني وعند ادباء اللاتين المتأخرين في عصر الامبراطورية الرومانية ، ولسنا في حاجة ان نذكر عصر الانحطاط في الادب العربي ، حيث انصرف ادباؤنا من الالباب الى القشور ، من المعاني الى الالفاظ .

ونحن لا نحصر علة الفن ومرض الذوق في التفنن بالالفاظ فقط بل هناك التفنن بالصور والتفنن بالعواطف ينفرد بها الاديب السقيم الذوق الادبي ويتدبرها بذاتها دون ان ينظر الى ما فيها من صلة تربطها بالحياة . وكل ذلك خير دليل على ضعف عنده في العاطفة وضعف في الخيال وضعف في مقدرته البيانية يجعله قاصراً عن ان ينتزع من صميم الحياة المجاورة له مواد ادبه فيخلع عليها صفة الخلود والروعة والقوة بل يكتفي بما انتهى اليه من صور متداولة وشعور مبتذلة .

واذاً فان كان الامر كذلك ، ان كان الاثر المكتوب او المأثور شفهياً يقدر ويعرف له قيمته الادبية الانسانية بقدر اتصاله بالحياة ، فاثرنا هنا له قيمة انسانية جليلة الشأن اذا ما نظرنا اليها من حيث مجرد الوصف . ذلك لما قيضت لشاعرنا عبقريته وذوقه السليم الصحيح ان يستمده من صور من الطبيعة المجاورة له ، ولما قيضت له هذه العبقرية ان يتدبر تتابع صوره بحكمة وذوق ، فيجامع بفن ممتاز بينها وبين العاطفة وانغامها ونال من النفس منالاً بعيداً بكل هذه الملاءمة وكل هذا التدبير الفني .

اما مكانة الصور في مقطوعتنا فلا حاجة الى ابراز اهميتها . فالابيات شاهدة لما وفر صاحبنا لفن التصوير من جانب في وصفه . ولقد اشار حضرة الدكتور شوقي ضيف الى منزلة هذا الفن الخطيرة كناحية من الصنعة الشعرية

في الشعر الجاهلي صرف فيها الجاهليون مجهودًا قويًا[1] . وجعل ، حضرته ، شاعرنا في « المرتبة الاولى » من « طريقة التصوير » البيانية عندهم ، وشعراء هذه المرتبة يوردون الصور والتشابيه متراكمة ، شأن الابيات الشعرية التي « تخرج » هكذا « في صفوف منها متلاصقة » . بخلاف شعراء المرتبة الثانية وزهير في مقدمتهم الذين تطوروا وعقدوا في الصور وذهبوا فيها « بالتنسيق الدقيق والربط المحكم » الى حد جعلنا نراها « تغاير كل المغايرة » ما الفناه عند شعراء المرتبة الاولى . ونحن مع حضرة الدكتور في كل ذلك . الا اننا لا نظنه ينفي الشاعرية على مجموعة هذه الصور التي «توزع» في مقطوعتنا «على موضوعات ومناظر عديدة» ، لا بـل نخاله يفضل من حيث الشعر الخالص المحض وصف العاصفة عند امرئ القيس ، على وصف « رحيل الظاعنات » عند زهير لما نراه عند زهير من التعقيد والجمود وفي مقطوعة امرئ القيس من التدفق والاندفاع الشعري. والظن كل الظن ان زهيرًا حاول ان يدخل العنصر العقلي ومنطقه على ما ليس له فيه لا ناقة ولا جمل ، فوصف هـذا المشهد اللطيف الذي نكتفي منه بالتلميح والاشارة كمؤلف يريد ان يعرض لموضوع محاولًا استيعابه من كل نواحيه . واما امرؤ القيس فلم يتوخ من شعره سوى مجاراة العاطفة ومناغاتها . فاطربنا بهذه الصور البكر مستمدًا من العنصر العقلي في تنقيحه لها مجرد صواب الرأي والحكمة الفنية لكي يتقي بها الاغراب والسماجة .

وفي هذه الصور ، نعم شيء غير قليل ، من البداوة والحياة الصحراوية (وهل يتنافى هذا والشعر الخالص) ولكننا لا نزانا مسرفين اذا قلنا انه حتى في هذا الشيء جانباً لا يستهان به من الروعة الادبية التي ترفعه عن بيئة الشاعر وعهده وتجعله يعم كل الازمنة والامكنة لما فاز به من قيمة انسانية .

ولا بد لنا ان نمر مسرعين ، هنا ، على صورة المطر يكب على اذقانه دوح الكنهبل وصورة العصم الهابطة من موائلها الى السهل وصورة تيماء التي اقتلعت الامطار نخلهـا وعاثت في مساكنها هدماً وخراباً ، وصورة ثبير في

١) راجع كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » القاهرة ١٩٤٣ ص ٤-١٦

عرانين وبل المطر وصورة المجيمر وقد نزل عليه السيل من كل جانب. ونترك الى كل ذلك صورة السباع الغرقى في الاودية. نحن نمر على هذه الصور مجتزئين باستعراضنا لها ليمكننا الوقوف بعض الشيء عند صور ثلاث، ظهرت على اخواتها فنطيل النظر فيها لنستخلص وسعنا ما فيها من روعة وقيمة ادبية.

اما الصورة الاولى، فوصف وميض البرق في حركته والتماعه.
واما الصورة الثانية، فوصف هطلان المطر في صحراء الغبيط.
واما الصورة الثالثة، فوصف مرح الطبيعة بعد انقطاع المطر.

قال في وصف البرق:

اصاح ترى برقاً اريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه، او مصابيح راهب امال السليط بالذبال المفتل

هذا يذكرنا ببيت اوس بن حجر الذي اوردناه سابقاً:

يا من لبرق ابيت الليل ارقبه في عارض كمضيء الصبح لماح

وهذا البيت بدوره يذكرنا بصورة ز « الفجر الوردي الاصابع » عند هوميروس. ففي الصورتين شيء دقيق كانه في فرار مستمر من الحاسة، يفلت منها وينفر منها عندما تحاول ان تدركه وفي هاتين الصورتين ايضاً حلاوة مخملية تلطف عملها على العين عندما نتخازر لنحصر ما فيهما من مرمى وقصد. الا ان هاتين الصورتين خاليتان من شدة وقوة لتمثيل عنف حركة وميض البرق فلربما كانتا، ولا سيما الاولى منهما فوق صورة شاعرنا نعومة ولطفاً. ولكن هذه ادق واشد من ناحية حدة الخيال البصري وثقابة النظر والاتصال بالحياة المادية. وهي في الآن نفسه اكمل واتم من صورة اوس بن حجر اذ انها تجمع بين عنف حركة البرق وألطف عمل وميضه على العين. فهي تقوم على صورتين او بالاحرى على ثلاث صور توزع على مرحلتين، صورتان في المرحلة الاولى وهما صورتا اللمعان وحركة اليدين، ثم صورة ضوء السراج في المرحلة الثانية. وهنا نختبر اختباراً التدبير الفني الذي كان يصرفه شاعرنا في تراكم صوره ليؤدي بها فكرته مع كل مستلزماتها. ففي صورتي المرحلة الاولى نفس المنى الذي

نجده عند اوس بن حجر ، وهو وصف ضوء البرق وسرعة هذا الضوء . ولقد وصف الشاعر ذلك بقوله : كلمع اليدين . فاليدان لا تلمعان في خفة حركتها وسرعتها ورب لمان لا يقيم طويلا . الا ان الشاعر جمع بين الصورتين فتم له ما كان يريد — او كاد ان يتم . ذلك لان صورة حركة اليدين على وصفها الدقيق برشاقتها ، لسرعة وميض البرق ، خشنة فظة الى حد ، خالية من الفن نوعاً ما . هي كالشكل الهندسي العاري البادي الزوايا والخطوط قد يدهشنا كدليل على حدة ذكاء صاحبه وثقابة ذهنه ولكنه قد يؤذي ويؤلم بصرنا الذي يريد دائماً في الصور شيئاً من الوهن والضعف . ولذلك قد لا تريح هذه الصورة حواسنا ، قد لا تروقنا وتستميل عاطفتنا ونحن على كل حال نريد الانسان جامعاً الى العقل الهندسي وحدة الذوق والفطنة لادراك ما في ظواهر الحياة حتى الطفيفة اليسيرة منها من فن ومتعة ترتاح اليها القلوب وتنبط لها النفوس . وكاننا بالشاعر يفطن لكل ذلك ، يشعر بان صورته بكر من حيث حدة البصر ودقته وبانها تفي كل مقصود من حيث سرعة البرق وخطفه ولكنها لا تصف ما في حواشيه من قتم يخفف على البصر من حدة نوره وهي الى ذلك وبنوع خاص ينقصها هذا الشي . من التحوير والتدوير واللين يقربها الى الحياة وبالتالي الى ذوقنا الفني الذي هو فينا ، العنصر الاشد التصاقاً بالحياة . وكل هذا جعله يضيف الى صورتي المرحلة الاولى صورة المرحلة الثانية التي اقتبسها مما كان يشاهده في بيئته ، صورة ضوء السراج هذا الذي يميل الراهب فيه الزيت على الفتيل فيندلع اللهيب بقوة ثم يعود فيخبو . وانا اريدك واعياً لفن الشاعر وحسن تصرفه في تركيب جملته هنا ليحصر الصورة من كل جوانبها ويملأ بها حواسنا ، قال :

او مصابيح راهب امال السليط بالذبال المفتل

فان هذا التركيب وان كان صحيحاً مسوغاً ليس في غاية الجودة والاستقامة من حيث النحو واللغة ، والوجه فيه : « امال الذبال المفتل اي الفتيل في السليط اي الزيت » . ولو جارى الشاعر القياس في كلامه لكنا ارتحنا الى حسن تركيبه ولكان هو ادى صورة سرعة البرق اداء مادياً مجرداً عن هذا الحبي المكلل الذي يبدو ثقيل المر بطيئه لشدة حفله بالماء . الا انه اراد ان يوقظ حسنا

ويجعلنا نشعر بهذا الثقل فعمد الى «القلب» وقدم كلمة السليط ليلفت انتباهنا الى هذه المادة وبالتالي الى الثقل والبطء اللذين يظهران في حركتها وتمايلها . . .

هذا كل ما نستطيع ان نحصي بالكلام لمكاناتنا الواعية ما في هذه الصورة من دقة وفن . ونحن نعمد قبل كل شيء ، في محاولتنا هذه على ما بقي في خيالنا من اتصال بالحواس ونزهفه الى اقصى حد وابعد مدى لكي نستطيع ان نجاري فيه خيال هذا الشاعر الجاهلي الذي لم ينته من الرقي العقلي الى ما انتهينا اليه نحن . فكان خياله على فطرته مادياً شديد الاتصال بحواسه دون ما عمل قط للعقل في كل ذلك . فهو لا يرى ولا يفكر الا بالصورة المادية الحسية . . . وناهيك بجدة هذه الصورة البصرية ودقتها هنا لما الفت عينا شاعرنا من تفحص الآفاق الصحراوية ولما اعتاد طرفه من الامتداد في هذه الارجاء ليترقب العدو او ليتوقع الصديق فلا يفوته فيها من كل ذلك لا ذرة ولا هباء .

الا ان هذا البصر كما يبدو لنا من استعراض صور مقطوعتنا لا يتتبع اللون الا اللهم هذا اللون المتجرد العاري الابيض ، الذي يعده الفيزيائيون كخليط من سائر الالوان وهو لون هذه الشمس الساطعة التي تصب باشعتها رصاصية على هذه الصحراء فتصهرها صهراً ونحن لا نرى لاختلاف الالوان شاناً حتى عند اوس بن حجر بالرغم من ان خياله ارق واحسن تهذيباً وتثقيفاً ونعومة من خيال امرئ القيس . ونحن لا نرى ادراك هذا الاختلاف عند شاعر قط من الذين عرضوا للغيث والعواصف في الجزيرة . وكيف يستطيع هؤلاء جميعاً ان ينتبهوا الى ما انتبه اليه Taine مثلاً في وصفه العاصفة في الـ Pyrénées من تلاعب وتراوح في الالوان بينها بين بعض في جوانب السحب والزبارج . فنحن الان نرى انفسنا قد ترقت ونرى شعورنا وخيالاتنا قد دقت ونجدنا قاصرين غالب الاحيان عن ان نعبر بلغتنا عن تلك الهمسات الخفية وعن اهداب تلك الخيالات الطفيفة التي تختلج فينا . فكم بالاحرى هؤلاء الشعراء الذين لم يكن لهم عهد الا بهذا النور الابيض اللافح الذي كان يتموج لعابه امام عيونهم الى ابعد ما يستطيعون ان يجولوا بها في الارجاء الصحراوية .

ولكن هناك صورة لا تخلو من الشعور بالالوان على مختلفها والتعبير عنه .

هي صورة هذا اليماني الذي يتنقل في الاحياء العربية ليعرض فيها سلعه ، فاذا ما نزل على حي فك عن عيابه المحمل فبدت هذه السلع على كل الوانها من احمر واصفر وازرق واخضر وبرتقالي الى ما سواها من الالوان . . .

الا اننا لنا في شرح وتحليل هذه الصورة نظر غير النظر المالوف الذي تناقلناه عن الشارحين القدماء . يقول الزوزني مثلاً ، ونحن نذكر شرحه لانه اوضح من شرح غيره في المعنى نفسه : القى الحيا ثقله بصحراء الغبيط فانبت الكلاء وضروب الازهار والوان النبات فصار نزول المطر كنزول التاجر اليماني صاحب العياب المحمل من الثياب حين نشر ثيابه ليعرضها على المشترين . . . شبه نزول هذا المطر بصنوف الثياب التي نشرها التاجر عند عرضها للبيع . . . وهذا هو شرح التبريزي في كتابه القصائد العشر ، وهذا هو شرح القدماء جميعاً . فجئنا نحن واخذناه عنهم دون ان نقبل بانفسنا وعاطفتنا وخيالنا وملكاتنا الروحية كلها على هذه القطعة ودون ان ننتبه الى ان هؤلاء القدماء جميعاً كانوا علماء يمدون وكانوا لغويين ثقات وكانوا يجمعون الشعر ويتذوقونه من الناحية اللغوية والبراعة البيانية الجامدة ولا يرون فيه سوى انتظامه الشكلي من حيث التركيب والائتلاف بين التشبيهات .

ونحن اذا حللنا هذه الصورة على المعنى الذي سبق اذهبنا منها كل ماء ورونق وجعلناها جامدة لا حياة فيها ، لا بل اننا لا نحللها على وجهها ويقتضي غاية الشاعر فيما نرى . ذلك لان الشاعر فيما نظن يريد وصف امر واقع حاضر لا وصف شيء مستقبل يتوقع قدومه وظهوره ، يريد وصف حالة نفسية وقتية تشغل صدره لما تنبه فيه من صور وخيالات ولا يريد وصف منظر طبيعي سوف يمتد امامه ولا يتجلى وجوده الا بعد اسابيع واشهر . (وكيف يكون الامر كذلك ونحن نعرف شاعرنا ابن حاجته الوقتية العاجلة) .

ولكي نعرض راينا الشخصي لهذه الصورة على شكل واضح لا بد لنا من ان نعود وندعو القارئ الى مراجعة هذه الابيات . ولا نظنه عديم الذوق الفني الى حد انه يغفل عن هذا التزايد في الصوت والنغمة الذي اشرنا اليه سابقاً والذي يبتدئ من البيت الثالث : قعدت له وصحبتي بين ضارج . . .

« الى البيت الذي نحن في صدده حيث يدرك هذا التزايد معظمه وينفجر . لانما في كل ذلك تطور العاصفة ونموها فتضج وتصخب من بعد فترعد فتدوم فتدوي ويعظم دويها حتى تنفجر آخر الامر فيلقي السحاب ثقله من المطر في صحراء الغبيط » جنوبي تيماء :

والقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العياب المحمل

هذه الحروف من « قاف » و« صاد » و« عين » و« باء » و« طاء » ، « هاتان الميمان » اللتان تمثلان خير التمثيل للسمع وللبصر دوي انفجار السحاب وانشقاقه الى شطرين ليتخلى عما في جوفه من مطر او ليزيد من تساقط هذا المطر ، كل هذه الحروف الا تجعلك تشعر بضجيج السحابة الراعدة في اقبالها نحوك ؟ اولا تولد في بدنك دبيب قشعريرة اشبه شيء بتلك التي تشعر بها اذا ما اسعدك الحظ وخرجت الى احدى نزهك متمطراً ، فادركتك العاصفة بدوي رعودها ووميض بروقها . فكأنك حينئذ تشعر بضغط قوي على كل شخصيتك مادياً وروحياً وتبادر الى نفسك من دون وعي ومن دون ترو فما انت الا وراسك يطأطئ وكتفاك ترتفعان ليغور رأسك بينهما وكأن باذنيك يملأهما ضجيج مزعج عنيف وبعينيك تغمضان وتمر على صفحتيها جميع الوان قوس قزح .

وكل ذلك لقد شعر به الشاعر ، على ما نرى ، سواء كان على وعي او غير وعي . وكل هذا حاول ان يصوره بالصوت والحركة فاما التصوير بالصوت فكان في صدر البيت كما اسلفنا بهذا الذي كان القدماء يسمونه ، « ائتلاف اللفظ مع المعنى » وما الفنا نحن ان نسميه « الموسيقى الداخلية » مشيرين بهذا الاصطلاح الى اختيار الالفاظ وترتيبها من ناحية ، ثم الى المشاكلة بين اصوات هذه الكلمات والمعاني التي تؤديها من ناحية اخرى . فينتهي القارئ من هذا الشطر وكأنه يشعر على عاتقه بشؤبوب المطر وما يرافقه من قصف رعد ووميض برق ، وكأنه يشعر بعمل كل ذلك في حواسه حتى تصبح كأنها مبهوتة حيرى ، ولا سيما حواس السمع منها . اما حواس البصر فنصيبها مقدر خفي في الشطر الاول ولقد يبرز في الشطر الثاني حيث يعرض له الشاعر ، فيكون قد انتقل هكذا من التمثيل بالصوت الى التصوير بالحركة .

ولقد ذكرنا سابقاً الشرح المألوف لهذا الشطر وهو شرح متداول متناقل عن القدماء ، وقلنا ان هذا الشرح علاوة عن انه يفضي بالجمود الى شعرنا ويذهب منه كل ماء وحياة لا يفي المعنى المقصود حقه. وفعلاً ما هو هذا المشهد الذي يشير اليه امرؤ القيس. هو قدوم هذا التاجر اليماني الى بعض احياء العرب وقدومه فجأة. وعلى هذا المعنى فهم الجميع شطرنا. فالاصمعي يروي ز « كصرع اليماني » والتبريزي يذكر رواية « كصوع اليماني » وكل ذلك وما شاكله يفيد السرعة والعنف في حركة اليماني عندما ينشر اجواخه ونسيجه للناس . ويفيد ذلك ايضاً الجملة والبيت كله في حركتها وتطورهما. ولنتذكر ، الى كل هذا الذي سبق ، اننا هنا في بيئة مؤخرة بعض الشيء عن رقينا وتمدننا وتحضرنا. نحن في هذا المعرض عند اناس لم يألفوا التحفظ في حركاتهم واعمالهم يتحللون من كل القيود التي نجعلها لانفسنا عندما نريد ان نعبر عن عواطفنا الاجتماعية . ولهذا يجب علينا ان نتصورهم مسرعين نحو هذا التاجر يتباشرون بقدومه ، فهناك الضجيج وهناك الجلبة وهناك التهافت على هذا العياب ، وهناك التنهدات عندما تنشر امام العيون هذه السلع على مختلف الوانها من صفراء وحمراء وزرقاء وخضراء وبرتقالية فهذا مشهد فيه حركة وحياة ولقد شعر الاقدمون بهذه الحركة وبهذه الحياة ، ولكنهم غفلوا عن غرض الشاعر من استخدامه لها هنا. فقالوا ان الوان السلع صورة للنبات الاحمر او الاخضر الخ ... الذي سوف ينبت من جراء المطر في صحراء الغبيط . . . فجمدوا هذه الحياة وهذه الحركة بدهم اياها هكذا على بساط الارض ونحن نراهما دائماً مجتمعين ابداً ملململتين في خفقان مستمر اذا ما اتخذنا الصورة لا كوصف شيء مادي بل كرمز الى حالة نفسية يريد الشاعر ان يشير اليها بعد ان رأى نفسه قاصراً عن ان يجلاها بكلام وضعي يبقي لعاطفته الاعجابية كل حميتها وروعتها . ادرك الشاعر ما في نفسه من اضطراب وقلق ، وما في حواسه من ثقل وعبء ، وشعر بكل هذه الحواس مبهوتة حيرى تحت عمل العاصفة : فمن اذان تطن بالضجيج المزعج وكأنه يحاول ان يسرع اليها باطراف اصابعه ليسدها ، ومن عيون تغمض بقوة وحدة خشية عليها من من نور وهمي ، يحاكي في الوانه نور قوس قزح . آنس

الشاعر كل ذلك فيه واراد ان يعبر عنه فاذا كلام الواقع يعييه ، فعمد الى صورة هذا المشهد الذي وقعت عليه عيناه في محيطه ، او اثناء تجولاته في احياء العرب ، واتخذه له كاوضح صورة رآها لهذا الذي يختلج في صدره ، لما في هذا المشهد من ضجيج وصراخ وهتاف والوان ، ولعمل كل ذلك في الوجدان والنفس .

ولا سبيل ان نجمل صورتنا من باب المجاز المرسل فنقول ان الشاعر دل الى الشيء بسببه فيكون المطر هنا او الغيث بمعنى النبات نفسه . فالبعاع هو المطر المتساقط مدرارًا من السحب ، والشطر الاول في تركيبه والفاظه وحروفه يفيد هذا المعنى الوضعي . فنحن قد نرى المعنى المجازي في مثل بيت ابي تمام:

عني الربيع بروضه فكأنما اهدى اليه الوشي من صنعاء

اما في الشعر الذي نحن في صدده فلا .

وعلى كل حال فنحن ربما لم نكن مصيبين كل الاصابة في تاويلنا ، ولكننا نذيعه للقراء بتحفظ لا يخلو من بعض الثقة . ونحن نراه اصح من التأويل الموروث المتداول حتى الآن . ومما يقوي فينا الثقة والاطمئنان الى شرحنا هو ما نمهد في الشعر القديم ، من محاولة عند الشعراء ، عبرانيين كانوا ام عربيين لتبقى ضمن الدائرة السامية ، ان يرمزوا ويشيروا بالصور متراكمة الى حالة نفسية دقيقة مضطربة يصعب عليهم تحليلها . ومما يزيدنا ، ولو بجانب اقل ، ثقة واطمئنانًا هو ان تاويلنا كما اسلفنا ، اقرب ملائمة للرونق والفن في مقطوعتنا ، واكثر مجاراة لعاطفة الاعجاب التي تنضح بها هذه المقطوعة . فنتبع بالمتعة الكاملة عقليًا وحسيًا هذه العاصفة تمر على الاودية والقرى والقمم حتى تدرك حد ضخامتها وحفلها بالماء فتلقي بعاعها في صحراء الغبيط . . ويكون بيتنا هكذا قمة نصنا وذروته من الناحية التصويرية ومن الناحية الموسيقية .

ولكي نستخلص كل ما في هذه القمة الموسيقية من لذة فنية وقوة وروعة يجب علينا ان لا نسرع كما اشرنا سابقًا ، في انتقالنا الى البيت الذي يلي هذا الذي نحن فيه . انما يجمل بنا ان نقف لحظة لكي ندع لظواهر العاصفة جميعًا من وميض برق ودوي رعد ، ووقع مطر ، مجالًا لعملها في نفوسنا . فتصبح

والامر على هذه الحالة كاننا في اثرنا امام قطعة موسيقية تحملنا وتدخلنا في حركتها ، كما يقول برغسون ، ثم يقف الموسيقار وينقطع فجأة عن حركته هذه ليتركك الى تأثيرها وصداها في نفسك . وما هي الا ويفاجئك بحركة اخرى تملك عليك امرك فتصبح هكذا كالمسحور ، آلة بين يدي الفني يتصرف بك كيفما يشاء .

فهذه الوقفة الموسيقية واتخاذها كانتقال مفاجىء من حركة الى حركة اخرى ، كل هذا الذي قد نجده في بعض المقطوعات الموسيقية المشهورة ، « كالسيمفنيا السادسة » « او السيمفونيا الرعائية » لبيتوفن مثلاً[1] اننا نظن شيئاً منه هنا . ولا بد لنا من ان نعترف للشاعر بمهارة وحذق ما وراءهما مهارة وحذق في التصرف بادواته الفنية من صور ونغمات والفاظ يستغوي بها جيعاً عاطفتنا ويطربها .

ونحن نرجع الثالثة الى قراءة الاشعار من البيت الثالث خاصة ونضخم الصوت بعض الشيء . ونجعله يلائم ما يطلبه حرفا العين والهاء في « بعاعه » ثم نواصل الانشاد الى آخر البيت ، ثم نقف . . . والى هنا تنتهي الحركة الاولى او الموجة الاولى الموسيقية او ما شئت فسمها . ثم بعد لحظة نستأنف الانشاد:

كان مكاكي الجواء غديـه صبحن سلافاً بالرحيق المفلفل

واذا بنا في حركة اخرى تفاجئنا ، حركة الانشراح والانبساط بُعد حركة الانقباض والانكماش ، حركة انتفاض الطبيعة ومرحها وضحكها واخضلالها بعد ان انقطع المطر وذر قرن النزالة من جوف السحب . ولا بد للنفس من ان تغتبط بكل ذلك ، ولا بد لنا من ان نطمئن الى هذا الاغتباط . . . ولقد اكتفى الشاعر بالرمز والاشارة ، هنا ايضاً ، الى كل ذلك . . . لقد نبه فينا كل هذا الشعور بمجرد الكناية ولكنها ما الطفها وما انعمها من كناية . واي شيء .

---

١) انما الانتقال المفاجىء هنا ، فبين الحركة الثانية «أعيد في القرية» والحركة الثالثة «العاصفة» أما الانتقال من حركة « العاصفة » الى الموجة الرابعة من السيمفونيا « انشودة الراعي » فيها يبدي شكره للخالق ، فلقد يمهد له الموسيقار الالماني بلطف وهدوء فتكون المفاجئة عنده ، في اول دخوله في « العاصفة » ، اما عند امرىء القيس فهي في انتهائه من وصفها .

الطف واحب من هذه المكاكي التي راحت بعد انقطاع المطر ، ولا سبيل لها الى ذلك الا بعد انقطاع المطر ، التي راحت اقول ، تصدح وتقفز بخفة ونشاط ، كانها سكرى ، على افنان الخمائل في الاودية . وهذه الصورة هي ايضاً ، شأن ما سبقها من الصور ، مادية حية منتزعة من صميم حياة الطبيعة تنضح بالشاعرية السمحة والفن . وما علينا ، لندرك صحتها وجمالها وبعد مدى ايحائها الا ان تتذكر انفسنا وقد خرجنا لنزهة في بعض الاودية او الغابات وفاجأنا المطر فيها فاوينا الى ملجأ نتقي فيه شر الوابل علينا ، — ثم بعد انقطاعه خرجنا لنواصل السير فما بنا الا ونرى الطيور تسعى بين الاغصان برشاقة ولباقة فرحة مرحة ، متصايحة في الفضاء متخالعة في الطيران ، اذا ما اتسع امامها المجال ، ويتخلل تغريدها وتنقلها هذا الرشيق وقع قطرات الماء بين اوراق الاشجار . .

هذا ولم يكتف امرؤ القيس بقيمة هذه الصورة الشعرية بحد ذاتها ، بل خلع عليها من فنه وشاحاً ، ورفعها الى مستوى ادبي ممتاز . لقد تخير من بين الطيور المكاء . وهو طائر لطيف كثير الصفير . فحمله هذا المشبه ان يصبغ بصبغة اللطف والظرف سائر بيته فبدا هذا ملتحم الاجزاء متآلف النواحي من حيث الملاحة والعذوبة . فلطف الصورة هو الذي اقتضى التصغير في « غديه » ولذة منظر ومسمع المكاء هو الذي استتبع تراكم او بالاحرى ترادف الكلمات الثلاث : السلاف ، الرحيق ، الفلفل . كانما بالشاعر يحاول ان يشارك بجميع حواسه وبجميع شخصه المادي ، الطبيعة في مرحها بعد زوال العاصفة .

اما من ناحية ائتلاف اللفظ مع المعنى فما رأيك بهذه « الصاد » وبهذه « السين » في « صبحن » و« سلافا » لتمثيل صفير الطائر . هما يثقبان اذنيك ثقباً وهما الى ذلك ينقلان على غفلة منك الصورة منها سماعية اليها بصرية . اذ انها بخروجها السريع الخفيف من الثغر وبظهور صوتها على اصوات الحروف التي يتخللانها يمثلان خير التمثيل خفة ورشاقة هذه الطيور اللطيفة في طيرانها . فكانك تراها امامك تقع بعضها على بعض او تعود فتستقل في الفضاء وترسل اثناء ذلك الى نواحي الجو من اغاريدها ما يقري النفوس متاعاً والاذان سماعاً

مشهد مطرب حقاً ، استطاع الشاعر ان يضبطه لنا بصورة شعرية لها قيمة

ادبية انسانية لا يستهان بها من حيث الشعر الخالص . ونحن نجدها عند فرجيل في المقطوعة التي اشرنا اليها فيما سبق ، والتي سنرجع اليها في بحث آخر انشاءالله . الا اننا نستطيع ان نقول حالاً ان هذه الصورة عند الشاعر العربي الطف واكثر ظرفاً وفناً منها عند الشاعر اللاتيني لما وهبها الاول من الحلاوة والعذوبة وخلع عليها من الفن ، ولانه ، فوق ذلك ، اكتفى بمجرد الكناية والتلميح الى هذا المشهد اللطيف دون ما تطور وتحليل منطقي فيه ، شأن زميله اللاتيني . ولقد رأينا هذا الاعتماد على مجرد اللمحة الخاطفة والاشارة البعيدة عند الشاعر في كل صورة . اذ انه فيها ، جميعاً يجتزئ باركان الكلام فيفتح امامنا مجالاً للتفكير وللتخييل ويهون هكذا اصوره عملها التام فينا . فنستسلم الى تأثيرها دون تردد ، واستنكاف ، ظناً منا انها تلائم كل الملائمة ما في ملكاتنا الفنية من امكانيات ومؤهلات للترحيب بهذه الصور والعواطف والشعور الذي يحاول ايقاظها فينا . فهو ، كما قيل ، يشركنا في عاطفته الشعرية وطربها او بكلام اصح يشير لا الى هذه العاطفة وهذا الطرب لينبههما فينا ، ثم نوافقه ونسير معه راضين مرتاحين . ولربما كان رضانا هذا واطمئناننا هذا ناتجين عن اننا نزيد على عاطفته وطربها ، ونذهب ابعد منه مدى وغاية في الصور الخيالية والموسيقية . ولكننا على علمنا ذلك نحن نحبذه ونحن نحب من الشاعر ان يحسن بنا ظناً فيدعنا ، شأن اولي الالباب ، « من الاشارة تفهم » ؛ اذ ان اغتباطنا بما نخاله منا ، مادياً وروحياً ، اشد منه بما نظنه من غيرنا . واي شيء اسر لنا من ان ندرك فينا اثناء قراءتنا لاثر ادبي ، هذه العيون الجديدة وهذه القلوب الجديدة التي تتفتح للعالم الخارجي وللعالم الداخلي فتطرب لما ترى فيها وتتخشع لهذا الذي ترى تخشعها للاسرار لحداثة عهدها بها او لظنها الامر على ذلك .

***

قيل ان المشهد الطبيعي انما هو حالة نفسية ، اعني ان الذي ينظر اليه ليتمتع به يخلع عليه من ذاته ويعده شطراً من روحه وجانباً قوياً من عواطفه وشعوره ، وبكلمة واحدة يشركه في الحياة التي يحياها اثناء ذلك . فاذا كان شاعراً وحاول ان يصف هذا المشهد لغيره يجب عليه ، بمقتضى التعريف الذي

سبق ، ان يفيض لقارئه مجالاً مثل الذي كان مفيضاً له ، فتكون صوره واوصافه مصدر ايحاء قوي رائع في نفس هذا القارئ ، ومن الناحية الفنية ومن ناحية الجمال الصرف الذي استقرّ شيء منه في ما هو موضوع الوصف .
ولقد نضرب بمرض الحائط ببعض مقطوعات في الوصف تتراكم فيها الاوصاف من صور مادية للمناظر الطبيعية ، وتحليلات دقيقة لشعور وعواطف تشغل نفس صاحب المقطوعة حين ذاك ظناً منا ان ليس كل ذلك الا دليلاً على قصر باع عند الاديب في ادراك الجمال ملتماً مجتمعاً في كل حقيقته واكتماله ، فوق ما قد يكون في كل ذلك من تصنع وتكلف ، او بعض السقم وعدم التوازن في الملكات الروحية تظهر بينها احداها على اخواتها . فالجمال ساذج بسيط في كيانه ، لا يحلل ولا يجزأ ولا يستطاع الا الاشارة اليه فقط . وتكون هذه الاشارة بتلك اللمحات الخاطفة وبتلك الصور الوجيزة البعيدة الايحاء ، شأن تلك التي وجدناها في مقطوعتنا هنا . فتجعلنا نتفتح لحياة الطبيعة ونندمج فيها دون ما تحفظ ودون ما تردد ، اذ اننا نراها مبتكرة حية مرسلة على بساطة قوية رائعة ، تشف عن نفس نقية لبقة مثل الجمال ، فكأنها في اول حداثتها به وفي اول تفتحها له تدركه وتتبينه في كل خفاياه ودقائقه . ونحن نستحب مناجيات تلك النفس ونسر بل نطرب لحديثها ، كما اننا نسحر ، في غرة الربيع ، بمنظر الزهرة النضرة ابان تفتح اكمامها للنور والندى .

وهنا نتذكر رأي غويدي من ان الادب الجاهلي ادب رومانتيكي . وهذا صحيح ولكن الى حد . ان الادب الرومانتيكي الذي يرجع الفضل في نشأته ورواجه الى الالمان ، خاصة في اوائل الجيل التاسع عشر ، اشمل في مواضيعه من الادب الجاهلي وادق منه في المواضيع المشتركة بينهما . هذا من جهة . ومن جهة اخرى نحن لا نرى في الادب الرومانتيكي هذه الصحة وهذه العافية اللتين نلمسهما في مقطوعتنا هنا . فآثار «شاتوبريان مثلاً ولامرتين وفيكتور هيغو ودِه موسه في الوصف ، زيادة عما فيها احياناً من تصنع وتكلف ، تنم عن اشخاص شعروا بالمرض في اجسادهم » وعلى كل حال كان ينقصهم بعض التوازن فيما بين ملكاتهم : ونستطيع ان نذكر الشواهد لذلك كما اننا نستطيع ان

نذكر مثل هذه الشواهد لGœthe ولScholler ولHeine في الادب الالماني ، ولسنا نذكر Byron في الادب الانكليزي ، فامره اشهر من ان يذاع بين الناس.

ونحن ، في كل هذا الذي اسلفنا ، لا نريد ان نغالي بما لدينا ، ولا نريد ان نعطي اثرنا الادبي فوق ما هو من حقه ، انما نريد ان نبين ما في هذا الاثر من قيمة ادبية انسانية ، تجعله جديراً بان يتنعم به كل انسان من كل عصر ومصر. قصدنا ان نقول ان هذه الصحة والعافية اللتين تطفح بهما مقطوعتنا ، هذه القوة والروعة في العاطفة ، هذا السمو والدقة في الخيال ، هذه العظمة التي تمثل على اتم وجه عظمة وفخامة الطبيعة اثناء العاصفة ، في جانب حقارتنا وصغرنا ، هذا التدبير الفني الممتاز في اداء وصف تطور العاصفة ، وفوق كل شيء ، نفس شاعرنا ، هذه النفس الظريفة المتيقظة لكل ما يظنه من امجاد الطبيعة وافراح الحياة ، كل هذه الخواص التي يرتكز عليها البيان المعقد والجمال المعقد اللذان يدقان حتى يحار ذوو الالباب في تعليل ما يستجيدونه فيهما ، كل هذه الميزات الفنية خلعت على قطعتنا وشاحاً من الخلود سوف لا يبلى. قرأها من نطق بالضاد قبلنا وسيقرؤها من سوف يعقبوننا في الوجود وستبقى على مر العصور ابداً لذيذة ولا سيما لمن يفقه للغة العربية معنى وتركيباً ونغمة ، لما تشحن من العاطفة العربية والخيال العربي والفصاحة والبلاغة العربية . نعم ان الغاية التي سيرت درسنا هنا اعني تبين ما في مقطوعتنا من قيمة ايحائية انسانية جعلتنا نضرب ذكراً الا قليلاً ، عن جمال الاسلوب ومتانة التاليف وجودة السبك وقوة ايحاء العبارة واناقة الجملة واخلاصها في تصوير المواقع على ما هو وعن حسن ائتلاف التيار الصوتي في عروبته الصحيحة الخالصة ، وعن جزالة الالفاظ ونغمتها وعن سائر هذه الادوات التشكيلية التي عرف الجميع للعربي مهارته فيها فهو يتفنن في القول ويرفع به المواضيع الحقيرة المشتركة بين جمهور الناس والامور الطفيفة التي لا شأن لها يعد الى مستوى فني يبهرك . الا انه يجب علينا ان نضيف كل هذا الى الذي سبق تحليله وذكره ، لكي نستطيع ان نستوعب بيان شاعرنا في مقطوعتنا من كل نواحيه. وحقاً ان في هذا البيان لسحراً ولسحراً حلالاً. نحن

ندرك حينئذ من كل وجوهه ، هذا الذوق الفني الذي امتاز به الشرقي عامة وذهب العربي به كل مذهب — نحن ندرك هذا الذوق الفني هنا في احد آثار الادب العربي بعد ان بحثنا فيه وحده مستقلا بذاته . ولربما ندركه على صورة اوضح اذا ما قارناه مع غيره من آثار اجنبية بعيدة الى حد عن العقلية العربية وعن الحضارة العربية ... وهذا عمل سنقوم به في بحث مقبل انشاء الله ، وهو وراء القصد .

١٨ نيسان ١٩٤٨

مكتبة المشرق

نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة

تأليف القاضي ابي علي المحسن التنوخي

الجزء الاول

اعتنى بتصحيحه د. س. مرجليوث

مطبعة امين هندية بمصر سنة ١٩٢١

بقلم حبيب زيات

للاستاذ مرجليوث رحمه الله خِدم جليلة للآداب العربية اذا عُدّت في جملة مآثره وفضائله يكون اختياره هذا الكتاب واستخراجه اياه من خزانة باريس حيث كان بين دفائنها المنسية واتحافه به الادباء على غير توقع او مظنّة لـهُ من اتم هذه الخدم فائدة واجداها منفعة في تاريخ الحضارة العباسية وآدابها لما تضمنه من اخبارها واوصافها ونعوت رجالها واخلاقهم وعاداتهم ورسومهم في مجالسهم ومنادماتهم ومآدبهم ومعاشراتهم وخصوصاً رواية طائفة كانت مجهولة من مصطلحاتهم والفاظهم بين اعجمي ومعرب ومولّد ومنقول مما يندر ان تجتمع نظائره اجتماعها في مثل هذا المصنَّف الممتع الذي يعد اصدق مرآة لعصر الخلافة العراقية، واذا منّ الله وقدّر لنا الحصول يوماً على سائر اجزائه المفقودة وتم بها مجموع هذا الكتاب كما وضعه المؤلف يكون لنا في مطالعته وتدبر حكاياته وعباراته اكبر معين على دراسة ماضي الحضارة العربية وتلقط الفاظها ومسمياتها التي زهدت في نقلها كتب اللغة وحرمتنا من لذة فهم كثير من الاوضاع المستحدثة واللهجات الماشية التي طرأت على لغة البداوة بعد الهجرة واختلاط العرب بالروم والفرس ولذلك كان من اولى ما يتحتم على كل متأدب عرف قدر هذا الكتاب ومكانته بين الآثار السالفة ان يعين بحسب

طاقته على تصحيح روايته ونقد عباراته وتقويم ما انآد من حروفه وايضاح ما استعجم من كلماته كما فعل الطيب الذكر احمد باشا تيمور رحمه الله في مقالاته « تفسير الالفاظ العباسية » التي نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق

وكنا منذ صدور هذه الطبعة أولعنا بتكرار مطالعتها فكنا في كل مرة نقف منها على مواضع لا تخلو من النظر والاستدراك ونحن على يقين من التباسها على النساخ واستحالة صدورها على هذا الوجه من قلم المؤلف لاننا عرفنا بالخبرة وطول التنقيب في دور الكتب ومعارضة المطبوعات احياناً بالاصول المخطوطة ان مثل هذه الشبهات والسقطات قد تكون من تفريط الطابع وسهوه وان نظر اكبر العلماء قد يكلّ او يذهل اثناء النقل والتمثيل وحسبنا ان نذكر من هذا القبيل ما جاء قبلًا في كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي من بعض العبارات القلقة والالفاظ الغريبة التي لا تشبه نسج المؤلف ولا تلتئم بمثل سداه ولحمتهِ اجتمع لنا منها طائفة قيدناها امامنا حتى تهيأت لنا زيارة خزانة اكسفرد فبادرنا الى طلب اصل الذيل المخطوط وعارضنا عليه سطرًا فسطرًا طبعة امدروز فاذا كل المواضع المريبة في المطبوع هي من سوء نقل الطابع او قلة تثبتهِ في استيضاح المتن وهي فيه صحيحة لا غبار عليها او عارية احياناً من بعض الإعجام ولكن تُدرك لاول وهلة ووجدنا من الواجب علينا استرعاء نظر الاستاذ مرجليوث اليها فوعد باصلاحها وتسديدها في طبعة تالية وكأنه كره ان نشرها دون ابطاء. وان يلحق امدروز منها بعض النضاضة والقصور

ومن غرائب الاتفاق ان ما فرط لامدروز في طبعة الذيل لم ينج منهُ ايضاً مرجليوث نفسه في طبعة نشوار المحاضرة وكنا عقدنا النية بعد مفارقتنا اكسفرد على مقابلة طبعته على الاصل في باريس ولم تتيسر لنا الا سنة ١٩٤٦ بعد ان نفذ سهم القضاء في الاستاذ ونقله الله الى دار كرامته وخسرت العلوم المشرقية بوفاته ركناً من اشهر اركانها في الغرب ونحن نعلم علم اليقين انهُ لو كان حيًا لليوم لتلقى معارضتنا وتصحيحنا بغاية الرضى والاستحسان شأن اكبر

العلماء الذين يتوخون الحقيقة والصواب في جميع ابحاثهم ودروسهم كما تلقى بارحب صدر واوسع بشر نقدنا الـذي أذن لنا به لطبعة الجزء الثامن من الكتاب نفسه الذي نشرته مجلة المجمع العربي بدمشق[1] وهو مقتصر على المتن المطبوع. لاننا لم نقف على الاصل المنقول عنه ولعلنا لو قدر لنا يوماً الاطلاع عليه ان نهتدي فيه الى مواضع تعين على تسديد بعض الالفاظ والعبارات التي بقيت ملتوية غامضة في المطبوع لا يستقيم لها معنى ولا يلتئم لها توجيه او تأويل ونكون بذلك قد قمنا ببعض ما يجب على كل اديب للمؤلف من الغيرة والخدمة والشكر لجمعه لنا هذه الاخبار والمذاكرات التي احسن في تلقطها غاية الاحسان ونظم لنا فيها الياقوت والعقيق والمرجان وقد قسمنا الكلام على الكتاب الى ثلاثة اقسام وربما اشرنا احياناً الى وجه الصواب الذي تبين لنا اثناء المقابلة بعد انعام النظر في الاصل المخطوط :

القسم الاول ما اختلفت قراءته او ما اصلحه لغير داع.

» الثاني ما علق عليه ولم يوفق فيه

» الثالث ما اسقطه سهواً واعتباطاً من الالفاظ والعبارات والسطور

ما اختلفت قراءته او ما اصلحه لغير داع

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما تجب قراءته :
٤	١	الظرفاء والمحرفين	والمخرقين اي قصاص الخرافات والاحاديث المستملحة
٤	١٧	الشطار والمتقين	والمتقبين
٤	١٨	الجراب والمتخربين	والمتغربين
٥	٣	اصحاب النائر والمقيسين	والمقلسين
٧	١٦	فوجدتها محيلة	مختلة
١٠	٢	انا تلقطناه	تلقطناها والضمير راجع الى الاخبار المذكورة قبلا
١٠	١٣	مائة ورقة واحدا	واحدة

١) الخزانة الشرقية ٢: ١٥٢–١٦٧.

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته :
١٢	٣	هذا من موضوعات الوراقين — اصلحه في فهرس الخطأ وقال ان الصواب « الزرّاقين »	والصواب ما ورد في الاصل اي الوراقين وجاء نظيره في «نفح الطيب» و«وفيات الاعيان» حيث روي هذا الجواب
١٦	١١	شديد الحرارة	الحَرّ
١٧	١١	بلغت القيمة تسمائة الف دينار	« سبعمائة الف دينار » يدل على ذلك قوله : اخـذ يصدقني ويقوّم وأحصي الى ان بلغت القيمة لذلك ثلثمائة الف دينار فقلت له : يا هـذا من ببغداد اليوم يحتوي ملكه على الف الف دينار
١٨	٩	ما زلت اتلحظ المقصدة حتى وقعتُ عليها	اتلمّظ اي اتتبّع ولم ترد تلحظ بمعنى لحظ
١٩	١	إدام النضّة مني	النضّ مني وهو ما عناه قبلًا بقوله : تنقّصني في مجالسه وورد له لفظ النض في غير موضع من النشوار
١٩	٧	يجري عليه ملكي	يحتوي عليه
١٩	٨	وقع الي الرأي	وقع لي
٢١	٢	سقط في يده	في يديه
٢٢	٣	امر بافشاء الكتب	بانشاء الكتب ومثله قوله : فانشأنا من الديوان كتباً (ص١٥٦) وبذلك يسقط ما علقته مجلة المجمع العربي (٤ : ٦٣) على صلاحية كلمة « افشاء » لوضعها بمعنى تعميم
٢٢	٣	وصيانة الشياني	اسبابي
٢٢	١٠	احمد بن ابي بكر بن دامة	بن بكر
٢٣	١٧	قيمة كل واحد	كل واحدة لان الكلام على ثلاثين جامة
٢٤	١٣	دفع اليه رجل قصة	رفع بالراء
٢٤	١٥	فاستطالت به علي	بها اي بالمائتي ديناراً
٢٥	١٨	يستحق	يستحق
٢٦	١	فجلس الى ان لم يبقَ في مجلسه غيري	فجلستُ الى ان
٢٦	٦	قال وقد خلا بي	قال لي
٢٩	١٧	قبص شتري	شتري وشتر او تستر من مدن خوزستان مشهورة بجودة الثياب

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
٢٩	١٩	ولكن اشتريتُ لي	ولكني اشتريتَ لي
٣١	٤	دخل الى بيعتها ويقرب بها	وتقرّب فيها اي تناول القربان
٣١	٦	خارج عن الملة	عن الملك
٣١	١٣	ابرك رأي وأصح	واصحه كما في كتاب هلال وفي الاصل
٣١	١٨	وعدد اشياء	وعدّدا اشياء اي البطرك والقاتليق
٣٢	٧	وتاملت الى ثياجم	تأملت ثياجم
٣٢	١٩	ولا تفعل	فلا تفعل
٣٣	١٠	ابي عون	ابي عوف
٣٣	١١	من تحصل في قريتـه من اسارى المسلمين	من يحصل
٣٣	١٢	ينفق على بيعه في بلد الاسلام	على بيعة
٣٣	١٥	كلما لفحنا البرد	كلما نفحنا قال الاصمعي : ما كان من الرياح نفح فهو برد وما كان لفح فهو حرّ
٣٤	١٦	حرمة هي	حُرمته لي
٣٥	١٢	وتشوق	وتشوّف اي تطلّع الى الخبر
٣٦	٥	فيصير فكالا	فتصير نكالًا وهي في خطاب رجل مزوّر
٣٦	٨	عليك	عنك
٣٨	١٠	قصة ظريفة	طريفة اي نادرة غريبة كقوله بعـد : من طريف حِيَل اللصوص (ص٧٨) ومثل ذلك (٧٦-١٤ و١٧٣-١٢ و١٩٣-١٩) وردت في الاصل بالطاء المهملة بدلًا من الظاء المنقوطة في المطبوع
٤٠	٣	أكثر نعمه	نعمته اي ماله ورزقه
٤٠	١٢	مثالها	مثالها
٤١	١٦	ويسأله	وسأله
٤٦	٤	ووافقته على اجرة	وواقفته بالقاف قبل الفاء وهـذا الفعل يرد كثيرًا في كتابات العصر العباسي بمعنى المباحثة والمحاورة والموافقة
٥٠	٧	غنت جاريةٌ بدعة	غنت جارية عريب بدعة وفي (ص١٣٢) ان بدعة كانت جارية عريب
٥٠	١٣	تقشف ابي حازم وبغضه	علق على لفظة «بغضه» كذا بالاصل وارجح ما يتبين لنا في هذه الكلمة انها محرّفة عن « تمنّعه »

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
٥٢	١٨	عاد يقرانا في القصيد	يقرأ ما في القصيد
٥٤	١	حدثني ابو حامد القاضي قال	كذا دون تعريف آخر وهو احمد بن بشر بن عامر المرابساني القاضي الفقيه
٥٨	٨	فسجدوا للملك تواطئا له	وفي الاصل: « فسجدوا له » فقط ووردت عبارة (الملك تواطئا له) في السطر التالي فنقلها سهوًا الى السطر المتقدم
٦٢	١٨	كان شديد البرّ بامه وكان يتبمض لها بالماء	كان يتنفّس لها
٦٢	١٩	كان اذا استطاب لونا ان ينفذ من مائدته	قال في فهرس الاغلاط (ص٣٦٩) لعله : كان يأمر ولا حاجة الى هذا التصحيح لان الاصل : اذا استطاب لونًا امر ان ينفذ
٧١	١٧	ويقولوا عليه	ويتقولوا عليه
٧٢	٥	وتمثل لي كلامه	وتمثل في كلامه
٧٣	١٣	الدنيا النكرة	كذا في الاصل وعندنا ان الصواب: الدنيا النكِدة
٧٤	١٣	ما اخبرت باسمه	ما اخبرتك
٧٦	١	حتى اتوزر	حتى اتّزر
٧٦	٩	يرجع فيها الحسي	الكسبي
٧٧	١٣	مات الموفق فاجملوه مكسورًا	وفي الحاشية : كذا بالاصل والصواب نمكسودًا وهو لحم مجفّف
٧٨	١٨	طلب المقاتلة والخروج	المفالتة اي حاول ان يفلت منه ويخرج
٨١	١٦	آيس منه	أيِسَ منه
٨٦	٥	النور الشمشاني	الشمشاني
٨٧	١١	خرزتين شوكًا	جرزتين
٨٨	١١	فقبل رأس بغله (وفي الحاشية لعله : فقتل)	فقتل
٩٤	١	كان يجذو دائمًا بمائتي دينار وفي الحاشية : لعله ينذو يعني اهله	يجذّر اي يدفع الجذر وهو اجرة المغني
٩٤	٦	عصائب القصد	عصائب للقصد
٩٤	١١	وسمعت بعض الطباب وفي الحاشية كذا بالاصل ولعله الكتاب	الصواب : طياب جمع طيّب كجياد جمع جيّد ويظهر انهم كانوا يطلقون هذا النعت والجمع على النساء ايضًا ومنه قوله (ص ١٢٣) كان معها منهن عدة محسنات طياب حذاق، ما لم يكن طُيّاب بالضم والتشديد

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
٩٧	٣	ان حاله	«ان ماله» وقد أشير اليه قبلاً
٩٨	١٤	قلع وجه العود وملأه لها دراهم توسع نيفاً وعشرين الف درهم	فوسع
٩٩	١٢	تفرق الناس وحيل بينهم وبين رجالاتهم	« رحالاتهم » بالحاء جمع رحالة
٩٩	١٦	ورد منه الركوب	واراد منه
١٠١	١٢	واخذ جبينه وكفه (وفي الحاشية كذا بالاصل ولعلها كلمة محرفة)	عندنا ان الاصل يجب ان يقرأ « وكتفه » اي كتف الأسد
١٠٢	٨	اطالبه بما يخرج الحساب عليه	بما يخرجه
١٠٢	١٦	يكون نعيك بازاء استيفائك من عدوك	« اشتفائك » كما يترجح عندنا
١٠٤	١٦	فوصل الى الابلة وقد فارقت انا بغداد (وفي الحاشية : الاصح «قاربت»	لا حاجة الى هذه الحاشية وهذا التصحيح لان الاصل جلي ظاهر : قاربت
١٠٦	١٢	وركب على ابن قديدة مالا عظيما فلم يكن له وجه وفي الحاشية الملقة على كلمة وجه « كذا بالاصل »	ولا نشك ان الاصل يجب ان يقرأ « لم يكن له وجهة » اي طريق ومُوجب
١١٠	٣	منزلة بما لها من الجلالة	« منزلة بجمالها من الجلالة» اي تامة موفورة
١١١	١٦	فخرج اليهم يقاتلهم فنتك فيهم	« فنكى فيهم » اي قتل وجرحٌ وأثر
١٢٠	١٦	فجاء فارتفع المجلس	فارتفع في المجلس
١٢٣	١٩	كانت امرأته تحتال له ما تقتاته يوماً	« ما يقتاته » اي ابو يوسف حين صحب ابا حنيفة
١٢٦	١٩	قال فضحك والله هذا الصديق	فضحك ...والامر على ما قاله
١٢٩	١	كان قديماً عندنا بالبصرة ستة وثلاثين الف شاهد	وثلاثون
١٢٩	٧	كان مبلغ من قبله التميمي ستة وثلاثون الف شاهد	وثلاثين
١٢٩	١٨	جلست الاعب المعتضد بالنرد فقامرته سبعين الف درهم	فقمرته
١٣٣	٥	قمت الى جواري ... الى ان اجتمع لي من حليهم	من حليهنّ كما في الاصل ولا ندري لمَ ابدل الضمير

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
١٢٨	٥	ترى طاب غلماني هؤلاء علي وطالبتهم اياي بالمال	كَلَب غلماني (بالكاف)
١٤٠	٩	ان في قتاء إصلاحا للامة	صلاحاً للأمة
١٤٢	٢٨	الملوك والعنابر	المسوك (جمع مسك)
١٤٢	٩	فيجعل بدل حب القطن ويشرب دهن البلسان	تُجعل (الازرار) وتُشرَب
١٤٤	١٦	فمرض بالجلوس	فَفَرِض (اي ضجر ومل)
١٤٩	١٥ و١٦	شهوة للفرس	للفرش
١٤٩	٢٠	انا اعرف استحسانك لها	اعرفه (اي الخليفة)
١٥٠	٩	فقومته له فيما استرخصتها	قومته له قِيَما (جمع قيمة)
١٥٠	١٥	كنت اذا تجمات اليه	تحمات (بالحاء المهملة اي استشفمت)
١٥١	١٠	ما عندي الا خمسة آلاف درهم فسأله ان يأخذها.	فاسألُهُ او فتسأله
١٥٢	٧	ان بيتي هنا اخرب بيتي مع ما يرتكبه مني من المعصية ويلحقه بي من العار	ان بيتي هنا اخربتَ بيتي مع ما ترتكبهُ ... وتلحقهُ
١٥٢	١٢	قال المتضد لبدر : يا بدر جا الساعة	بادِرْ جا
١٥٤	٢٠	ونفذنا الناس	ونفّذ بالناس
١٥٥	٤	فجعلت اكتب فيها	فجعلت الكُتُب فيها
١٥٥	١٧	تخيلت اني ان امسكت عن التدبير ساعة ان يفوت	انه يفوت
١٥٥	١٨	لنبغوا علي من تحت سريري	لنبعوا علي (بالعين المهملة)
١٥٨	١٩	وتربوا على قوله	وربوا
١٦٢	١٠	اجتاز يوماً وبين يديه رجال يؤذن	رجاًلته (اي رجالة المحتسب)
١٦٤	٩	ما زال بها حتى اصلح بينها	ما زالوا (اي الشهود) به حتى اصلحوا بينهما
١٦٦	١٩	البطيخ الذي نسب فيما بعد الى المبدلايي	العبدلاني = العبدلاوي
١٦٧	١٥	وفيها بيننا سبب الحربُ	اصلحه المرحوم احمد باشا تيمور وقال : الصواب (سببٌ حربٌ) برفعها وهو مصدر وصف به (مجلة المجمع العربي

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
			٣ : ٢٢١) والاصح ان الاصل كان «وفيا بيننا ثُبَّتِ الحرب»
١٦٨	١٩	فقالوا نصححه في ثلاثة ايام	نصححه (بالنون) (اي المال وكانوا قد طولبوا به عاجلًا)
١٧٣	١٦	فيأخذ من اللقم	فيأخذ منه اللُّقَم (اي من الطنجير)
١٧٩	٦	وادرت ارزاقهم	أَدْرَرْتُ
١٧٩	١٢	يرفعك بها	يدفعك (بالدال)
١٨٠	١٨	فمنت رأس دابتي	فثَنَيْتُ
١٨٢	٣و٤	يوجب عتباً عليه وكيف علي في تمكيني منه ؟	عتباً عليه ولك في تمكيني منه
١٨٤	٤	قد نفدت	نفذت (بالذال المعجمة اي خزائن الارض)
١٨٦	٤	فقلت لها مرض تمرفين	مرٌ من تمرفين
١٩٠	١٢	لم اكن املك غيرهما فهات اعطيه اياها	اياها (اي الدرهمين)
١٩٤	٣	ورقاصة وزفانة	ودفّافة
١٩٤	٩	فاخرجت هذى	هؤلاء (اي النساء)
١٩٦	٨	ما لايسعنا معه ان نحمد لك ويجب ان تعرفنا نفسك	ان نجهلك ونحب ان تعرفنا نفسك
١٩٦	١٤	كان ممسكاً مكثرا	مُمسِكاً مقتِرًا (ولا يخفى ما بين الامساك والاكثار من التناقض)
١٩٦	٩	فاجمتهم على الرسم	فأجمُّهم
١٩٦	١١	ويفرق بجمعك	جمك
١٩٨	٥	الى ان تنقضي المصيبة فاذا نفدت	فاذا انقضت
١٩٩	٢	يحافظ لك الآخر	لك الامير
١٩٩	٣	فتصير في مراتب بدىء الامير وفي جملة	في مراتب ندمائهِ وفي جملتهِ
١٩٩	٤	الذين يودون قائماً	يؤذَوْن دائماً
١٩٩	٧	الآلات والنقوش	والفروش
١٩٩	١٦	واتخذنا غازحه	واخذنا غازحهُ
٢٠٠	١٦	ما شبعوا شيئاً بزهمها	شيئاً زهمها (اي اكسبها الزهم اي رائحة الدسم واللحم والفعل لازم لم يُروَ متعدياً)
٢٠١	١٩	ورغيف واحد وسكر وملح وخل	واحد وسُكُرّجَتي ملح وخل

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
٢٠٢	١٢	ربحت باكلة اقرتها خمسمائة دينار	بأكلة افتديتُها (كما ورد في ارشاد الاريب ١: ٣٩٧)
٢٠٣	١١	وخلت معه	وخلت
٢٠٤	٧	وربحنا ان نعطى	ورسمنا ان نُعطى
٢٠٦	٨	بريد الطرادة	بريد (بالباء الموحدة كناية عن السرعة)
٢٠٧	١٦	إن وزنت خمسين درهما في اليوم ولست أجد لك	لستُ أجدُ لك (بدون الواو في جواب إن)
٢١٠	١٥	عبدالله الايدجي	الايذجي (نسبة الى ايذج بالذال المنقوطة بلدة بين خوزستان واصبهان)
٢١١	٥	يدير امور الوزارة	يدبّر (بالباء الموحدة)
٢١٧	١٤	حدثني ابي قال اماشي المموج الشامي	قال : كنت أُماشي
٢٢٦	٢٠	مضى وباحناء الضلوع هوا كم الى ان يرى انشاءه بعد حاصده	يرى إفشاءه (وهو الاصل لانك لان الهوى كان كامنًا في احناء الضلوع)
٢٣٢	٧و٨	بيتان لابي فراس	وردا في الاصل البيت الثاني في موضع الاول وبالعكس
٢٣٣	١٩	ومرتد بطرة مدله الرفارف	ومُرتَدٍ بطُرَّةٍ مُـدلّةِ الرفارفِ
٢٣٥	٤	حالقا على اخيها	خالقا (بالخاء المنقوطة)
٢٣٥	١٥	التوفيق والسواد	والسداد (بدالين)
٢٣٧	٢	لا يبسط لبطل امل	لا يبسط لمُبطِل
٢٤٣	٧	صاحب لابي هاشم	ولم يرد في الحكاية المطبوعة من هو ابو هاشم وفي الاصل (ص١٦٣) ابو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب
٢٤٣	١١	ابي العربان	العريان (بالياء المنقوطة باثنتين)
٢٤٤	٨	قل الوزير	قُل للوزير
٢٤٤	٨و٩	فارجع الى صاحبك فقصه	فَقَصَّه (اي قل لهُ اعز الله القاضي)
٢٤٩	٤	يحسبك	بحسبك (بباءين)
٢٤٩	٢٠	نلعب بالنرد ؟ قال نعم فوضعناها	فوضعناه (اي النرد)
٢٥١	١٣	تجاوز الوصف وتفوق المد	وتفوتُ المدَّ
٢٥٣	٣	مد عوارفه	مَدَدُ عوارفه
٢٥٣	١٩	المسألة	المسالة (بعد قوله الموادعة)
٢٥٥	١	اجل حال	اجمل حال

الصفحة	السطر	المطبوع	الصواب في الاصل المخطوط كما يجب قراءته
٢٥٥	٣	ولا يتعرض على ضعفاء ساقته	لا يُعرِّج (كما كان لا شك بالاصل)
٢٥٦	٨	ابو القاسم بن محمد المروروي	الصَّرَوي (كما في الاصل وكما سبق في المطبوع ص٢٠٦)
٢٦١	١٢	نبيذ مصر المعروف بالشبروي	الاظهر ان الاصل كان « الشبروي » بالباء الموحدة نسبة الى شُبرى او شبرا المشهورة بمصر
٢٧٢	١٢	كان يتشاغل بدكان	بدكانه
٢٧٧	٩	ليتسمحوا به ويستحلوه	ويستحلّوه (اي يطلبوا منه ان يُحلّهم ويسامحهم)
٢٧٩	١	بأفرادي (وفي الحاشية : لعله باخراجي)	بإقراري (وهو ما يترجح تصويبه عندنا اي اقراره بالقتل)
٢٨٠	٨	لا اريد الا قتل قاتل ابني اثر في نفسي	آثر (اي احب الى نفسي)

ما علق عليه ولم يوفق فيه

الصفحة السطر

١٨ ١٢ « ما كانت فيه سلامة » قال : « كناية عن بلادة » وانما السلامة سلامة القلب ويراد بها السذاجة والخلو من الدهاء .

٣٠ ١٥ « امر لا يبلغه سلطاننا » قال : يخالف اسلوب الكلام عند هلال هذا وهو اقرب الى الحق فان السلطنة أسست بعد هذا الوقت » وانما السلطان هنا بمعنى السلطة والمقدرة او كما نقول اليوم « الحكومة » ولم يرد بها الوزير علي بن عيسى اللقب الذي شاع فيما بعد بين السلاجقة والماليك والاتراك وتسمى به كل من ملك منهم وقد كان يكفيه ان يتنبّه لقول علي بن عيسى مشيرًا الى مدينتي انطاكية وبيت المقدس « والبلدان في سلطاننا » (ص ٣١) ليعلم ان السلطان في الموضعين يعني ما كان تحت سلطة الخلافة العباسية وتدبير الوزارة العراقية .

١٠٧ ١ « فاستعديت عليه الى القاضي . . . فكتب لي عدوى الى صاحب المعونة » وفي الحاشية : لعل الاصوب : اغدوا الى اي اذهبا غداة غد » وشتان بين هذا التمحّل والمعنى المراد في الاصل ولا نخال الا انه اساء قراءة لفظة عَدوى وهي بفتح العين طلبك الى الوالي ليُعديك على من ظلمك وينتصف لك منه والمقصود ان القاضي كتب له طلبًا الى صاحب المعونة اي الوالي ان يقبض له على غريمه .

١٠٩ ١ « لا رحت رائحة الجنة » وفي الحاشية : لعله لا رُوِّحتَ » ولا حاجة الى هذا التأويل والتبديل لان الاصل صحيح وهو من قولهم راح الشيء يريحه ريحًا اي وجد رائحته .

١٠٩ ١ « ولِمَ ولاي شيء اليّ » وفي الحاشية : كذا بالاصل » والصواب : ولِمَ ولا شيء اليّ وانما انا اعمل الحساب » اي لستُ مسؤولًا عن شيء سوى الحساب .

الصفحة السطر

١٠٩ ٨ « يحيثونك بالتراوير فتسقطها انت » وفي الحاشية لعله : فتقسطها » وهو الصحيح ولكن فاته ان ينبه على ان معنى تقسطها هنا نعدلها ونمتدها حقاً

١١٤ ٥ « ادخل فيه قوماً بالزمانات » وفي الحاشية : يريد بالضمانات » ولا ندري اين وجد ان الزمانة تجيء بمعنى الضمانة وانما مراد التنوخي ان ابن الفرات وضع من القضاء وادخل فيه قوماً بهم زمانات اي عاهات وآفات كالشلل ونحوه

١٢١ ١٣ « اعد خطاه من حيث تقع عيني عليه من داري الى مجلس » وفي الحاشية : لعله داره » وهو تصحيح في غير محله لان القاضي كان ينظر الى الرجل ويعد خطواته منذ دخوله دار القضاء الى ان يبلغ مجلس الحكم

١٧٥ ١٦ « ودفع الحساب عليها » اي على الجماعة وهي في لغة الدواوين جريدة المعاملات والرسوم وعلّق على قوله « دفع » لعله : ورفع » وهو خلاف المقصود والمعنى يقتضي « ووقّع » اي صحّح الحساب ورسم عليه علامة بالقبول »

١٩٨ ٥ « الى ان تنقضي المصيبة فاذا نفذت تقدمت وصيتي » وفي الحاشية : لعله سقط بانفاذ » اي تقدمت بانفاذ وصيتي وهذا التعليق في غير محله لان الاصل صحيح وانما بدّ له وزاد فيه سهواً وهو بالحرف : « اذا انقضَتْ نفَذتْ وصيتي »

٢٠٨ ١ « جررت برجل ابي من الدار حتى جرزتني منها » وفي الحاشية : لعله حيث » اي بدلاً من « حتى » وانما التبست عليه كلمة حتى والاصل « من الدار التي جرزتني منها »

٢٥٢ ٥ « من غير مسامحة لاحد من اهل زماننا في معاونتنا بغير الثياب » وفي الحاشية : كذا بالاصل والمعنى غير واضح » ويتضح جيداً اذا اريد بالثياب كما هو الارجح الكُسى التي جمعت وفرّقت على الاسرى الذين وقع عليهم الفداء يريد سيف الدولة انه لم يعاونه احد في هذا الفداء بغير الثياب وحدها وانه دفع من ماله ما لزمه في شراء الاسارى

ما اسقطه سهواً واعتباطاً

		الاصل المطبوع	الساقط بعده
٣٧	١١	استتر في دورنا عند . . .	عند ابي
٦٦	٥	من الاسوقة	من مشهور الاسوقة
٧٠	٤	اذا اراد الله بقوم خيراً ولّى عليهم خيارهم وامطرهم المطر في اوانه	واذا اراد بقوم سوءاً ولّى عليهم شرارهم وامطرهم المطر في غير اوانه
٧٤	٨	امر المعتضد بالجرائد فاحرقت ظاهراً	ولم يقف على شيء منها
٧٦	٧	واخبرني	ايضاً
١٠١	١٠	كلما دخل جوف الاسد	الماء

الصفحة	السطر	الاصل المطبوع	الساقط بعده
١٤٢	١١	بدلاً من حب القطن ..	والنفط
١٤٣	١١	ففعلت ذلك	ومضت تلك الثياب الكثيرة الاثمان في هذا قال: وقال لي ....
١٤٥	١٨	توزن آجرة كل واحد	منا
١٥١	٩	اعظمه اعظاماً	تاماً
١٦٤	٤	علي السراج	القاضي
١٦٥	٥	رجل حر كريم	كبير
١٧٠	٦	لئلا يراني	قد رأيت ذلك منه فكنت اجلس بحيث ان اسمع ولا يراني فيطالب
١٨٠	١	فيكرمونك	لهُ
١٨٤	١٠	وقال له تسخر مني	يا هذا هوذا تسخر مني
٢٠٣	١	وغث وقد مضى نصف الليل	وقمتُ
٢٢٢	١٩	خذ هذه واصلح	امرك وتوسع بها في نفسك ثم قال: هاتم ثلثين الفاً فجاؤوا بها وقال: خذ هذه فاصلح بها امر بناتك
٢٥٥	١٣	فانشدته ابياتاً عملتها في الحال	وهي:
٢٦٥	١٣	انا وغيرنا	من العرب
٢٦٦	٦و٧	حوّل مولد نفسه السنة	في السنة
٢٧١	٥	وتوقيت بعد ذلك مؤاكلته فقال ابي ما كان في حالي وبعتك جاهي	١ من الجلي الظاهر ان في هذا القول كلاماً ساقطاً او تخليطاً سيئاً ولذلك علق عليه بعد لفظة «مؤاكلته»: «يظهر ان هذه حكاية ذهب صدرها ويوجد في الفخري ما يشبهها» ومن الغريب جداً ان يكون مرجليوث هو الذي اذهب صدر الحكاية واحدث هذا التخليط لان العبارة الاولى حتى قوله: «مؤاكلته» واردة في ختام حكاية البريدي وقد علق عليها التنوخي حكاية اخرى عن كرم ابي عبدالله بن جعفر بن القاسم الكرخي على مائدته خلافاً للبريدي رواها له ابوه وهذا نصها نقلاً عن الاصل المخطوط الساقطة منه غفلة وسهواً بعد اسطر ثلاثة في الاعتذار عن بخل البريدي): «قال ابي:

ما كان ابو عبدالله بخيلًا على الطعام وانما كان نهماً شديد الجوع وكان في اول آكله والى وسطه يلحقه هذا النهم وربما اطلق هذا فيظن من لا يعرف طبعه انه بخيل ويحتاج من يوآكله الى التقدير حتى يمضي نصف اكله فاذا مضى نصف اكله انبسط وانطلق وجهه وساءه وغمّه ان يقصّر من يحضر في مؤاكلته وقال : هوذا ينسبونني الى البخل لِمَ لا يأكلون؟

« ١) ولكن ابا عبدالله بن جعفر بن القاسم الكرخي هو الجواد على الطعام والمال لقد دخلت اليه يوماً بالاهواز وهو عاملها اقلب عليه ثياباً ولم يكن بيننا معرفة فاخذ منها ما اراد ووافقني على الاثمان وطال جلوسي عنده فجاء غلمانه باطباق فاكهة فقمت فقال : ما هذا الخلق النبطي يا ابا الحسن ؟اجلس فجلست فاخذت في الاكل وكنت جائعاً فاقبلت آكل كُمثراة كُمثراة في لقمة وخوخة خوخة في لقمة وتينة وتينة في لقمة وهو ينظر الى ذلك ويستحسنه ويضحك منه ويعجبه وكان ضعيف الاكل جدًّا وكلما جئت لاقطع حلف علي ولقّمني بيده ثم شيلت الفاكهة وجاؤا بالطعام وكانت هذه صورتي عنده وانصرفت (f° 182 v°) فلما كان من غد نصف النهار وكنت جالساً في دكاني بالبزّازين فاذا بفرّاش ومعه غلام تحته بغل فقال : العامل يطلبك فلم ادرِ ما هو فركبت البغل وصرت اليه واذا المائدة منصوبة وهو ينتظرني

١) هذه الحكاية تابعة لحديث ابي الحسن مطهر بن اسحق بن يوسف الاهوازي ويؤخذ من كلامه انه كان بزّازًا .

فقلت : ما يأمر الاستاذ ايده الله ؟ فقال اني استطبت مؤاكلتك بالامس واكلت فضلاً مما جرت به العادة فلما قدّمت اليوم المائدة لم اتهنأ بالاكل فعزلتها واستدعيتك واريد ان تجيء في كل يوم قال : فكنت اتأخر في الايام فيعاتبني وينفذ الي بغلا اركبه وولّد ذلك لي محلا عظيماً في البلد وجاهاً وكسبت به عليه في البز وغيره مما اراد شراه من جميع ما كان يحتاج اليه في داره مالا جليلا

(ويلي هـذه الحكاية في الاصل المخطوط حكاية اخرى وردت في معجم الادباء (١ : ٤٠٠) وفات الطابع الاشارة اليها وهي التي بُتر اولها ونسي ان ينقل منه ثلاثه اسطر وهي) :

« حدثنا ابو العباس هبة الله بن المنجم قال : سمعت ابا عبدالله الموسوي يقول : قصدني ابو جعفر محمد بن يحيى بن شيرازاد في ايام تدبيره الامر قصداً قبيحاً وعمل لي كتّابه مؤامرة في خراجاتي بمائة الف درهم أكثرها واجب علي وباقيها كالواجب واحضرني للمناظرة عليها فاعتقلني في داره فضقت ذرعاً بما نزل بي وعلمت ان المال سيؤخذ مني اذا نوظرت وانه يؤثر (f° 183re) في حالي . . .

٢٧٢	٤	ما أخاطبك مما في نفسي ولا فيما اردت	بشيء مما في نفسي ولا مما أردت
٢٧٢	٩	الى ان مضى	لسبيله
٢٨٣	١٧	رأيت ان الثوب يفوتني	يريد ان يفوتني (اي يهم ان يفوتني)

وهناك مواضع أخر اغفلناها على ارتيابنا منها لاننا لم نكن منها على ثقة في تصويبها او لان المرحوم احمد تيمور باشا نبّه عليها في مقالته « الالفاظ العباسية ».

R. Devreesse, *Le patriarcat d'Antioche, depuis la paix de l'Eglise jusqu'à la conquête arabe*, (Coll. « Etudes palestiniennes et orientales ») XXIX-340 pp., Paris, Gabalda, 1945.

دوڤريس — بطريركية انطاكية : منذ سلم الكنيسة الى الفتح العربي

من « مجموعة الدراسات الفلسطينية والشرقية »

باريس سنة ١٩٤٥

لم يتوفر بعد للعهد البيزنطي الاول ما توفر للعهد الروماني قبله، من ثبت دقيق مفصل عن ابرشياته ومن تولاها من الاساقفة — اللهم سوى المؤلف الشهير الذي خلفه لوكيان عن « الشرق المسيحي » — الا انه يصعب التدقيق في صحة اللوائح التي اثبتها لوكيان نظرًا لان مستنداتها بعيدة وعزيزة . واذا كتاب المونسنيور دوڤريس يسد هذا الفراغ ففي قسمه الثاني تاريخ المقاطعات الاكليريكية والابرشيات والكنائس مع ثبت بمن تولاها، في ذلك « المربع الكبير » المنبسط من خليج اضاليا الى الفرات، ومن الفرات الى عكا، مارًا بالساحل الغربي من البحر الميت. ولقد وجد المؤلف القسم الاكبر من اسانيده في المؤلفات اليونانية والسريانية، الا انه افاد كثيرًا مما اوضحته الحفريات الاثرية بحيث استطاع ان يرسم لوحة لم يُسبق اليها بعد عن مدى انتشار الطوائف المسيحية، الارثذكسية وغيرها، وطابعها وتاريخها — ضامًا الى ذلك الفهارس المفصلة والرسوم الجغرافية التي تسهل البحث والتفتيش.

على ان الكتاب ليس مجرد لوائح جديدة وتامة. فان فصوله السبعة الاولى «تبسط موجزًا تاريخيًا عامًا للبطريركية الانطاكية منذ ان تمتعت الكنيسة بالسلم حتى توطد الاسلام» وبالرغم من ان هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة كانت بالغة الاضطراب ومن اليسير على المؤلف ان يقودنا بثقة خلال ما اثارته بدع اريوس ونسطوريوس ويعقوب الرهاوي اذ انه قد استحكم الاصول والاسانيد استحكامًا يعز على الكثيرين، ويرسم لنا فترات السلم التي تمتعت بها كنيسة انطاكية بين ٣٨٠ و٤٣٠ اي في زمن اجل ملافنتها امثال ديودور الترسوسي، ويوحنا فم الذهب . واما الفصل السابع فيعرض احوال الشعب عند الغزو العربي معددًا

العوامل التي افسحت له في المجال. وكل هذا مما يهم التاريخ البيزنطي والتاريخ الكنسي في الشرق.

وللمؤلف نظريات جديدة قد احكم استنتاجها مما اتاحته الدراسات الاثرية واللغوية الحديثة — فالمؤلف يطيل البحث في الفصلين ١٣ و١٤ في «المقاطعة العربية» ومقاطعة سوريا الشرقية، وكان قد تطرق المؤلف ذاته الى هذا الموضوع في بحثين نشرتهما له مجلة Vivre et Penser التي صدرت اثناء الحرب بدل مجلة ابحاث الكتاب المقدس (Revue Biblique). وان الفصول التي خصها بمنطقتي وادي الفرات وما بين النهرين، وتاريخ المسيحية فيهما تهم كل شرقي، مثل النظريات العامة التي قدمها تحت عنوان « العرب. الفرس، والعرب الرومانيون، اي بني لخم والغساسنة » وجدير ان ننوه برأيه عن الغساسنة (ص ٢٧٧) حيث يوضح ان تقدير الحكام الروم للغساسنة لم يكن بحيث يكلف الامبراطور جوستنيان هؤلاء البدو وحدهم بمهمة صد الفرس عن الحدود الصحراوية.

وجدير كذلك ان ننوه بشكه في تأويل التاريخ المحفور على قبر امرئ القيس — فالمرجح ان هذا التاريخ لا يعود الى الحساب العربي المعهود يومذاك

ر. م.

G.E. Grunebaum, *Medieval Islam.* A Study in Cultural Orientation. In-8°, VIII+362 pp., 1 carte, The University of Chicago Press, 1946.

فون كرنباوم — الاسلام في العصور الوسطى — بحث في الاتجاه الثقافي

جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٦

هذه مجموعة محاضرات عامة القاها الاستاذ فون كرونباوم في ربيع سنة ١٩٤٠ في جامعة شيكاغو، كان جل اهتمامه فيها ان يرسم للاسلام في اوجه لوحة واضحة ودقيقة، دون ان يحصر البحث في التاريخ، ولا في الادب ولا في الاقتصاد، بل يستعين المصادر التاريخية والادبية المعروفة ليجلو ماذا كانت الثقافة العربية يومذاك.

يقابل المؤلف بين الاسلام في العصور الوسطى وبين الغرب والشرق المسيحي وكانوا ثلاث كتل تتقاسم النفوذ في الحوض المتوسط على شكل ثابت يكاد

لا يتحور . مبيناً كيف كانوا عبارة عن حضارات ثلاث تجهل بعضها بعضاً على كونها جميعاً من جوهر واحد ذاك بان كل واحدة مكتفية بما عندها . فالاسلام يؤلف وحدة اقتصادية ويعتبر نفسه محور العالم . والامبراطورية البيزنطية تعيش على ميراث القياصرة والأرثذكسية ؛ في حين كان الغرب يساوره العجب بايمانه الجديد وبقوته المتصاعدة .

ويعني المؤلف بتفهم الاسلام فيدرسه في اصوله مفرقاً بين الحقيقة التاريخية في نطاقها الشرعي الثابت ، وبين ما اتتجته تقوى الجمهور .

اما مـا كان عليه المجتمع الاسلامي في ذاك الوقت فيتراءى انه النظام الطبقي المعهود في الغرب ، تعيش كل طبقة منكمشة على ذاتها ، وقيمتها ومنزلتها مستمدة من العلم والدين ، اكثر منها مما تؤديه من خدمات . على ان المؤلف يغالي نوعاً في ذلك معلقاً اهمية فائقة على كتب نظرية مستوحاة من اليونانية .

وفي الفصل الاخير ، وهو اطول ما في الكتاب وابلغه اهمية ، يحاول ان يستخلص المثل الانسانية في ذاك الوسط من خلال الاثار الادبية . واميز طوابعها تفكير متشبث بالاصول والاتجاه ، وغني بالالفاظ دون المعاني ، وغيار الشخصية .

ولعل المسلم اذاك كان يقدر الراحة والاطمئنان اكثر من فرح التطور والتقدم . ذاك انه يعيش في وسط عالم منظم ، تحددت فيه الحقوق والواجبات . ثم انه امين الى مصيره ما دام لا يخرج على ارادة الله ، واما اذا ارتكب بعض المعصيات ، فشفاعة النبي كافية .

ولعل هذه النتيجة التي وصل اليها المؤلف تعبر عن حالة بلغ اليها الاسلام في ذروته ، ولكن ذلك لم يكن شأنه في القرون الاولى من حياته .

بقي ان نقول ان هذا الكتاب يقرأ بلذة ويتيح لقارئه ان يكون فكرة عامة مصيبة في الاجمال عن عالم يجهله الكثيرون من الغربيين بل الشرقيين ايضاً .

ا . د .